مع آغاثا في إسطنبول

كريْستينا فِرناندِث كوباس

ترجمة: علي إبراهيم أشقر

مكتبة ١١٧٨

مع آغاثا في إسطنبول

مع آغاثا في إسطنبول - قصص
تأليف: كريستينا فرناندث كوباس
ترجمها عن الإسبانية: علي إبراهيم أشقر

Con Ágatha en Estambul
Cristina Fernández Cubas

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 9 - 99 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2020

مكتبة
t.me/soramnqraa

28 5 23

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© Cristina Fernández Cubas, 1994.

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرَين الخطية.

كريستينا فرناندث كوباس

مكتبة | 1178

مع آغاثا في إسطنبول

قصص

ترجمها عن الإسبانية:
علي إبراهيم أشقر

فهرس

صندوق 7

ذات الرداء الأخضر 53

المكان 73

غياب 109

مع آغاثا في إسطنبول 125

صندوق

مكتبة
t.me/soramnqraa

كنت في الخامسة عشرة من عمري، لمّا علمت أن الشيطان يُدعى «نايلون»، وإليه، إليه وحده، يجب أن نعزو الأحوال الرديئة التي تتوالى. وقيل لي أيضاً إنّ العالم قاسٍ ومملوء بالشرّ، لكنني كنت أعلم ذلك قبل أن أجتاز باب الحديقة الحديديّ العتيق بفترة طويلة؛ وقبل أن أسمع بدهشةٍ أنين مصراعَي الباب الصدِئَين، وأسأل نفسي وأنا أقف تحت لهيب الشمس، وجسمي قد هدّه السفر: كم فتاةً في مثل سنّي اجتازت ذلك البابَ نفسه وسمعت الصرير الحادّ: آووو... تحيةً فيها شيء من النصح والتحذير؟!

مسح سائق سيارة الأجرة العرق عن جبينه بمنديله ذي المربعات، ونظر ناحية مستودع سيارة «الفورد» الضخم وكأنه يأخذ نَفَساً ليباشر الجزء الأشدّ إزعاجاً في مهمته. كان أبي قد اتّفق معه على آخر تفصيل: سيقلّني إلى غايتي، وسينقل المتاع عبر الحديقة حتى الباب الخشبيّ الضخم. حينئذٍ، يستطيع أن يعود إلى عربته، ومن ثمّ إلى القرية.

احتجّ السائق في البدء (لأن نقل الحمل الثقيل يحتاج إلى جهد رجلين)، لكنّ خشخشة بعض النقود أولاً، ثم فترة صمت ثانياً (في تلك اللحظة، تخيّلت والدي وهو يتحرّى جيوبه حتى عثر على إحدى تلك

الأوراق التي كان يسرّه أن يعدّها ليلاً، ثم يطويها وينشرها، أو ينظر إليها في الضوء الخافت)، انتهيا إلى تبديد تحفّظاته. أنا لم أشهد العقد، لأنني كنت في الغرفة المجاورة جالسةً على السرير من دون أن أُوفّق إلى التفكير في شيء محدَّد، مداعبةً، وربما من دون وعيٍ مني أيضاً، بزّةَ عرس أمي، متجنّبةً النظر إلى الجدار الذي عُلّقت عليه صور العرس وبعض اللوحات ومرآة. لكنني كنت أستطيع أن أسمعهما بوضوح. وانتهى السائق إلى القول: «حسن! هذا من أجل خاطرك!». وأردف: «سننطلق باكراً في الساعة السابعة. لا أحبّ أن أتعرّض لعُطلٍ في الطريق تحت هذه الشمس الحارقة». لم نتعرّض لعطل، لكننا لم ننجُ من حرّ الشمس التي كانت تصبّ شُواظاً من نارٍ فوق العربة خلال أربع ساعات استغرقتها الرحلة. كنت أجلس في المقعد الخلفيّ، كما رتّب والدي الأمر، ناظرةً من النافذة الصغيرة المفتوحة، متأمّلة بوجه خاصّ نفسي في المرآة العاكسة، وقد عبث الهواء بشعري، وغمر العرق وجهي، رافّة بجفني لأمسح الغبار الذي جرح عيني، إلى أن وصلنا إلى الطريق العامّ، ونبّهني السائق إلى أننا لن نجد بدءاً من هنا عقبة أبداً، وأننا سنصل إلى المدينة سريعاً. وأشعل لفافةً بانشراح، وشرع يغنّي: «بودّي أن أتزوّج...»، لكنه توقّف فجأة وعاد إلى صمته. ولمحته من خلال المرآة مضطرباً، منقبض النفس، لا يدري ما إن كان يجب عليه أن يعتذر أم لا، مصطنعاً نوبةَ سعال أنقذتنا كلينا من كلّ تعليق. كان العرق يتصبّب منه، كما تصبّب منذ قليل لمّا فرغ من نقل متاعي إلى الباب الخشبيّ الكبير. قرعتُ الجرس. وإذْ شعر أنْ ليس لديه سببٌ يدعوه للبقاء هنا دقيقة أخرى، راح يبحث عن كلمة ملائمة، فلم يُوفّق إلا إلى القول: «حسنٌ، أتمنّى لك إقامة طيّبة هنا!». واضطرب مرة أخرى، وأحسّ بالضيْق من حماقاته المتكرّرة، وهزّ برأسه مودّعاً، وقفل راجعاً. ولمّا صار خارج مدى بصري، صفق باب الحديقة بعنف. سمعت كلّ ذلك

بوضوح: سمعت صفقة الباب، ووقع الخُطا، وصدى المصراعين الصدئين بوجه خاص. لكن ذلك الـ «آووو...» الذي بدا لي منذ لحظة سابقةٍ تحيّةً ونصيحة وتحذيراً، تحوّل إلى «وداااعاً!». وداع حادّ أصمٌّ لا رجعة فيه.

لكن، لم يكن لديّ فسحة من الوقت لأسأل نفسي شيئاً، أو أُبدي دهشتي من أنّ الأبواب الصدئة يمكنها أن تتكلّم، أو أنسب إلى الحرارة خداع الحواس. وسرعان ما امتزج الوداع الذي باغتني به الباب الحديدي، بتحيّة يجهد صوتٌ في أن يردّدها من علُ، وأجبت عنها بجملة معلومة؛ وكما قيل لي ماذا سيحدث، لم أرَ أحداً. لكنني شعرتُ بأنني مُراقبة، ليس من عينين اثنتين وحسب، بل من مئات وآلاف العيون المختبئة وراء خصاص النوافذ. وانتظرت. لم يدم انتظاري طويلاً؛ فما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى فُتح الباب الثقيل لا كما كان يُخيّل إليّ، بمفتاح صدئ أيضاً، يُحدث طقّةً أو طقّتين، أو ربما حتى خمس عشرة طقّة، وإنما وجدت نفسي فجأة إزاء ممرّ رطيب ظليل، ولعبة من البكرات تعمل في صمت. في نهاية الممرّ كان ظلٌّ قاتم يتقدّم صوبي وجبينه مرفوع جداً، وذراعاه ممدودان: «أهلاً يا بنيّتي!».

وتقدّمت صوبه أيضاً؛ وسرعان ما نسيت السفر والحرّ وكلّ شيء آخر ما عدا الطراوة المحبّبة التي كنت أتنسّمها من الممرّ. وأضاف الصوت: «لكن، كارولينا، كيف جئت فارغة اليدين؟ ألم تجلبي معك أغراضاً؟».

وأجبت حينئذ بشيء ظللت أحتفي به زمناً طويلاً، شيء لم أعره تلك اللحظة أدنى اهتمام. لكنني ما زلت أتذكّره رغم السنين كأنه حدث بالأمس، ولا أستطيع إلا أن أضحك من نفسي. أجبت ببراءة: «في الخارج تركت إيل موندو El Mundo»(*).

سمعت أبي يردّد مراراً وتكراراً أنّ المهمَّ في الحياة، دخولها بقدمٍ

(*) سيرد شرحها بعد قليل. (م).

ثابتة، سواء في العمل أم في الزواج، أم في أيّ مشروع آخر نُقدِم عليه. لكن، آه، يا أصدقائي! (لأنّ أبي الذي ما كان يكلّمني تقريباً، كان يعجبه أن يُلقي محاضرة في بعض ليالي الشتاء قرب المدفأة، على الخوري وأمينة المكتبة والصيدلي، في أثناء زيارة من تلك الزيارات النادرة التي كانوا يقومون بها، مجتازين الحقول وصولاً إلى كارولينا، إلى أبعد بيت في القرية). لكن، كيف الحصول على هذه المهارة النادرة والخاصة؟ وبعد أن يقلّب الجمرات في صمت، يتذكّر بصوت عالٍ بعض المناسبات في حياته، استطاع خلالها أن يحصل على ما حصل بفضل هذه الموهبة، بفضل انتهاز الفرص. وينتهي إلى تعداد لائحة طويلة بكلّ أولئك الذين قد لا ينالون ما يطمحون إليه (يشير إلى العمال غير المهرة، والمياومين وبعض الجيران). لكنه كان ينظر إليّ بمؤخّر طرفه. وكنت أعلم حينئذٍ، في أيّ شيء كان يفكّر الصيدلي والخوري وأمينة المكتبة (إذ لا يوجد أدنى شكّ في أنك لا تدخل الحياة بقدمٍ ثابتة حين تجلب ولادتك الموت إلى أمك). وكنت أهرع إلى ملء الأقداح، وأترك الزجاجة قريباً منه وأنسحب إلى مخدعي.

لكنني دخلت ذلك اليوم الحارّ من آب حياتي الجديدةَ بقدمٍ ثابتة. سُرّت الأم أنخيليكا بجوابي سروراً كبيراً.

لم يكن لديها مجال لتعترف لي بذلك (شُغِلْتُ بإدخال الصندوق بمساعدة أخوات أخريات)، إلا حين أصبحنا بعد قليل وحيدتين في مكتب الرئاسة: «منذ زمن بعيد، لم أسمع هذه الكلمة حتى فكّرت للحظة...» -وشرعتْ تضحك- «لم أعتقد مطلقاً أن شبّان اليوم يستخدمون هذه الكلمة، لكن، انتبهي، هنا ينبغي لك...»، ثم وضعت نظّارة سميكة من الكاري، وبسطتْ فوق المنضدة حزمةً من المفاتيح مربوطة بخيط شُدّ إلى خصرها، واستعرضتها واحداً بعد الآخر، حتى عثرت على مرادها.

كان مفتاحاً عريضاً رقيقاً يشبه المفاتيح الأخرى شبهاً كبيراً. لكنها ما كانت تستعمله كثيراً، لأن وجهها أشرق لمّا رأته. فتحت خزانة سميكة قاتمة من دون أن تتخلّى عن بسمتها. وتناولت كتاباً.

«Mundo - Mundo... ها هي ذي: صندوق(*)، هكذا ببساطة. لننظر الآن في إحدى الموسوعات.. موندو Mundo: عالَم، دنيا. لا يهمّ».

في البدء لم أدرك بوضوح، لماذا تُتعب رئيسة الدير نفسها للتحقّق من شيء بسيط جداً. لكنني، بمرور الزمن، بمرور الأعوام التي مضت ببطء شديد، سأدرك أن الأم أنخيليكا كان يسرّها أن تقرأ وأن تتعامل مع الكتب وأن تداعب أغلفتها، وتنتهز كلّ مناسبة فتدير المفتاح في القفل، وتلتقي تلك الكنوزَ التي جعلتها حياة العبادة والعزلة محفوظةً في حرزٍ مصون. حينئذٍ، ما كان بمستطاعي أن أعرف ذلك؛ وإنما كنت أعلم بشكل غائم أنه لا ينبغي لي أن أتأثّر بحياة الشظف والحرمان التي تبالغ عادةً ربّات الدير بعرضها لاختبار عزيمة المبتدئات والمرشحات؛ وأن حياة الدير قد لا تكون أسوأ من العودة إلى «كارولينا»؛ وأنني يجب عليّ أنْ أُبدي استعدادي لإطاعة كلّ أمر، اللهمّ إن لم تندم الأم أنخيليكا على قرارها، فلا أجد مناصاً، آنذاك، من أن أطوي دروب العودة. لذلك، أتذكّر يومي الأول في الدير بوضوح شديد. أتذكّره كلمة كلمة، صمتاً فصمتاً: أتذكّر التعبير الذي علا وجهَ الرئيسة لمّا سلّمتها المغلّف. أذكر ارتعاشة يديها الخفيفة، وتماسك وجهها سريعاً. رعشة خفيفة انتابت الرئيسة لمّا ذكرت الأب خوسِه، وهي تداعب الورق بأصابعها. «الأب خوسِه»، قالت ببطء، «حدّثنا عنك كثيراً». خلال الصمت القصير الذي تلا ذلك، التهبت وجنتاي، وخفّضت بصري، واجتاحتني دوّامة داخلية كانت تهدّد بأن تشي

(*) صندوق خشبي كبير ذو دروج. (م).

بي؛ ونشأت عقدة في حنجرتي لم تنفكّ إلا حين تابعتِ الرئيسة بحزم: «عن ورعك». وهدأتْ حينئذ خواطري، واستمعت إليها وهي تعدّد أشكال الحرمان والتضحيات والمواقيت والواجبات، كما كنت أتوقّع، وكما قيل لي من قبل. لكن صوت الرئيسة كان ألطف كثيراً جداً من صوت الأب خوسِه وهو يقلّدها. وما عدا تلك اللحظة التي ارتعشت خلالها يداها بخفّة لمّا لمستِ الظرف، رعشة كنت أعرفها جيداً، وهي الرعشة ذاتها التي انتابت والدي الليلة الفائتة وهو يعدّ أوراق النقد قطعة... وراء قطعة، أو لمّا تلوّثت الرزمة بالصمغ، أقول، ما خلا ذلك، كان كلّ ما فيها يبدو أنه يحتفي بوصولي. «هذا ليس قلعةَ روحةٍ من دون رجعة»، كانت تردّد الآن باسمة، وكأنها لبثت زمناً طويلاً لتلفظ هذه الجملة؛ أو أنها تذكّرت ذات مرة لمّا لفظتْ رئيسة أخرى هذه الكلمة منذ أمد سحيق. وأردفت: «أنتِ صغيرة جداً؛ وما تزال أمامك سنوات حتى تصبحي راهبة. لكننا لن نقيم أيّ تمييز بيننا. حياتك ستكون مثل حياتنا بالضبط. أفضّل أن أوضّح ذلك منذ البدء. وإذا اعتراك الضعف، فأنت تعلمين: كلّ الأبواب ما تزال مفتوحة أمامك». وهكذا وافقتُ. والآن، رحت أتابع نظرة الأم أنخيليكا من النافذة المواربة التي كانت تطلّ على بستان، وأراقب راهبة تلبس صداراً وهي تقطف ثمار البندورة، وتقلع الخسَّ راكضة. كانت تشبه «دونيا أولاليا». وتذكّرتُ دونيا أولاليا وكلماتها لمّا ودّعتني قرب العربة: «يا للصغيرة المسكينة! وأنت خُدعت أيضاً!»، لكن، ماذا بقدرة دونيا أولاليا أن تعلم مَن خدع مَن؛ ومن أكون أنا؛ وماذا بقدرتي أن أتخيّل ولو في الأحلام.

«نعم؛ أنت ما تزالين صغيرة جداً... أو، ربما لا. لعلكِ وصلتِ في العمر الملائم. أتعلمين أن المرء لا يشيخ هنا؟».

رئيسة الدير لم تكن تنتظر مني أيّ جواب. وفتحتِ النافذة على مصراعيها. وبدا أن ذلك البستان المنعزل المحاط بجدار قد اقتحم مكتبها

المظلم بغتة. في تلك اللحظة، شرعت الراهبة ذات الصدار تقفز، وجعلت الأم أنخيليكا تبتسم.

«إنها الأم كونثبثيون. كم تقدّرين عمرها؟ هي نفسها لا تعرف. دخلتْ هنا صغيرة جداً، في مثل سنّك، وقبل أن أتولّى أمر رعاية الدير بمدّة بعيدة. لذلك، نسمّيها جميعاً: الأم الصغيرة».

ثم أطبقتِ النافذة قليلاً، وكأن فيض النور حرفها عن مَهمّتها، وطلبت مني مفتاحَ الصندوق.

***

لم أكنْ أهتمّ بالصندوق كثيراً. كان مُودعاً دائماً في زاوية من زوايا المكوى في كارولينا. كان يحتوي على أغطيةٍ وشراشف، وأنسجة، وقطع سجاد. كان مُلْك أمي، وأمّ أمّي؛ ويُرجّح أن هذه ورثته من أمها. ولعلني، لهذا السبب، سبب انتقال الصندوق من الأم إلى البنت، جئت به إلى هنا. لكنّ رئيسة الدير صارت تنظر من وراء نظّارتها بإعجاب إلى الرسم على الغطاء الخشبي، وسرّني أن يكون صندوقي هنا، ولو لمجرّد إثارة إعجابها. وعدْتُ طفلة صغيرة أتقرّى بأصابعي الغطاء المقوّس، وأتحدّث إلى البحّار في الرسم. بحّار يستند إلى إفريز وينتظر لحظة الإبحار في قارب شراعي، أطلقت عليه اسماً لا أتذكّره الآن، كان يراه بعيداً في أعالي البحار، سائلاً نفسه عما إن كان الطقس ملائماً كما تشير إلى ذلك تلك الشمس الساطعة جهة اليسار، أو أن عليه مواجهة العاصفة الهوجاء كالتي تطلّ من جهة اليمين. في الرسم أيضاً جمجمة ورمح وأشياء أُخَر طمسها الزمن. لكن، ما كان يثير مشاعري بوجه خاص، أن البحّار ما كان ينظر صوب البحر ولا القارب، وإنما إلى الأمام مبيّناً لكل من يريد أن يرى، لوحة يمسكها بيده اليمنى، وليس فيها سواه مشيحاً بوجهه عن البحر والقارب والشمس

والعاصفة؛ وهذا أيضاً يبيّن لكلّ من يريد أن يرى، لوحةً أخرى أصغر من الأولى تحوي التفاصيل المذكورة ذاتها تؤدّي إلى لوحة ثالثة فرابعة فنقطة صغيرة كنت أعرف -وإن ما كان بالإمكان تمييز شيء فيها- أنها ليست غير حلقة في هذه السلسلة الطويلة من الأشرعة والشموس والعواصف والبحّارة الذين يمسكون بلوحات. ولعل الأم أنخيليكا التي كانت تبدو الآن طفلة، كانت تفكّر تفكيري ذاته.

«إنه صندوق جميل جداً يا كارولينا. لكننا، كما تعرفين، لا نستطيع تملّك أي شيء ملكيّة خاصة. لذلك، سنضعه في الدهليز. سيلزمنا لحفظ الأشغال (وهنا هزّت كتفيها وخفّضت صوتها) إن كُلِّفنا بها، بالطبع».

كانت الأم أنخيليكا تبدو مشغولة البال. أدارت المفتاح في القفل، وراحت تُخرج الثياب التي جلبتُها من الريف واحداً بعد الآخر. ثم أخرجت نعلاً، وحذاء للمطر وكنزة سميكة من الصوف. كان الصوف من النوع الجيّد، ويمكن فكُّ الكنزة وإعادة نسجها لكي أكون مساوية للأخوات الأخريات في كل شيء. وما بقي يكاد لا يفيدني شيئاً في الدير. وبعد أن أبدت إعجابها بالرسم الناعم على الخشب وبالدروج المخفيّة، وبالملحقات الأخرى التي كان يضمّها الصندوق، وصلت أخيراً إلى حزمة من ورق الحرير. وهنا أُصبْتُ برعدة. لأن بزّة عرس أمي التي اصفرّت بمرور الزمن، وعَلَتْها بقع الصدأ، انتصبت حاجزاً بيني وبين الرئيسة وكأنها سقطة مهيبة تصرّ بصدى أصداءٍ كنت أرغب في نسيانها؛ وملأتني بحياءٍ مباغت. ومع ذلك، كنت قرأت، وحُكي لي... والآن، كانت رئيسة الدير تنوس برأسها بودّ، من فوق ياقة البزّة، ثم جعلتها تسقط فوق ورق الحرير الذي انكمش عند احتكاكه بالنشاء، خانقة بذلك كلماتي والشروحَ التي لم أصل إلى التلعثم بها. لكنّ الأم أنخيليكا كانت سمعت أيضاً، وحُكي لها، وكانت تعلم أن المبتدئات في بعض الأنظمة، في بعض الرهبانيات كنّ

يلبسن ساعة تكريسهن راهبات، بزّاتِ عرس بيضاً كما في العالم الدنيوي. ربما، لم تكن مثقلة بالزينة، وإنما تقتصر على أردية بيض تُذكّر بزواج دنيوي. لكن هذه العادة اقتُلِعت منذ فترة من سلك الرهبنة الذي كنت أودّ الانتساب إليه. وإذا كانت الرهبنة استسلاماً وقِراناً لا نظير له في الدنيا، فإن المهم لم يكن في الملبس وإنما في الروح، في الثوب الداخلي الذي نسعى به إلى اللقاء الكبير. لكن الراهبة ما كانت تستطيع أيضاً أن ترفع بصرها عن بزّة أمي. «طرازها متقن إتقاناً لا يمكن تخيّلُه»، كانت تقول. واستنتجتْ: «الأرجح هو من شغل راهبات. واليوم لا يُصنع شيء كهذا». ثم غشتْ نظرتَها سحابةٌ قاتمة كتلك التي غشتها لمّا قررت مصير الصندوق. «لا تُصنع أشياء كهذه»، أضافت: «إذ لا يوجد من يدفع لقاءها». وإذا كان الله يمتحنهن بتجارب مختلفة (ونِعماً هي!)، فإن الامتحان الأخير لم يكن من عند الله، وإنما جاء من الشيطان، لأن العالم صار قاسياً وشرّيراً. وهو يفتنّ في إبداعها ليهاجم من حيث لا يُنتظر، يهاجم حتى خادمات الله الفقيرات. وآخر هجوم له كان ذاك. إنه مبعوث جهنميّ كان يهدّد بإثارة الاضطراب في حياتهن وعبادتهن وعزلتهن. كان ذلك حين قالت بصوتٍ رفيع: «جاء من الجانب الآخر للحدود، ويُدعى نايلون».

وما كانت تنتظر موافقتي هذه المرّة أيضاً.

وانطوت الأم أنخيليكا على نفسها، غائبةً عني، لا مبالية حتى ببزّة أمّي التي تجمّعت الآن مرّة أخرى، فوق ورق الحرير. دقّات الساعة كانت تختلط بطنين نحلة في الخارج، وكانت الأم الصغيرة ما تزال تقفز. «يا بنات الشيطان»، سمعتها تقول وأمعنت النظر فيها. كانت تحرّكُ ذراعيها لتشتّت سحابة من الحشرات أحاطت برأسها. ولم أوفّق في قول شيء. أمّا رئيسة الدير، وكأنها تذكّرت شيئاً لا يُنسى، أو رغبت في نسيان كل ما يُرهقها، فراحت تبحث بدأب في حزمة المفاتيح حتى عثرت على مفتاح

صغير، مسطّح هو أيضاً ورقيق، وأدخلته في قفل درج صغير من دروج صُوان؛ وقطّبت حاجبيها، واستطاعت أخيراً أن تفتح الدرج. وتناولت منه غرضاً موضوعاً داخل غمد. كان يبدو عليها الهدوء والانشراح. ثم الهدوء مرة أخرى.

«خذي، يا بنيّتي، واخرجي إلى البستان. هناك سترين وجهك لآخر مرّة. وجه سيلازمك مدى الحياة».

خرجتُ صوب البستان. للوصول إليه، كان عليّ أن أعبر فناء ظليلاً تتوسّطه نافورة. وشككت لحظة في أن أبقى هنا. لكن الرئيسة قد كانت أشارت: «إلى البستان». وكنت أعلم، أو هكذا قيل لي، أن الطاعة في الدير تُلغي كلّ نزوة، أو رأي، أو قرار شخصيّ مهما يكنْ صغيراً. كان الجوّ في البستان حاراً حرارة الحديقة لمّا قرعت الجرس، وودّعت السائق منذ سويعات خلت. جلست على مقعدٍ حجريّ قرب الجدار، وأخرجت الغرض من الغمد، كان مرآة يدٍ ذاتَ ذراع من فضة. مرآة من مرايا الحكايات، فكّرت. كان الغبار يغطّيها، وكأنّ الغمد الجلدي نسي وظيفته لطول ما رقدت فيه سنين كثيرة؛ نظّفتها بمنديل وقرّبتها من وجهي.

كانت الشمس ساطعةً جدّاً. أول ما رأيت كان غمزة. ثم لاحظت نفسي بدهشة وأنا أحرِّكُ المرآة حركة خفيفة. هذا أنا، بالطبع أنا. كان الوجه ذاته المنعكس في مرآة السيارة. لكنه أطرى قليلاً وأكثر انشراحاً. غير أن الشريطة التي ربطْت بها شعري ذلك الصباح لأكتسب طابعاً جادّاً، وأُصبحَ أكبر من سنّي لمدة ساعات معدودات، والتي تآلفت معها خلال سفري، كانت تبدو لي غريبة، مُنكرة...

ذلك المظهر لم يكن مظهري المألوف. فحللت شعري، وأعادت لي المرآة الآن، صورتي المرتقبة، صورتي المعتادة مجرّدة من شريطة مرآة

السيارة المتجهّمة، وعكستِ الذوائبَ التي كانت تصارع لتتحرّر من سجن الحبك والدبابيس، وكذلك قَطرات من العرق كانت تتلألأ فوق جبيني. وأحسست ذلك اليوم بأني كنتُ مُراقَبةً مرّة أخرى. ونظرت صوب مكتب الرئيسة، لكنني لم أستطع رؤية شيء غير شكلٍ مُكِبٍّ على منضدة. لعلها كانت تعدّ النقود، فكّرت. وتمنّيت لو أن أبي عزم، لأول مرة في الحياة، على أن يبذل بسخاء لمجابهة النايلون، ويجعل من مجيئي بوجه خاص، حدثاً ذا واقع.

لكنني كنت ما أزال أشعر بأني مراقبة. وكانت الذؤابة الحرة والدبابيس والحبك في فمي، تنظر إليّ أيضاً، وكذلك سؤال على شفتيّ المزمومتين، وجدتُ نفسي عاجزة عن الإجابة عنه. حينئذٍ، شعرت بخفقة رداء أسود وصدار ورائي؛ ويدٍ تلبس قفّازاً تحطّ على كتفي، ويقين بأني لا أجد أحداً يتجوّل في البستان أمامي. تلك كانت الأم الصغيرة. أردت أن ألتفت وأحيّيها، لكن المرآة كانت سبقتني، ومُلِئتْ للحظات بوجهٍ هرم، وجهِ هو أشدّ الوجوه هرماً وتجعّداً رأيته في حياتي، وجه ذي عينين منطفئتين، وبسمة درداء كبيرة. وبمثل ومض البرق استعدت زمام السيطرة على نفسي. سقط الحبك من فمي، وكنت ألهث لا من الحرّ ولا التعب، وإنما من صرخة، وتلك كانت الصرخة الأولى التي صرختها في صمت.

***

أقول إني أذكر ذلك اليوم أتّم الذكر، وكذلك الليل أيضاً. عدت في الليل بخيالي، إلى بيتنا كارولينا؛ إلى الأب خوسِه؛ إلى نظرته القاسية؛ إلى الصيدلي؛ إلى أبي؛ لعلها كانت آخر مرّة أفكّر فيهم. أفكّر فيهم حقاً. لأنني في المرات الأُخَر لن أعود بذاكرتي إلى كارولينا، أو السهرات قرب النار، وإنما إلى وحشة تلك الليلة لمّا تذكّرت كارولينا وتلك السهرات قرب النار.

وإذ جفاني النوم، على رغم التعب والسفر ومفاجآت ذلك اليوم، وقفت على السرير ورحت أرقب الليل من خصاص النافذة. رأيت الحديقة، والباب الحديدي الناطق ونوافذ بيوت مضاءة، وسطيحات مقفرة، تطلّ من فوق الأسوار. مَنْ عساهم يقطنون فيها؟ وماذا يحسبوننا؟... لأننا كنا كالأشباح وسط مدينة صاخبة. كنا كائنات غير منظورة، كائنات ميتة وهي في الحياة. حينئذٍ تَمَنّيْت لو ظلّت المرآة معي، فأتأمل وجهي مرة أخرى، وأغمز فيها. لكن الأم أنخيليكا كانت قد قالت: ذلك كان وجهي، وسيكون وجهي إلى الأبد. وحاولت أن أثبّت ذاكرتي على الدهشة التي اعترتني وأنا في البستان؛ وعلى الوجنتين المتعرّقتين في مرآة السيارة العاكسة؛ وأغنية السائق، و«الطقطوقة» التي طالما غنّيتها صغيرة وأنا ألعب الحلقة، وتبدو لي اليوم، لأول مرة، غير سارّة، وإنما حزينة، حزينة للغاية حتى تغنّيها طفلة تلعب مع رفيقاتها: «أريد أن أتزوّج.. بصبي حلّاق.. فجعلني أبواي.. راهبة صغيرة في الدير». بيد أني لم أستطع تذكّر الفقرة التالية. وشرعت أبكي لأن شفتيّ اللاصقتين بالشبّاك توقّفتا عند كلمة «دير»، كيلا أحس بأيّ ألمٍ لتركي كارولينا، أو ببساطة، لشكّي في وجود فقرة أخرى. بكيت بكلّ قواي حتى أُطفئت الأنوار في النوافذ، وغاب القمر، وأعادتني أضواء الفجر الأولى إلى ما ستكون عليه حياتي ضمن زنزانة ضيّقة فيها سرير من الكتّان، ومنضدة من خشب البلّوط، وكوّة أعلى الجدار تقيني من كل ما كنت أعرفه حتى الآن.

«مِنَ الفرح»، قالت في اليوم التالي، الأم الصغيرة في قاعة الطعام، وهي تملأ الفناجين بالحليب الممذوق بالماء، ثم كرّرتها بعد قليل في قاعة الشغل، لمّا لمست بإصبعها المكواة لتعرف حرارتها، ورفعتها إلى مستوى شفتيها، وألقت ماء ونشاء على حشيّة من الكتان. «من الفرح. أحياناً، يبكي المرء من الفرح». هي، وإن كانت تُشيح بنظراتها عني، وإن كانت عيون

الأخريات تغيب داخل الفناجين أولاً، ثم تنصبّ على مطرّزاتهن لاحقاً، فكنت أعلم أنها إيّاي تعني؛ وأن جدران الزنزانة ليست على هذه السماكة كما حسبت؛ أو أن الأم الصغيرة، أو أيّ أمٍّ أخرى، كانت تتنصّت لصق بابي، ولعلها تعيش مرّة أخرى تلكَ الليلةَ الأولى لمّا صعدت أيضاً إلى السرير وتأملت القمر. لكن الدير لا يسمح بوقتٍ كبير للتذكّر، فالأيام تتوالى فيه مُرهِقة، مفعمة بالواجبات والمهام؛ والساعات هنا، محسوبة، وكذلك الدقائق والثواني. وحين ينقضي النهار ويحلّ الليل، لا تبقى لدى واحدةٍ منّا قوىً لتنظر طلوع القمر واقفة على السرير، خاصة أن اليوم الجديد يجيء عجلان. صباحٌ قاتم يطلع قبل أن تطلع الشمس. يلي ذلك فوراً، فنجان الحليب الزهيد والصلوات والأعمال والمطالعة. من قبلُ، كانت الأعمال في الدير، كما تقول الأم أنخيليكا، تُحدّد منذ اليوم الأول، فكانت هناك أمٌّ بوّابة، وأخرى طبّاخة، وثالثة جنائنيّة... لكن الأمور ليست كذلك اليوم. وهكذا، نقوم بالدور وبالترتيب، أو حسبما تشاء ربّة الدير، برعاية البستان، والمطبخ، وحراسة الباب الدوّار (الذي أصبح لا يدور تقريباً)، أو بتطريز أغطية وملاءات وقمصان حريرية؛ أو ننشّي تنانير وبزّات تعميد أو أجهزة عرائس. أو ببساطة، نتعلّم ونشتغل كيلا تفقد أيدينا المهارة. لأنّ الأزمنة، منذ اختراع النايلون، دارت دورة عاصفة. وربّات الأسر لا يفكّرن في تكليفنا بشغل أجهزة العرائس لبناتهن. وإنما ينطلقن إلى «أندورّا» ويحصلن على ثياب لا تُكوى، ولا تتجعّد، ولا تحتاج إلى عنايتنا. لكن، لا ينبغي لنا أن يخامرنا اليأس. فمن واجبنا إذاً، أن نطرّز وكأن شيئاً لم يحدث؛ أو نُعنى بالباب الدوّار والبستان. لأن الأديرة يتربّص بها شرّ، هو شرّ الشرور كلها. هو مزيج من سوء الطبع والحماقة، والضجر يهاجم عادة أحدث الراهبات سناً، وأكبرهن عمراً. شيء ما زال يطرأ منذ الزمن القديم وعرفه آباء الكنيسة باسم «السوداء»، إزاءه لا يفيد أطبّاء ولا علاج وإنما

صلوات ودعاء. وقد انتابت السوداء في بعض الأوقات بعض الراهبات في ذلك الدير. وحين كانت الأم أنخيليكا تحدّثنا في الليل عن «الحزن الخبيث»، كانت الأخوات الراهبات يغضضن من أبصارهن، ويتحاشين النظر إلى بعضهن البعض. لأن هذا الضعف المخوف يحوّل من تعانيه إلى شبح في الحياة، إلى شبحٍ بين الأشباح. لكن الأم الصغيرة وهي الأكبر سناً في الدير، لم تعانِ هذا الشرّ، لا، ولا أنا الأصغر سناً أستطيع أن أتخيّل كيف يكون. تلك الحياة كانت خيراً من الحياة المتاحة لي في كارولينا. هناك كنت أُعامَل كامرأة تقريباً. أمّا هنا، فكان لهنّ فضل إشعاري بأني طفلة. ربما، من أجل ذلك، من أجل تحاشي السوداء المخيفة، سُمح لي وحدي بأن أهتمّ بتنظيف الصندوق والعناية به. أمّا هي، الأمّ الصغيرة، فقد كانت مكلّفة، إذا ما تطلّب الأمر ذلك، بشيء أبدت مهارة كبيرة، وبذلت جهداً بارزاً فيه، وهو القضاء على القطط خَنْقاً.

قيل لي: «لكن، يجب ألا تفزعي! من فضلك، يجب ألا تفزعي!».

***

حُكي لي، إن كل شيء بدأ فجأة وبالمصادفة. كانت حديقة الدير منذ سنوات خلت أكبر مما هي عليه الآن؛ والبيوت المتاخمة أصغر؛ والبستان ما كان يحتاج إلى هذا الجدار العالي ليحمينا من النظرات الغريبة. ذات يوم، ظهرت نصف دستة من القطط الوليدة تكاد تموت جوعاً. اكتشفتها الأخت التي كانت تُعنى بالبستان، ذلك الوقت. رأت سلّة، وحسبت أن أحداً ما بادر إلى شكل فريد من تقديم الإحسان (لأن الباب الدوّار، كان دائم الدوران تلك الأيام). وبفضول كبير، رفعت عنها المنديل الذي يغطيها، وظنّت تموّجاته من فعل الريح. قيل إن تلك الأخت فغرت فاها من الدهشة. وإذْ رأت فيها بركة، أو علامة من السماء خُصّت بها وحدها،

قبلت بها سرّاً، لأنها كانت تخشى أن العناية بالقطط لم يلحظه قانون الدير الصارم. وأطلقت عليها أسماء وصارت منْ ذاك تعدّها بنات لها. لكن حصص الخبز والحليب مقنّنة للغاية في الدير، والطعام لا يفيض عن الحاجة أبداً. فأخذ يظهر في المطبخ نقصٌ غير مُسوّغ. ولم تلبث الأخت المذكورة أن شعرت بتأنيب الضمير، لحرمانها الجماعةَ من القليل الذي كانت تقتطعه يومياً لقططها في السرّ. لذلك، عزمت على أن تطعمها من حسابها فقط. ففي حين كانت الحيوانات تنمو، كانت هي تذوي وتضمر، وأخذت تهزل وتحسّ بالغثيان والدوار، وصارت ضعيفة، وانحطّت قواها حتى تكشّف سريعاً أن أعمال البستان أضحت عبئاً لا يمكنها القيام به. وسقطت مريضة. لكنها، وهي في هذا الحال، كانت تتظاهر أنها تأكل في حجرتها يسير الطعام الذي كانت أخوات أخريات يأتينها به حتى السرير. وكانت تحفظه في ظروف من الورق الرديء، وتنتظر (لأنها هكذا بيّنت أثناء ليالي هذيانها) حتى تتحسّن صحتها، فتهرع إلى مساعدة ما كانت تسمّيه بناتها. اشتبهت ربّة الدير، آنذاك بالسوداء، ثم شخّصت حالتها بأنها جنون، لتنسى بعد أيام قلائل نسياناً تاماً تقريباً الأخت المريضة. غير أن القطط التي كانت ما تزال عاجزة عن تسلّق الجدار، كانت تجد نفسها من أول الليل حتى الصباح، من دون حامٍ يرعاها. فراحت تبحث عن الطعام حيث تقودها إليه غريزتها. فهاجمت المطبخ وخمشت الطبّاخة المذعورة، وكانت الراهبة المريضة ترقد على سريرها، وتصرخ في نومها بأسماء بناتها، وتنطلق من حجرتها رائحة كريهة لا تُطاق. ولم تلبث بناتها أن ميّزت صوت حاميتها، فهُرعت على شكل سربٍ إلى قوائم سريرها. وهكذا عُثر عليها: في زنزانة نتنة إلى جانب الأم الميتة، تحيط بها أطعمة متفسّخة، وظروف ورقية ممزّقة. وقيل إن هذا (وإن حدث في زمن بعيد حتى صار يبدو قصة غريبة) لم يكن أسوأ ما في الأمر؛ لأن أحداً لم يتذكر

ماذا جرى للقطط المتوحّشة، وكيف تمّ الخلاص منها؛ وما هي الوسيلة التي لُجئ إليها لتترك الدير من تلقاء نفسها. لكن الشيء الوحيد المؤكّد أن هذا السرب تبعته أسراب أُخَر، تبعته سلال من الصفصاف تتدلّى بالحبال ليلاً، وكأن الإشاعة سرت في الجوار أن الراهبات كنّ يعرفن كيف يتدبّرن أمرها، فيُعنين بها، ويطعمنها، أو يتركنها تهيم في أرجاء ممتلكاتهن الضيّقة، أو ببساطة، يقتلنها. خلال هذا التحوّل في المسؤوليات، نبع فجأة، صوت إحدى الراهبات: الأم الصغيرة كانت أحدث قاطنات الدير سناً. كانت طفلة تقريباً. هي تعرف كيف تتصرّف معها، فلطالما رأت الناس يفعلون ذلك في قريتها: فبالإمكان حرق القطط، أو تسميمها، أو خنقها بصورة بسيطة عادية. وهكذا، كنّ يتركنها تصنع بها ما تصنع في البستان (يغلقن النوافذ كيلا يرين شيئاً ولا يسمعن شيئاً)، وفي الوقت ذاته، كانت الأم رئيسة الدير تصيح من النوافذ، والبوّابة من الباب: إن كان أحد يرغب في أن يتولّى أمر هذه الحيوانات. ليس فقط أن أحداً لم يكن يرغب في ذلك، وإنما سرت إشاعة أخرى تقول إن الراهبات يتكفّلن بتغييب هذه المخلوقات الصغيرة غير المرغوب فيها لقاء عطية أو صدقة. وإذا لم يكن هذا الأمر صحيحاً في البدء، فلم يلبث أن تحوّل إلى ممارسة مألوفة. وصارت المخلوقات المغضوب عليها تدخل الدير الآن، مرة واحدة في السنة على الأقل، من الباب الكبير ومن الباب الجانبي الدوّار، من دون حاجة إلى اللجوء إلى البكرات المرتجلة أو الحبال، لقاء صدقة وأعطيات مسبقة أو لاحقة. وهكذا أنهت الأم الصغيرة المشكلة.

أنا لم أستطع تحمّل ذلك أبداً؛ وشرعت لأول مرة في البكاء. كان ذلك منذ سنوات خلت. لكن أحداً لم يقل ذلك اليوم: «من الفرح». ووضعتُ الأم الصغيرة في الصندوق، في صندوقي الخشبي ذي المفصّلات الحديدية، وضعتها في أحد الدروج السرية: درج الغضب حيث أستطيع

شتمها كما أشاء. وحشرتها قريباً جداً من الأب خوسِه. لأن الأب خوسِه كان يقطن محبوساً منذ مدّة بعيدة في الصندوق، في أسوأ دروجه وأضيقها. فبينا أشتم الأم الصغيرة، كنت أتذكر الأب خوسِه وكلماته والفكرة الكبرى التي طرحها عليّ عرضاً. وأخيراً، أتذكر ذات مساء، لمّا دعتني الأم أنخيليكا إلى مكتبها وقالت لي باسمة: «عزيزتي كارولينا، لديك زوّار».

***

فكّرت للحظة أن الأمر يتعلّق بدونيا أولاليا. لكن رئيسة الدير لم تقدني إلى شبّاك الدهليز، وإنما إلى نافذة المصلّى. ولمّا صرت هناك، ركعت على ركبتي. وقبل أن أميّز ظل الأب خوسِه المقوّس الظهر، تعرّفت بنفور إلى رائحة ردائه الحامزة، المختلطة بروائح أخرى مألوفة: رائحة الحقل والعلف ورائحة المطر. وشعرت بقواي تخور. لكنّني لم أقل شيئاً. هو كان من سأل وأجاب عن الأسئلة: «أنتِ في صحة جيدة، وجماعة الدير تشبه عائلة كبيرة، وأبي بذل بسخاء، وكان وصولي إلى هنا بركة». لم يتحدّث عن الأعوام التي ما تزال أمامي كيما أُرسم راهبة، وكأنها انقضت، وكأن الدير حقاً قلعةُ روحة من دون رجعة. وبدا لي، رغم العتمة التي تسود المصلّى، أنه كان يتحاشى نظراتي، ويرغب الآن في ختم المقابلة، لمّا صار يعرف ماذا يقول لأبي: «هي في صحة جيدة، جماعة الدير تشبه أسرة كبيرة؛ أعطياته هذه الأيام استُقبلت كأنها بركة». لكن، قبل أن ينهض، قبل أن يقطع التأرجح الذي أحدثه في الكرسي، شرع صوت لم يكن صوتي، وإنما نابع مني، يتكلّم. واستمعت إلى نفسي ذاهلة: «أنا لم أفعل شيئاً، يا أبتِ. لم يكن لدّي وقت لأفعل شيئاً». بعد ذلك، خفّضت بصري خائفة، متخيّلة وجه الخوري المتشنّج، متنشّمة رائحة ردائه العكرة، رائحة الأرض والعلف، رائحة المطر.

«أمَا زلتِ تذكرين الصبيّ الأشقر؟ ليس من الملائم أن تذكريه هاهنا. وفوق ذلك (وهنا صمت) هناك الأمر الآخر».

«نعم، هناك أمر آخر. لكن، هناك أحياناً (تابعت من دون أن أجرؤ على رفع بصري) أفكار تَرِد عفوياً لا يستطيع المرء لها ردّاً. أفكار ليست غير هذا: مجرّد أفكار».

صوت داخلي يهمس بالحماقات: «ليتهم يموتون!»، كنت أفكّر. لكني حين أدركت الأمر، كان الوقت قد فات كثيراً. وهكذا، لمّا قرّب الخوري وجهه من خصاص النافذة، وفكّرت: «له رائحة خنزير، رائحة إسطبل، رائحة حظيرة»، لم أجرؤ على أن أبوح له بذلك. وما أشبه الليلة بالبارحة! لذلك تابعت كلامي عن الأفكار التي تطلع فجأة، كيما أنسى آخر فكرة كانت أطلّت عليّ. ولمّا قال: «علمت في ما بعد، أنك ترين ما يوجد في مخيّلتك المريضة فقط»، لم أستطع الردّ عليه. أيُحتمل أني كنت مريضة؟ وطرأت فكرة جديدة: «إنهم يريدون التخلّص منّي». فكرة لم تختفِ فوراً كالأفكار الأُخَر لأني لم آمرها بأن تتلاشى. ثم باغتني سؤال فيه شيء من التهديد: «ألا تبيّنين لي بذلك، أنك لست على ما يرام رغم كل ما بذلت من جهد لكي تُقبَلي هنا على صغر سنّك؟ أترغبين في العودة إلى كارولينا؟»، وقبل أن أهزّ رأسي نافيةً بإصرار، لجأ الأب خوسِه إلى لهجة لطيفة مصالحة: «انسي، لا تعذّبي نفسك أكثر مما عذّبتها، وصلّي!». ثم أضاف: «دعي أمور الدنيا للدنيا!».

اجتزت الفناء، وأجبت على دعاء الأخوات، وهُرعت إلى المدخل، وداعبت البحّار والقارب والشمس الساطعة والسحابة السوداء والعاصفة.

وفتحت الصندوق، وكأنني أفتحه لأول مرة. أول مرة لا أستطيع تذكّرها، لأنه كان دائماً مركوناً في زاوية بيت لا أرغب في العودة إليه. لكنّ

هناك شيئاً، شيئاً من البطء والانفعال جعلني أفكر أنه يشبه المرة الأولى. وسرعان ما عثرت على بزّة أمي في الوضع ذاته الذي تركَتْها فيه ربّة الدير. «سنُريها للسيدة أرديبول، للسيدة فونت. فلعلهما تقرّران تكليفنا بعمل شيء». وعثرت أيضاً على صدى أصوات بنات، أصوات تفحّ ذات مساء بارد في فِناء مدرسة. «لن تتزوّج... كارولينا لن تتزوّج...»، لكن لا شيء يعود كما كان من قبل. وأمرت تلك الأصوات أن تختفي. واستدعيت مرة أخرى صوت الأم أنخيليكا: «إمّا لا، يمكننا أن نصنع ستائر، طرّاحات. نكسو مذبح المصلى...». نعم، بالإمكان صنع كومة من الأشياء بتلك المطرّزات، لكنها ما تزال حيث هي. وجابت يداي جوف الصندوق، صندوقي، وفتحت، ربما من دون وعي مني، أحد الدروج السرّية، أسوأ الدروج وأضيقها. فتحته وأطبقته فوراً بغضب، وكأنني أضع فيه الأب خوسِه بردائه الدنس، ونفَسه الكريه: «خنزير، خنزير، خنزير». تمتمت. هذه المرة لم تكن فكرة من تلك الأفكار التي أرغب في أن أنساها بعدئذ. «له رائحة...». أضفت، وهدأت ثائرتي حالاً، وكأنني بدأت حياة جديدة، وأغلقت الصندوق بلطف شديد وداعبت البحّار، وأدرت المفتاح في القفل بهدوء كبير، وبهدوء كبير وضعته في جيبي.

***

عن بعض هذه الأمور سأتحدّث إلى الأم بيرو. سنتكلّم من دون كلمات تقريباً. لكن ما زالت تنقصنا سنوات كثيرة حتى تدخل الدير من ستصبح أكبر صديقة لي. والآن، يبدو لي الأمر طريفاً، طريفاً جداً. لأنني، مُذْ حبست الأم الصغيرة في درج الغضب قرب الأب خوسِه، حتى وصول صديقتي، لم أستطع بلوغ شيء تقريباً يجعلني أميّز يوماً من يوم آخر. ومع ذلك، كانت تلك سنوات طوالاً، سنوات حلَّ الروتين فيها محلَّ الدهشة. وتراكمت المطرّزات في غرفة الخياطة، وما زال الباب الدوّار ساكناً،

وما زالوا يحدّثوننا في الليالي والأصباح وفي المصلّى وكنيسة الدير عن السوداء، وعن قدّيسي الصوامع وأمهات الصحراء... وعن النايلون أيضاً. لكنني لا أذكر أني شعرت بانفعالٍ خاص يوم رُسمتُ راهبة، وقد صار ذلك اليوم بعيداً جداً وكأنه لم يوجد قطّ، أو كأنه مجرد حلقة بسيطة في سلسلة الطقوس والاحتفالات التي تشكّل قوام حياتي، سوى أن الطعام ذلك اليوم الذي ارتقبتْه الأخريات أكثر ممّا ارتقبته، كان له طابع العيد. وكانت الأم أنخيليكا سعيدة؛ وقد صارت نسياً حتى لم تدْعُني إلى مكتبها كما ينبغي لها أن تفْعَل (حسبما تقول الراهبات الأخريات أنّ ذلك ما حدث لهنّ لمّا كنّ مبتدئات) لتطمئنّ إلى قراري، ولتذكِّرَ المرشحة أن الأبواب ما تزال مفتوحة أمامها. وأنها في لحظة شكّ يمكنها أن تعبر العتبة. وأن أحداً لا يمكن أن يكنّ لها ضغناً. لأن الرهبنة خيار حرّ، واستسلام حرّ وقرار حرّ. وأنا كنت حرّة. وأي حرية أكبر من حريتي حتى لم أطرح على نفسي إمكانية تغيير مصيري؟! منذ فترة بعيدة، لم أنظر من خصاص النافذة، ولم أتسلّق إلى طاقة الزنزانة لأرى السُّطيحات، ونسيت ما إن كان يوجد شيء خارج الدير. أو، ربما لم أنسَ، لأنني كنت أعلم حقّ العلم أنّ أبي تزوّج مرة أخرى. وانتقلت دونيا أولاليا لتقطن بيت الخوري، بيت الأب خوسِه، وتُعنى به وتنظّفه. ولمّا مات الخوري ظلّت في المنزل، وكتبت لي رسالتين لم أُجبها عنهما مطلقاً، رسالتين نسيتهما أيضاً من فوري، تطلب فيهما إذناً في زيارتي والتحدّث إليّ لتريح ضميرها، هكذا كانت تقول. لكنهم ظلّوا جميعاً بعيدين جداً عني، ساكنين كأنهم أصنام، جالسين قرب مدفأة كارولينا. كانوا ما يزالون موقوفين في طيّات الزمن كما في صورة تبدو فيها النار ذاتها كاذبة، عاجزة عن أن تشبّ أو تبثّ الدفء. يا لنار كارولينا الجليدية! لكنّ كل شيء في الدير حديث وقديم في آن واحد. تتوالى فيه الأيام ثقيلة، جاهدة في أن تتكرّر وتتناسخ، ويشبه الواحد منها

الآخر حتى يصبح أدنى تغيير، وأصغر تجديدٍ، مقبولاً من دون دهشة، وكأنه كان هكذا دائماً، أو لا يمكنه أن يكون بطريقة أخرى، سواء كان أمراض الأم الصغيرة المتكرّرة، أم فقدان الأم أنخيليكا بصرها تدريجياً؛ وأخيراً، اليقين بأن الشر القادم من الجانب الآخر للحدود، آخذ بالتلاشي. «ليس سحراً»، كانت تقول الأم أنخيليكا، «إنه فعل صلواتنا». لأنّ شيطان النايلون لقي بعد انتصاره، هزيمة نكراء. وهاهي ذي السيدة فونت والسيدة آرديبول، أو بالحَرَا، بنات السيدة فونت أو السيدة أرديبول أو بنات أيٍّ من المحسنات القليلات، عدْن إلى زيارتنا بكثرة، وإلى تكليفنا بصنع ستائر وملاءات وأغطية. ولئن كانت أنامل خير المشتغلات بالتطريز قد شاخت، فكنّا نعتمد على مخزون من الأشغال منذ الأوقات التي كنا نشتغل فيها كي لا ننسى. أوقات كانت هي أيضاً قصة. أوقات ساكنة كحال كل ما في الدير، أوقات يختلط الواحد منها بالآخر. كانت غائبة في حضورها كأنها حلقة أخرى في تلك الدوامة الهادئة التي كانت تشكّل حياتنا. إلى أن وصلت الأمّ بيرو، وكفّت الأيام بغتةً عن أن يشبه بعضها بعضاً.

***

«جاءت من مكانٍ بعيد»، قالت الأم أنخيليكا، «من البيرو». وأعلمتنا بفرح شديد كعادتها حين ترجع إلى كتاب أو موسوعة، أو قاموس، حول أبعاد ذلك البلد، وعدد سكانه؛ وعن أقاليمه الطبيعية: إقليم الساحل والجبل والغابة. وعن الخصوصية التي كان يمتاز بها أحد الأقاليم الثلاثة، وهو إقليم الجبل. وكان هذا يفتنها كما يبدو. ففيه تتجلّى على مدى يوم واحد كلّ مناخات العالم: الشتاء والربيع والصيف والخريف. وعند حلول الليل، يحلّ الشتاء مرة أخرى: «يومه يوم الفصول الأربعة!» صاحت مرّاتٍ عدة. لا نعرف حتى الآن ما إن كانت الأم بيرو بيضاء، أم هندية أم مولَّدة. لكن هذا، كما أوضحتْ فوراً، لا ينبغي لنا أن نأبه به، نحن عابدات

الله وإماءه. ثم أضافت: «الله يضيّق على عبده لكنه لا يخنقه». ثم تتابع: «واحدة تمضي وأخرى تجيء». لأن الأم الصغيرة كانت تنازع منذ أسبوع في حجرتها، وهي تعاني كوابيس رهيبة، وتزورها أرواح موّاءة، رافضة كل دواء، طالبة الصفح، مذعورة من حضورنا: «اخرجي، يا قطط!»، وكأننا تحوّلنا في هذيانها إلى قطط ضخمة تُحدق بسريرها وتطلب منها بشدّة حياة لا يمكنها أن تعيدها إليها.

كنا نتذكّر أحياناً في بعض الليالي قصة الأم الجنائنية. قصة لم تعشها أي واحدة منا، لكنها ظلت مطبوعة في جدران الدير، كما ستُطبَع قصة الأم بيرو عاجلاً. هما وجهان لعملة واحدة. لكن زعيق المُحتضَرة أمسى لا يُطاق، وشعرنا بالألم عليها. وأنا أيضاً أحسست بالألم. وندمت لأنني حبستها من قبل في درج الغضب. لأننا يجب أن نكون رحماء ونصفح عن نظرائنا. أضف إلى ذلك، أن الناس كفّوا منذ زمن بعيد عن جلب القطط إلى الدير. والآن كنا نفكر فقط في أختنا الجديدة، في الراهبة القادمة من بُعدٍ سحيق. وكنا نعدّ الأيام التي تفصلنا عن مجيئها حتى دُقَّ جرس الأم أنخيليكا. واجتمعنا في مكتبها كلنا.

لم تكن تبدو راهبة، وإنما قروية في أحسن حال، كانت بشرتها غامقة، وكانت تبتسم بحياء. أمّا رئيسة الدير فكانت تبدو، في المقابل، حزينة مضطربة. «ها هي ذي أختنا الجديدة»، قالت. لكنها لم تضف: «واحدة تمضي وأخرى تجيء». لكن، لمّا انطلق من حلق الوافدة الجديدة صوت يشبه أن يكون تحية، أدركنا جميعاً خيبة أمل الرئيسة. نعم، كانت الأم الصغيرة راحلة بالتأكيد، لكن، ما كان يبدو واضحاً لأول وهلة على الأقل، أننا كسبنا بديلاً لها.

***

ومع ذلك، لماذا شعرتُ بعطف كبير عليها؟ الأم بيرو ما كانت تستطيع أن تتكلّم. وكانت تجيب عن أسئلتنا مخربشةً على ورقٍ بخطّ رديء، جملاً قصيرة مملوءة بالأخطاء. وبصعوبة كانت تستطيع أن تقصّ علينا شيئاً عن بلدها البعيد، بلد الأقاليم الثلاثة، والمناخات الأربعة، واللوحة الخضراء التي كانت ترشدنا إليها الرئيسة في أطلس قبل أيام من وصولها، وكنا نرغب الآن جميعاً في معرفتها. لذلك، سُمح لنا بنوعٍ من الامتياز، بأن نرجع خلال أيام معدودات إلى كتب وخرائط وموسوعات. ولعلّني بسبب ذلك، شعرت بالحدب عليها. لأن وصولها أتاح لي أن أبلغ تلك الكنوز المخبوءة في مكتب الرئيسة... وهكذا كنت أعلّمها عاداتنا، وأنتهز الفرصة فأذكّرها بعادات بلدها. قرأت لها حياة الرهبان والقدّيسين وراهبات ذوات رؤى، وأطفال أصحاب معجزات. قرأت لها أساطير عن أشباحٍ وأرواح معذّبة وأديرة مباركة وأخرى ملعونة. إني، وإن كنت أخلط بين البلدان، وأشكال العلاج أو المعجزات، فكنت أهنّئ نفسي بحسن حظّي لأني استطعت الوصول إلى خزانة الكتب وأردّد بصوت عالٍ كلّ ما كنت تعلّمته. وكنت أسرّ أحياناً أن يكون للدير أسطورة مشابهة لأسطورتها، لإثارة إعجابها ودهشتها لكي تجد نفسها على راحتها بيننا. لكنني يوم أدخلتها حجرة المُحتضرة، وصرخت الأمّ الصغيرة بيأسها المألوف صرخة أقوى من ذي قبل: «اخرجي يا قطط!»، لمحتُ رعدةً تسري في كيان القادمة الجديدة، وأدركت أننا، نحن أيضاً، لنا قصصنا الصغيرة البسيطة. ورحت أشرح لها مهارات المحتضرة القديمة. فعدت إلى الأم الأخرى، إلى راهبة تلك الأيام، لمّا كانت الحديقة أكبر مما هي عليه اليوم والبيوت المجاورة أصغر؛ ولمّا كان البستان لا يحتاج إلى جدارٍ عالٍ جداً للاحتماء من نظرات الغرباء. كانت تصغي إليّ بانتباه كبير. وكانت تصغي إليّ دائماً بانتباه، وكأنها وجدت فيّ منذ البدء حليفاً

يُعتمد عليه لقهر تحفّظات رئيسة الدير التي أخذت تذوي وتضطرب كل يوم أكثر من يوم. كيف خطر ببالهم أن يرسلوا إلينا تلك الأخت؟ لا شك في أنّ خلْطاً وخطأً قد حدث، كانت تردّد. لأنّ الأم بيرو كانت تعني عبئاً، ليس لأنها لا تتكلّم وأنها خرساء، وإنما لا تقوم بأيّ عمل نافع أيضاً. لا تعرف التطريز. والتطريز هذه الأيام -يعدّ هزيمة شيطان نايلون وخزيه- استعاد مكانته. هي طلبت يداً منتجة، وليس فماً لا ينطق فحسب، وإنما عليكِ أن تطعميه أيضاً كالأفواه الأخرى سواء بسواء. هي تُقرّ بأن الأم بيرو أفضلنا جميعاً في الحفاظ على مبدأ الصمت. ومن هذه الجهة ليس لديها ما تقوله حولها. لكنها، الآن مثلاً، ماذا تفعل الآن؟ وشرحت لها وأنا أقف لصق نافذة مكتبها المطلة على البستان أنّ الأم بيرو تقطف ثمار القرع، لأنّ في بلدها فنّاً غريباً جداً لا نعرفه هنا. لم يكن فنّاً تمارسه الراهبات ولا سكان المدن أيضاً، وإنما يُعرف في بعض الأماكن الجبلية فقط (ألا تتذكر الرئيسة الأقاليم الأربعة؟). أماكن ذوات أسماء صعب لفظُها. (يبدو لي أنّ الأم أنخيليكا تنظر إليّ الآن بإعجاب، وتهنِّئ نفسها بفكرتها إذ جعلتني أصل إلى مكتبها). لكن ذلك لم يكن كلّ شيء، لأنّ الفلاحات في تلك القرى ذوات الأسماء الغريبة كنّ يبعن منتجاتهن إلى الهواة والغرباء، أو إلى كل من يقدّر قيمتها. الأم بيرو التي كانت فلاحة قبل أن تصبح راهبة، كانت تعرف شيئاً من هذا. «شيئاً من القرع؟» كلا! لم يكن قرعاً بالضبط، بل هو ماتِه(*). لا أستطيع أن أشرح لك جيّداً ما هي ثمار الماته. لكننا هنا، لدينا قرع بدل الماته. والأم بيرو تحاول منذ أيام عدة نقش رسوم على ثمار القرع. بكلمة أخرى، تحاول تطريزها. كان لديها منقش. وبمساعدة بعض الحبر الذي كانت تصنعه بنفسها، كانت ترسم رسوماً وتلعب بالظلال والفجوات. أنا، وإن كنت لا أفهم تماماً ماذا

(*) نوع من القرع صغير الحجم يُجوّف ويُجفّف ويُشرب به شراب المتّة المعروف. (م).

ترسم، (الفنّ الغريب يُسمّى «نقشاً»، هذا ما قالته لي بخطّها المُقْرمَط(*))، فكنت أشك في أنها تريد أن تعلّمنا شيئاً حتى تنجز عملها. كانت تلك طريقتها في التعبير لترينا ما تستطيع صنعه، لأن الكلمات كانت تعوزها. وإذا كانت هذه البضاعة تُباع في بلدها، فيمكننا، بالتالي (وهنا لمعت عين الرئيسة بشرارة صغيرة)، أن نقوم بالأمر ذاته هنا. ولا أدري ما إن كان هذا الشرح قد قضى على تحفّظها، أو أنني سمعتها تقول بُعيد ذلك، وكأنها تتحدّث إلى نفسها: «على الأقل، يمكنها أن تصلّي وهي تعمل، تصلّي بقلبها». لكن المؤكد أننا جميعاً صرنا نقدّر عمل الأم بيرو منذ ذلك اليوم. لئن كان الفضول يقتلنا لنرى ما تعمل، فكنا ندعها تعمل في صمت، حتى أنجزت عملها خلال أشهر.

***

كنت أول من عرف قراءة عملها الفنّي. في البدء، ما كنت أرى فيه غير قرع مملوء بالصور والرسوم. لكن صانعتها المتأنّية الصبور، شرحت لي، مستعينةً بالكتابة وبالإشارات أحياناً، العلاقة بينها. لم تكن رسوماً فقط، ولا مشاهد معزولة أيضاً، وإنما كانت تروي قصة كاملة. ولما خمّنتْ أني مهيّأة للاستماع إليها، أشارت بالمنقش إلى الرسوم الواقعة تحتُ، عند القاعدة تقريباً. وأعلمتني أنه لا ينبغي لي أن أتحرّك، وإنما القرعة يجب أن تدور، وأن تدور إلى الجهة اليسرى دائماً. ولمّا وضعتُها على طاولة الكوي وحرّكتها ببطء شديد، بدا لي كأنني أصعد درجاً حلزونياً أجد شيئاً فشيئاً أن كل ما فيه مألوف ومعروف ومفهوم. فقد وجدت في تلك الرسوم الديرَ لمّا كانت الحديقة كبيرة جداً، ولم يكن بحاجة إلى سورٍ عالٍ لحماية البستان. كان فيها القطط، وجرن العماد والأم المحُسنة وهي تُعنى ببناتها وتطعمها

(*) قرمط الخط: دقّقه وقارب بين حروفه. (م).

سراً. مرضها وقعودها في الفراش، ثم الضجّة والصخب. وجدت فيها الأم الطبّاخة ساقطة على الأرض وقدماها مرفوعتان، والقطط وهي تدلف من السقيفة والخزانة. لكن أهمّ شيء فيها، صورة الراهبة الساقطة على الأرض مرفوعة القدمين. وهنا شرعْنا جميعاً نضحك. ربّة الدير نفسها أخذت تضحك. لكن وجهها سرعان ما انقبض، واتّخذ طابع الجد، طابعاً صارماً مألوفاً مذْ دخلت الأم بيرو الدير. أمّا خاتمة الرسم فكانت غاية في الجمال، لا ريب في ذلك. يظهر فيه سرير الميتة مُحاطاً بالقطط والراهبات. لأن الميتة فيه كانت تصعد إلى السماء كأنها قديسة بتول، مثلها مثل أيّ واحدة ممن نحمل صورهن أثناء القدّاس، أو اللاتي يظهرن في اللوحات التي تزيّن ممرّات الدير. لكنّ القطط، بنات الراهبة القدّيسة، كنّ يساعدنها على بلوغ السماء عوضاً عن الملائكة. نعم، كان الرسم جميلاً جداً -ورئيسة الدير نفسها تقرّ بأنه جميل جداً. وكادت الدموع تطفر من عينيها- لكن، كيف نجرؤ على تقرير مصير الأم المحسنة؟ أسوأ من ذلك: أين موقع الأم الصغيرة، إذاً؟ وإذا اقتضى الأمر تقديس الأولى، ألا تستحقّ الثانية أن يُلقى بها في النار الخالدة؟ حينئذٍ، رجعت للحظة واحدة، إلى أيامي الأولى في الدير، وإلى مواء الضحايا البريئة، وبريق عيني الأم الصغيرة الغريب، وكأنني أراها مرسومة على قرع آخر، على ماته أخرى؛ وكأنني بالقطط الملائكية، وقد صارت مسعورة الآن، تجرّها من قدميها وتُلقي بها في سواء الجحيم. ولعل الأخوات الأخريات فكّرْن تفكيري ذاته. لأنهن سرعان ما نظرن إلى الأم الصغيرة بعيون متّهمة. لكن الرئيسة ذكّرتنا بصوت قوي بفضائل المرحومة وبرّها، بفضائلها على وجه خاص. وكيف لنا أن ننسى أن القطط كانت كارثة خلّصتنا منها الأم الصغيرة بشجاعة وحزم؟ لذلك، لا أجد مُسوِّغاً لهذا القرع، أو بالأصح ماته، المجوّف والمجفّف والغاص بالرسوم الرديئة وإن كانت ظريفة (وكانت الرئيسة تنظر الآن مرة

أخرى إلى صورة الأم الطبّاخة الساقطة على قفاها وقدماها مرفوعتان) إلّا أن تحاول الأم النقّاشة أن ترسم على قرعٍ آخر رسماً يمثّل حياة عزيزتنا الأم الصغيرة وأعمالها الخيّرة. حينئذٍ ساد صمت، سادت لحظات كان يُسمع فيها زميم النحل في البستان، وصوت أنفاسنا، وخشخشة حبّات المسابح فوق ثيابنا. ثوانٍ أعادتني إلى ما كانت عليه حياتنا خلال أعوام وأعوام. كانت حياتنا، لكنها ليست اليوم كذلك. الشيء المؤكد أننا لم نكفَّ عن الكلام منذ وصول الأم بيرو. وكأن خرسها الذي لا يُصلح حرّرنا من تضحيتنا الطوعية بالكلام. وكأن هناك شيئاً يجب أن يوضّح، أن يُناقش علناً. لذلك، صار صوتي مسموعاً بسبب مهمة التوسّط التي أقوم بها بين القادمة الجديدة والجماعة؛ والسلطة التي يخوّلنيها تحرّكي كيف أشاء داخل أرجاء مكتب الرئيسة؛ وبسبب معرفتي بالبلد ذي الأقاليم الثلاثة، وعادات بعض أديرة العالم وعجائبها وأساطيرها، وهذا بالضبط ما حدث هنا. لأن أياً منّا ما كانت تعرف الأم التي تبنّت القطط وليست قادرة على معرفتها إن لم تلجأ إلى الأرشيف، والتثبّت بدقة من التواريخ التي حدثت فيها الأحداث المذكورة. لذلك، لم تعمل الأم بيرو شيئاً آخر، غير أن تحكي أسطورة (قصة أسراب القطط الأولى كانت أسطورة). في المقابل، لم يمضِ زمنٌ كافٍ على موت الأم الصغيرة والسنة التي نحن فيها. وقد تتكفّل أخريات، إن وجدن ذلك ملائماً، بتكريمها التكريم الواجب في حينه. ربما، في القرن القادم، أو ربما لن يكون أبداً. لأن ما لا نستطيع فعله، أن نَدخل في عقول من يخلفنا. زد على ذلك، ما كنا نستطيع أن نغامر بأن يكون لنا خَلَف.

وهنا قبضت ربّة الدير على سبحتها، كما كنا نفعل جميعاً حين ننتقل في أرجاء الدير لمنع حبّات المسابح الكبيرة المعلّقة في خصورنا من أن تقطع صمتاً ما كان موجوداً، وقالت: «نعم، سيكون لنا خلف. لكن الوقت ما يزال

باكراً». وحكت لنا أن مرشحتين طلبتا الانضمام إلى الجماعة. لكنهما ما تزالان صغيرتين جداً. ودهشتُ: أصغر مني؟ أتكونان طفلتين؟ أنعود إلى زمان كانت الأديرة فيه (وقرأت ذلك في كتب الرئيسة) تقبل بناتٍ أطفالاً، فيتعلّمن التطريز والكتابة، والغناء في جوقة الكنيسة، ثم ينطلقن، إلى العالم الخارجي ويتزوّجن؟ «يجب أن تكونا واثقتين باختيارهن». وأحسست مرة أخرى بالاضطراب. أسُئلتُ ما إن كنت مطمئنّة إلى خياري؟ شيء واحد فقط كان يبدو واضحاً، واضحاً جداً، هو أن الأم أنخيليكا لم تكن على ما يرام. لأنها لمّا غادرت قاعة الشغل، وتأهّبت لدخول الفناء، جعلت سبحتها المعلّقة في خصرها تهوي بضعف، من دون أن تبالي بأن يرتطم الصليب الكبير بركبتها بعنف. كنا نراها مهتمة، ولا مبالية في آن واحد. كانت قلقة، محبطة، منهكة القوى. لئن لم تنطق واحدة منا بكلمة، فذلك كأنما نقف إزاء المرض الرهيب، إزاء شرّ الشرور؛ إزاء مرضٍ لا ينفع فيه طبّ ولا أطباء، بل صلوات ودعاء. «سوداء»، تمتمت في نفسي. ولاشك في أن راهبات سواي قلن ذلك أيضاً. لأننا في تلك اللحظة، ثبّتنا أبصارنا على ثمرة القرع متذكرات أن المرض الرهيب يعدي، وينتشر كالطاعون، ويكتسح الأديرة وقاطنيها، ويعصف بهم ويستولي عليهم. لذلك، حدّدْتُ بالمنقش نقطة البدء، وجعلت القرعة تدور نحو اليسار، ورحت أكشف مرة أخرى، أمام أخواتي القصة التي كنّ يعرفنها. لكنهن لم يكنّ يتقنَّ فنّ القراءة، فكنّ يطلبن مني مساعدتهن، ويجعلنني أعود بالقرعة إلى الوراء، ثم إلى الأمام مرة أخرى، ويرجونني أن أقف قليلاً عند بعض الخانات؛ وأخيراً، أن أشرح لهن ما كانت تعجز الراهبة الخرساء عن شرحه. أمّا هي، الأم بيرو، فكانت تشكر لي بنظرتها كل هذا الاهتمام وكل هذا الدعم. ذلك كأنما نقول لها: «تابعي عملك، تابعي نقشك. ارسمي قصصاً، مزيداً من القصص. تكلّمي إلينا من خلال قرعك». وهذا ما فهمته، وهذا ما صنعت.

وهكذا كنا نستطيع أن نسمع قرب بابها، ونحن نلتمّ لدخول حجراتنا عند حلول الليل، صرير المنقش، أو المناقش، المميّز. أنا كنت أشكّ في أنها كانت ترسم رسماً آخر، وإن أشارت إلى عمل من أعمالها الجديدة، لأن الأمر الهام والوحيد عندها ما كان يجعلها ساهرة حتى الفجر، وهي ترسم وترسم، وتصقل وتصقل، ربما بانتظار حدثٍ هام، أو تاريخٍ معلوم فتقدّم هديّة، أو مفاجأة وعملاً فذّاً.

***

لم تكن الأم أنخيليكا مريضة، وإنما متعَبة، متعبة ببساطة. لم تُصَب بالمرض العضال، لم تُصب بـ«الحزن الخبيث». ومع ذلك، لم أجد مناصاً من القلق على صحّتها. فبصرها كان يتدهور يوماً بعد يوم؛ ويدها ترتعد، فحملت عبء كتابة رسائلها، رسائل، فيض من الرسائل؛ وتنظيم حساباتها، وإصلاح الأخطاء وسدّ الثغرات. كنت أقضي معظم النهار في مكتبها، وكثيراً ما كنت أسمعها (لأنها تعوّدت وجودي، أو أن عينيها كانتا تخونانها أحياناً فتظن نفسها وحيدة) تشكو وتتأوّه وتتحدّث إلى أشخاص غير منظورين: «من قبل، كان للعدوّ اسم والأشياء واضحة». أو «هذا الزمان... لا أستطيع فهم هذا الزمان». ثم تدرك فجأة أني ما أزال قربها، وكأنها انتُشِلت من حلم.

«أجيبي الأسقفّ» -كانت تقول- «قولي له إننا نحترم نصائحه، لكننا لا نرغب في تحطيم الفناء ولا من أجل النذور كما يطلب منا». وكنت أطيعها في صمت، وأنا أفكر أن الرئيسة مصيبة في بعض الأمور على الأقل. كانت هذه أزمنة أخرى مختلفة، أزمنة يُسمح لنا فيها، إنْ رغبنا، بالخروج من الدير والقيام بنزهة والتوجّه إلى الطبيب وزيارة الأقرباء. قلعتنا ليست حصينة كما كانت من قبل، ولا النظام بتلك الصرامة. نعم، لقد تغيّر كل شيء...

أو لعله لم يتغيّر تغيّراً كبيراً. لأن فكرة الخروج إلى العالم الدنيوي تسبّب لنا انقباضاً واضطراباً وحرقة خفيفة في المعدة. بل العالم نفسه هُرِع، مع ذلك، إلى فتح البوّابة الصدئة، وعَبَر البابَ الثقيل ليذكّرنا من دون كلل: «إنني هنا. وما زلت هنا».

وهذا ما حصل ذات يوم، لمّا حضر بُعيد وفاة والدي، محامٍ من البلدة. مرّة أخرى تلك البلدة التي ما كنت أرغب في العودة إليها، ولا في الذاكرة أيضاً. «قد لا تعرفينها اليوم يا سيدتي. لا تستطيعين أن تتخيّلي كم تغيّرت». وتحدّث عن التحسينات: عن الفنادق، والمصانع وملاعب الرياضة. ودُهش للسنّ التي انضممت فيها إلى الدير، وانكبّ على أوراقه مرة أخرى وهزَّ رأسه متفهّماً وقال: «لكنّك، يا أم كارولينا، كنت مخدوعةً كلّ حياتك».

***

لكن، ماذا بمُستطاعه أن يعرف عن الخداع؟ ماذا يستطيع أنْ يعرف عن القرية، إن كان هو نفسه يقرّ بأنني قد لا أعرفها؟ كيف أبيّن له أنّ الأشياء كانت هكذا وعلى هذا الشكل حينئذ؟ لِمَ لا يسأل أمّه وعمّاته وعجائز المنطقة؟

وقفت في الليل على السرير، ورحت أنظر من خلال الشبّاك، كما فعلت منذ سنوات بعيدة. كما فعلت أول مرة. نعم، خدعوني جميعاً. لكن من يعبأ اليوم بهذا الأمر؟ ودُهشت وأنا أنظر إلى الشرفات المغلقة، وإلى السُّطيحات المقفرة مدندنةً بأغنية، ماسحة دمعة، متذكّرة الشابَّ الأشقر الذي كان يعمل في حقول والدي -التي كانت ملكي دائماً كما أعلمني المحامي الآن- مردّدة من دون كلل كلمة: دير، دير، دير... غير أنني أصبحت هذه اللحظة خارج هذا المكان. خارج جدران هذه الزنزانة،

صرت في الحقل، في الهواء الطلق، أنا والشابّ، يمسك كلٌّ منّا بيد الآخر، ساعةَ قرَّبَ شفتيه من وجنتي، وداعبتُ شعره وخفق قلبي خفقةً لم يخفقها بعدئذٍ مطلقاً. وكان جميلاً جداً أن أشعر بهذا الشعور. أتذكّر جيداً أن ذاك الشعور كان غاية في الجمال. لكننا لم نكن وحيدين. لا أعرف من استطاع أن يرانا، من استطاع أن يزعم ما لم يحدث أبداً. بعيد ذلك، راحت الفتيات يتفرّقن في مجموعات حين أمرّ بهن. وانصرف الشاب، أو لعلهم صرفوه، وأنّبني والدي. ورغبت في أن أقتلهم جميعاً، وخطّطت لقتلهم جميعاً، وقتلهم ولو في الأحلام.

لماذا رحل؟ لِمَ لم يُدعَ ليقول الحقيقة؟

«لقد قالها لنا»، سيقول في ما بعد، الأب خوسِه. لكنني ما كنت أستطيع تصديقه. لأنني كنت أبحث ذات يوم عن دونيا أولاليا، المرأة التي كانت تُعنى بكارولينا، وهي الوحيدة التي كانت تستطيع أن تفهمني، فوجدتها بين ذراعَي الأب خوسِه، كما فاجأتها منذ سنوات وهي بين ذراعَي والدي. لم يكن ذلك تخيّلاً. لقد رأيتهما. وأدرك الأب خوسِه أني رأيتهما. أمّا هي، أولاليا المسكينة فكانت تعرف الخداع، فخفّضت بصرها وحذّرتني. أحبّت في أواخر أيامها أن تطهّر ضميرها. كنت أعرف كلّ ذلك منذ أمدٍ بعيد. لكن الأمور هكذا كانت تسير. ولمّا قُرّر أن خلاصي الوحيد يكمن في مغادرة البلدة، والانضمام لفترة معيّنة على الأقل، إلى بعض الرهبنات، تلقّيت الفكرة بارتياح. كنت أبغضهم جميعاً؛ وما كنت أرغب في شيء إلا في أن يختفوا. وكيف السبيل إلى قتل بلدة بكاملها؟

قال المحامي: «لكن، لا تغتمّي! ما زلت ثريّة. سنستعيد ما يمكننا استعادته. ولا داعي إلى أن تعيشي حياة الحرمان».

ومع ذلك، لا أريد اليوم أن أفكّر في برد الشتاء، والحليب الممذوق،

والأطعمة الهزيلة، وفرح الأم أنخيليكا الفيّاض... وإنما عدت إلى كارولينا، إلى السهرات قرب النار، وإلى تلك السهرة ذاتها دائماً، سهرة ظلّت متجمّدة في فكري، ساكنة كالصورة. لكنني قد أسمح اليوم للذكريات بأن تطير. هم وإن ظلوا جامدين كالتماثيل إزاء نارٍ ما كانت تُدفئ، فسأفسح المجال لحصاة بأن تخترق النافذة وتحطّم الليل. حصاة رُبطتْ بها ورقة ورسالة. «كارولينا لن تتزوّج». العبارة نفسها التي كانت تتغنّى بها بعض المجموعات في فناء المدرسة. لا، لن تتزوّج. كارولينا لن تتزوّج... وكان غريباً وطريفاً، أن الحصاة نفسها التي طالما ظلّت رهن الذاكرة، استطاعت أن تثير من سكون تلك الفئة المتحلّقة حول النار، كانت حصاة فحسب، حصاة لا حول لها، كانت مستحاثاً، وأصواتاً من أزمنة أُخَر عاجزة عن إثارة أدنى انفعال ولو كان غضباً.

وتذكّرت بزّة عرس أميّ. «سنعرضها على السيدة فونت، على السيدة أرديبول»، تذكّرت. ثم أيضاً: «طراحات، ستائر، أكسيةً نكسو بها مذبح المصلّى...». نعم، ما زلنا نستطيع، لحسن الحظ، أن نصنع أشياء جمّة بتلك المطرّزات.

***

لكن، سبق لي أن قلت: منذ وصول الأم بيرو، لم يكن يوم واحد يشبه يوماً، ولا الليالي هي ليالٍ. لأنني كنت أفكر في هذه الأشياء، لمّا دُقّ الباب ووصلتني من الخارج همسات خطا عجولة، وضحكات. ولمّا خرجت استطعت أن أسمع كلمة: «معجزة!»، والآن صارت الراهبات يركضن جميعاً عبر الممرّات والسلالم، وقد نسيْن الصلوات والروماتيزم والآلام، من دون أن يقبضن على سبحاتهن كما كنا نفعل دائماً، وكما كان يُقال لنا بأننا هكذا يجب أن نفعل. وتجمّعن مبتهجاتٍ في المطبخ حيث

كانت الرئيسة والأم بيرو تغمرهما رائحة فاكهة متخمّرة. ووصلتُ لاهثة مبهورة من دون أن أعي شيئاً مما كان يجري، سوى أن الأم أنخليكا كانت استعادت نظرتها الصارمة، كما عرفناها أيام كان الشرّ له اسم ويأتي من الجانب الآخر للحدود. هي ما كانت تتحدّث عن معجزة، وما كان يبدو عليها الانفعال كالأخوات الأخريات، وما كانت تُغمض عينيها، وترفع الصليب إلى شفتيها. «منافقة!» قالت فجأة. وكان عنفها بالغاً حتى شرعت الأم بيرو تبكي وتنفي برأسها وتئنّ. نعم، كانت الأم بيرو تبكي، وتئنّ، لكنها كانت... تتكلّم أيضاً. «كان ذلك نذراً عليّ»، كانت تقول وسط نحيبها. «نذرت أن أصمت». وذهلت حينئذٍ من أنني صرت أنا الخرساء.

***

لكنني ما كنت أستطيع أن أصدّقها. لِمَ لم تقل لنا من خلال خطها المقرمط أن «صمتها نذر»؟ على الأقل، أن تقول لي، لصديقتها وحاميتها. وإذْ كنت أسمع الآن كيف بدأ كل شيء، وكيف بدا لإحدى الأخوات في منتصف الليل أنها تسمع بعض الأغاني تنطلق من المطبخ، أدركتُ أن هناك أشياء كثيرة أخرى كنت أجهلها عن الأم بيرو. مثلاً، ماذا تعني تلك الجفنة التي كانت تطفو فيها قطع من القرع تنبعث منها رائحة قوية، تبعث على الدوار، جفنة كانت الرئيسة تشير إليها بإصبع متّهمة وقد شخصت عيناها وراء نظارتها من الكاري؟ «هو دواء». بادرتْ إلى التوضيح الأخت التي كانت تعنى بالمطبخ هذه الأيام الأخيرة. «دواء الأم بيرو». وبصوتها الخشن للغاية بيّنت مرة أخرى، لدهشتي، أن صحتها هشّة، وأنها تعاني دائماً دواراً وعسر هضم، وهو ليس في الحقيقة غير مادة هاضمة. إنه قرع يُغلى بالماء والسكر ويُخفق ويُغطى بإحكام لمدة أيام معدودات. وذاقت الرئيسة بنصل السكين السائل الأصفر وبصقته باشمئزاز.

«دواؤك!» -قالت. وكم كانت تبدو قويّة مرة أخرى!- «اسمحي لي بأن أقول لك إن دواءك صعد إلى رأسك».

وما كنت أستطيع أن أتدخّل، أن أوحي أن عيني الأم بيرو حمراوين بسبب البكاء، وأن صوتها الأجشّ الذي كانت تخاطبنا به، لم يكن إلا نتيجة لزومها الصمت فترة طويلة. وإذ كفّت الآن عن أن تكون خرساء، فلا أستطيع الدفاع عنها كما من قبل. لأن القاعدة تقول: «لا تجوز الحماية، ولا بين أفراد العائلة الواحدة». وإذا كانت ربة الدير سمحت لي بمساعدتها حتى ذلك الوقت، فإنما لاعتقادها بأنها لا تستطيع الكلام، وأني ترجمانها والمكلّفة بدمجها في جماعتنا الصغيرة. لكن، لم يرُق لي المكوث في المطبخ مستنشقة رائحة القرع المتخمِّر، فخرجت خلسة، وصعدت الدرج كابحة مسبحتي وحابسة نفسي. ودخلت حجرتها. وجدت فيها المناقش، والحبر، ورائحة القرع المتخمّر نفسها، وخاصة قرع الماته. كانت قرعة كبيرة، أكبر من كل ما عرفته. وكانت تعمل فيها خلال الليل في صمت منذ فترة طويلة، عملها الأعظم الذي لم تره أيٌّ منا حتى الآن. إنه قرعة سرية صعب فهمها، وكأن القصة التي تحكيها ليس لها عنوان آخر غيرها ذاتها. لكنني كنت أستطيع قراءتها وفكّ رموزها، وأديرها كالبرتقالة وأرغمها على الكلام. وهكذا فعلت حتى توقّفت عند الخانة الأخيرة. كانت تمثّل راهبة صرت أعرف الآن أنها الأم بيرو، واقفة خلف شباك في دير. ثم سحابة. لم يكن الرسم قد اكتمل. أو ربما، نعم. ربما وُجِد في تلك السحابة التي تشغل مساحة مبالغاً فيها، ما يمكن أن يحدث، أو ما لم يحدث حتى هذه اللحظة. وفهمت مغزاها حينئذ. تلك كانت الخاتمة. إنها قصة مفتوحة، أو قصة تقف فجأة على شفا الهاوية.

***

وصلت الرسالة الأولى من البيرو، والثانية من آركيبا. كلتا الرسالتين تقول: أسئلتنا أثارت اضطراب جماعة الديرين. إذْ ليس لديهما راهبات فائضات عن الحاجة وأنهما لم ترسلا أمّاً خرساء إلى مكان جد بعيد. كانتا جوابين عن رسالة سابقة، كما يبدو بوضوح. رسالة لا شك في أن رئيسة الدير كتبتها سراً، حين كنا نراها ذاوية قلقة أيام كانت الأم بيرو محافظة على عهدها بالصمت. كان لدينا رسالة ثالثة وصلت منذ مدة، كانت في الواقع، أولى الرسائل كلّها. وكان مصدرها البيرو أيضاً، أُعلِمْنا فيها أن إحدى الراهبات في طريقها إلينا. وابتهجت الأم أنخيليكا التي طلبت راهبة عاملة من هذا الدير أو ذاك، ابتهاجاً كبيراً يوم وصول الرسالة حتى لم تتحقّق من زوال الحبر عن طرفها في الزاوية التي يُكتب فيها اسم الدير وعنوانه. ولم تشأ أن تسأل الأمّ بيرو شيئاً، لأنها لاحظت منذ البدء غرابة ما فيها. لكنها كانت تسألني، أنا ترجمانها والناطقة بلسانها. ورأيت خطأً مفككاً عرفته فوراً، واكتفيت بأن هززت كتفي. «غير ممكن!» قلت. «هنا لا يُوجد خطأ واحد». وسرعان ما تنبّهت إلى ذكاء الأم بيرو، وإلى دهاء الأم أنخيليكا التي استردّت كل قواها، وليس بالمستطاع خداعها أيضاً بسهولة. لذلك، لم أتحدّث إلى صديقتي تقريباً خلال بضعة أيام كي لا ترتاب رئيسة الدير فيّ، ولكي أظل على اطّلاع على كل ما يجري في الدير، وأقدّم مساعدتي إذا حانت الفرصة المواتية. ورحنا نرسل رسالة إثر رسالة. كانت الرئيسة تُملي وأنا أكتب، ثم كنا نقرأ الأجوبة معاً. وقد صارت ترد الآن من الإكوادور، ومن بوليفيا ومن تشيلي... لكن الأم أنخيليكا اهتمت بوجه خاص برسالة الإكوادور. في أحد أديرة كيتو، كانت تقطن راهبة بيروانية، لم تكن خرساء وإنما كانت تتكلّم بصعوبة، وكان صوتها غليظاً جداً. (كانت تزعم أنها نذرت على نفسها الصمت منذ طفولتها الباكرة). وأغرب ما في الأمر أيضاً أن هذه الراهبة التي كانت فلّاحة من قبل، تعرف

أن تنقش أيضاً (وهنا شعرت برعدة: ألا تشبه قصّتنا شبهاً كبيراً؟)، لكن الأم أنخيليكا أمرتني أن أتابع. كان لديهم في وقت ما تلميذة تعلّمت هذا الفن. كانت إسبانية ولا يتذكرون من أي مدينة هي ولا من أي مقاطعة، ولا يعلمون على وجه اليقين أين هي؛ لأنها اختفت يوم قُرِّر رسمها راهبة، إمّا لأنها لا ترغب في ذلك، أو أن الخوف اعتراها. من يدري!

«ألا يبدو لك غريباً؟ كارولينا، يا بنتي. ألا يبدو لك ذلك كله في منتهى الغرابة؟».

كلا! ما كان يبدو لي غريباً. رسالة أخرى من كوتشا بامبا (بوليفيا) تحكي عن راهبة برتغالية اختفت، هي الأخرى أيضاً. لم تكن خرساء بل كانت ثرثارة بإفراط، لكنها كانت تعاني عسر هضم تعالجه بدواء قديم مكوّن من حبّ الصنوبر المخمّر، فيتحوّل إلى سائل هاضم مقوٍّ.

«وهذا؟ ماذا تقولين عن هذا يا كارولينا؟».

لكن، هل اختفت أم طُردت؟ هذه المرة اضطررت إلى وضع نظّارة رئيسة الدير، لأن الخطّ كان دقيقاً جداً وما كنت أستطيع قراءته. أعدت قراءة الرسالة مرات عدّة.

لم تُطرد، ولم يوبّخها أحد أيضاً، وإنما رَحَلتْ من دون أن تفوه بكلمة وبعد أيام قلائل من رحيلها حضر مع ذلك، إلى الدير أشخاص هامّون جداً ومن طبقة عليا عرّفوا أنفسهم أنهم من أقارب الفتاة المختفية، ويهمّهم معرفة مكانها. وبعد أسبوع من ذلك حضر آخرون (لم يتلقّ الدير من قبل مثل هذه الزيارات خلال فترة قصيرة)، وحاصروا جماعة الدير بأسئلتهم عن الرجال السابقين. هؤلاء الأخيرون ما كان يبدو عليهم أنهم هامّون ولا من عِلية القوم، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء ترك ظرف فيه صدقة أو عطيّة، وإنما زعموا أنهم من الإنتربول. «نعم، الإنتربول»، كررت. وتبادلنا

النظرات، أنا والرئيسة بدهشة. إنتربول، ماذا يعني الإنتربول بالضبط؟ لا أدري ماذا كان يخطر في ذهن الأم أنخيليكا. أمّا أنا، فلم تعجبني هذه الكلمة أبداً منذ اللحظة الأولى.

***

أنا ما كنت أريد شيئاً آخر غير إسداء النصح لها. أن أقول لها إن تحرّيات رئيسة الدير شارفت على نهايتها؛ وأن كل شيء سينتظم ويصل إلى تمامه؛ وأن المخرج الوحيد أمامها أن تعترف للأم أنخيليكا بالحقيقة، وإن كانت الحقيقة، كما أعرف عن حق، ليست دائماً أقصر الطرق. فكنت أقف إلى جانبها، كما عهدتني من قبل، مستعدّة لتوضيح الأمور وشرح القصة التي كانت تكتبها بمزيد من الألم خلال الليل على القرع المخبّأ. أيّ جرم ارتكبته الأم بيرو المسكينة؟ ذلك أنها شهدت جريمة قتل، ثم فرّت. ورأت نفسها مضطرّة إلى الهرب والجري من جهة إلى أخرى، واللجوء إلى الأديرة، إلى أن ينساها المجرمون الحقيقيون. وضّحتْ كل ذلك بالرسم خطوة خطوة، خانةً خانةً: همومها، هربها، إصرار مطارديها على ملاحقتها... مسكينة الأم بيرو! وإذْ صارت الآن تتكلّم فقد ازدادت حاجتها إلى مساعدتي. لكنني كنت سأحذّرها وأشير عليها وأقول لها: «إني أعلم، بخاصة أن مطارديك ليسوا المجرمين فقط، وإنما البوليس أيضاً». لذلك انتظرت لحظة انشغال الأخوات بأعمالهن، وانزوائها هي في حجرتها، فطرقت بابها بلطف بأناملي خشية أن أخيفها، ودخلت من دون انتظار الجواب. لكن الأم بيرو، أساءت استخدام الدواء مرة أخرى.

كانت الزنزانة معتمة، ولم أميّز في البدء سوى سوادٍ جالس على كرسيّ، ومكبّ على طاولة من البلوط، مستندٍ برأسه إلى يديه. كان يبدو أنه يفكر، وأنه يقرأ بانتباه، بانتباه شديد كتاباً يشبه أن يكون كتاب القدّاس؛

وأنه ينظر مرة بعد أخرى إلى النقش على القرع الذي كنا نعرف سره وحدنا: أنا والأم بيرو. لكن عينيّ سرعان ما اعتادتا الظلام؛ وكنت على وشك أن أخرج، وأعود أدراجي. لأن الأم بيرو كانت في الواقع، تجلس على كرسي من دون مسند، وتكبّ على الطاولة وشعرها كان طويلاً. وما كانت تتأمله بهذا الاهتمام الشديد، لم يكن قرعاً، ولا كتاب قدّاس، ولا أي كتاب آخر، وإنما مربّع لامع، لامع جداً. شعر طويل وشيء مربّع! كان للأم بيرو شعرٌ طويل وكانت تتأمله في هذا الشيء الصقيل اللمّاع. لم أكن سريعة بما يكفي، فالتفتتْ إليّ مدهوشة، مضطربة وغاضبة. من فمها كانت تتصاعد رائحة القرع المتعفّن، وكانت عيناها محمرّتين. لكن كل ذلك لا أهمية له، وما كان ينبغي له أن يكون ذا أهميّة. ولو لم تصنع ما صنعته، ولو لم تقلْ ما لا ينبغي له أن يُقال، لكنت نسيتها حقاً. لكن الأشياء جرت هكذا، وليس بطريقة أخرى.

زمجرت فجأة: «حشريّة! ماذا تفعلين هنا؟».

بصوتها الأجشّ قالت هذه الكلمات، أو كلمات أُخَر، لا أتذكّرها. ووجدت نفسي مشلولة الحركة في عتبة الباب. ووقفت ذاهلة من شعرها، ومن اللمعان المنبعث من المنضدة، من مربع صغير للغاية وسط طاولة من البلّوط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نعم. هي مرآة. ماذا جرى لك؟».

ثم أضافت:

«كفّي عن النظر إليّ ببلاهة طفل. أنت عجوز، وعجوز شمطاء. هذه هي أنت، أيتها المتطفّلة العجوز!».

كانت تقف بصعوبة على قدميها. لكن اضطرابي كان لابدّ له من أن يزيدها غضباً على غضب، فأمسكتْ بي من سبحتي بقوّة، وأجبرتني على

أن أحني رأسي فوق المرآة، وزمجرت مرة أخرى: «انظري الآن، أيتها العجوز الشمطاء». وأطلقتُ حينئذ صرخة صامتة للمرة الثانية في حياتي.

أغمضتُ عينيّ فوراً، وضغطت على جفني كي لا أرى شيئاً. لكن المرآة عكست في جُزيء من الثانية، في لُحيظة تقريباً، وجهاً مجعّداً، دَهِشاً مذعوراً. أنا، وإن كنت لا أستطيع حتى الآن، أن أفهم كيف جرى ذلك، لكنني أعلم حقاً، أنني عرفت هذا الوجه فوراً. عرفت وجهها المنسيّ. وجه الأم الصغيرة وهي تقف إلى جانبي، تقف -مرة أخرى!- هنا.

***

«يجب علينا أن نكون رحماء، وأن نصفح عن نظرائنا». هذا ما كنت أقوله. في اليوم التالي، وفي يوم آخر، صارت الأم بيرو تقترب محزونة، مطرقة. لكن، لم يكن لديّ فسحة من الوقت لأسمع أعذاراً. كنت أتابع الكتابة، وأجيب عن الرسائل. ولمّا كانت الرئيسة تختتم مراسلاتها، كنت أنكبّ على تنظيف الصندوق وأفركه بماء القِلى والرمل. أفركه بقوّة. لقد زال فم البحّار من الرسم، ولعلني زدت به إعجاباً هكذا. وكان يبدو وهو يغمض عينيه نصف إغماضة، أنه يبتسم لي، ويوافق على سلوكي، ولا يأبه بأن يظلّ معظم اليوم مكبّاً وفمُه باتجاه الأرض، ووجهه إلى الحائط، وأنني بذلك، يمكنني أن أتابع عملي. كانت كلّ الدروج فارغة مفتوحة حتى السرية منها التي كانت في أوقات أُخر تضمّ ذكريات، واليوم صارت تشبه زنزانات ديرٍ مقفر، مهجور، ربما بسبب الطاعون، أو وباء أو مرض مجهول، وأقوم بتطهيرها وفركها وتحليتها كي لا يبقى أثر من قاطنيها السابقين، ولو كانت أصواتاً أو وشوشات. وكنت غالباً أغنّي، أو أدندن بألحان قديمة ترد إلى ذهني فجأة. كنت أدندن في صمت؛ لأن كل ما كنت أفعله تلك الأيام كان يجري في صمت. كانت أياماً مشحونة بالعمل: كتابة الرسائل في المكتب،

وتنظيف الصندوق، والعناية ببزّة العرس التي صارت نسيجاً صدئاً له رائحة الرماد؛ وأخذت تتشقّق من كل الجوانب، وتنكمش تحت حرارة المكواة. وأدركت أنني لا أستطيع الانتفاع بها شيئاً سوى أن تزيد من حجم الخرق العتيقة في السلة. ثم يأتي عمل الليل، لأن العمل الأهم يبدأ في الليل؛ في السرّ وخلف أبواب مغلقة.

«كارولينا، ينبغي لي أن أتحدّث إليك. دعيني أدخل، من فضلك!».

لكنني ما كنت أرغب في الاستماع إليها، ما كنت أرغب في نسيان شعرها، ولا المرآة ولا شيء مما حدث في عتمة الزنزانة.

«صبراً، أمّ بيرو، صبراً!». كنت أقول لها.

***

ما كان عليّ أن أنتظر شهراً. فقد جاء خلال هذه الفترة من يبحث عنها. حينئذٍ، تكلّمت. بالطبع، استطاعت أن تتكلّم. يا إلهي! كم تكلّمت. وحكت أنها كانت تكتب قصة حياتها خلال مدة طويلة، على قرعة ماته. كانت تكتبها عاماً بعد عام على قرعة تحملها معها أينما يمّمت وجهها فراراً، لأن القتلة كانوا ناساً ذوي حول وطول، وكانوا يعلمون أنها شهدت الجريمة؛ وأقسموا يومها إنهم لن يهدأ لهم بال حتى يعثروا عليها. لكنها الآن، كانت تطلب حماية، وتعترف بأن جرائمها الوحيدة كانت بعض الأكاذيب الصغيرة، والأخطاء التي لا أهمية لها. لم تكن راهبة ولا من البيرو أيضاً. كانت تغيّر جنسيتها كلما رأت نفسها مضطّرة إلى متابعة هربها لتضليل مطارديها. ثم استأنفت حديثها عن الجريمة (لم أعد أتذكّر في أيّ بلد، ولا أيّ عام)، عن العصابات الدولية، عن كومة من الأشياء لم تفهمها أيٌّ منا فهماً كاملاً. وتحدّثت عن معاناتها وعن الخطر الذي يتهدّدها، وعن حيرتها الرهيبة مرة أخرى. كل ذلك كان محفوراً ومكتوباً، ربما بانتظار

لحظة كهذه اللحظة. ومع ذلك، ما كانت ثمرة القرع التي جعلت رئيسة الدير تديرها جهة اليسار أمام فضول الأخوات أو لا مبالاة الشرطة تثبت شيئاً من قصّتها وآلامها وتعاستها المزعومة. كانت الرسوم كبيرة وقاتمة إلى حدّ ما. لكنها، وهي على حالتها تلك، كانت مفهومة بصورة حسنة جداً، وصوّرتِ الجريمة خطوة خطوة. وحول قرب النهاية، كان يبرز وجه راهبة ما كانت تبدو حزينة وإنما سعيدة فرحة. راهبة تضحك وتقهقه وهي ترفع كأساً تنطلق منها سحابة، ربما كانت واعدة أو خُلبيّة، لأن السحابة كانت تشغل مساحة أربع خانات، وتختتم القصّة (أليس هذا ما كانت تريده؟) فجأة عند الحافة.

«ماذا يعني هذا؟» - جعجعت الأم بيرو.

لم أستطع النظر إلى وجهها. وأطللتُ من النافذة وتأمّلت البستان. لكن، كان من المحال صرفُ الأسماع عن صياحها: «ألقيْن بهذه الأعمال التافهة إلى المزبلة! ابحثْن عن قرعتي! اضبطن محتويات الدير! لن أرحل من هنا من دون القرع!»، لأنّ الأم بيرو كانت تبدو أنها نسيت الجريمة، والدفاع الحارّ لتبرّئ نفسها، نسيت خطورة وضعها؛ وإنما أخذتْ تصب جامّ غضبها من أجل إنقاذ سمعة ومهارة وفن. وصارت تنفي بصوتها الأجشّ كل علاقة لها بتلك الرسوم التي كانت تصفها بأنها مضحكة، تافهة وحقيرة. لكنها كانت تطالب من دون أن تتخلّى عن صريفها بإعادة عملها -عملها الأعظم، كانت تقول- إعادة القرعة الحقيقية التي نقشت عليها القصة التي عملت فيها سنين وسنين؛ إعادة الثمرة التي كانت رفيقتها حيثما قادتها خطاها هاربة.

«فتّشوا الصندوق!» -وصار صوتها أشد بُحّة وتمزّقاً- «لاشكّ في أنها في الصندوق!».

لئن لم تُبدِ الشرطة أدنى اهتمام برؤية مزيدٍ من القرع أو بدراسة الرسوم السخيفة، وأخيراً، بإضاعة مزيد من الوقت في البحث، فقد أغلقتُ النافذة ببطء، وعرضت بسرور أن أريَهم الصندوق. داعبت الغطاء المحدّب وأدرت المفتاح في القفل ببطء شديد وفتحته. لم نجد شيئاً فيه، لا في القاع ولا الزوايا، ولا في الدروج السرية التي كنت أفتّش فيها واحداً بعد آخر. وإنما انطلقت منه رائحة قِلَى، رائحة نظافة؛ انتشر منه عطر بليل عَبَر الدهليز أوّلاً، ثم الممرات، وراح يصعد السلالم ويلتصق بالأقفال والشقوق، وظلَّ المكان عابقاً به فترة طويلة حتى بعد ساعات من قول الباب الحديدي الصدئ: «وداااااعاً!» وانكفأنا جميعاً في صمت.

***

وبدأت الأيام مرة أخرى، يشبه بعضها بعضاً، وتتناسخ في ما بينها، وتتكرّر بصورة مرهقة. وحدّدتُ الأعمال بالدور وبالترتيب، لأنني هكذا جعلتها. فكانت راهبة للعناية بالبستان؛ وأخرى بالمطبخ، وثالثة بالباب الدوّار الذي لا يدور البتّة. لكنني أصبحت لا أُشغَل بالباب؛ لأننا ما كنا نتناول حليباً ممذوقاً بالماء، ولا خبزاً يابساً؛ وإنما نأكل كعكاً ومربّى ومسحوق الشوكولا. أمّا أنا فكنت أوقّع في المكتب أوراقاً يوصلها إليّ المحامي. لم يكن المبلغ كبيراً، على الأقل ليس كبيراً كما زعم هذا الأخير. لكن الرجل الشجاع كان على صواب في بعض الأمور. أمسينا لا نعيش بكثير من الحرمان والتضحيات؛ واستسلمت الأم أنخيليكا إلى الراحة وتحرّرت من التزاماتها، وشرعت تنقل إليّ امتيازاتها وسلطاتها شيئاً فشيئاً. وقد صارت اليوم لا ترى ولا تقوى على السير تقريباً؛ وكانت تقضي أيامها منزوية في حجرتها. فكنت أكتب الرسائل وأجيب عنها؛ وأشرف على شؤون الدير. وكنت في الليل، أرفع إليها تقريراً بما كان يجري؛ وأُعلمها بزيارات السيدة

فونت والسيدة آرديبول (بالحَرا بزيارات بناتهن أو حفيداتهن اللاتي ما زلنا نطلق عليهن السيدة فونت والسيدة آرديبول)؛ بما كنّ يحكينه لنا من خلال الخصاص عن التغيّرات التي ما تزال تحدث في ما يسمّينه العالم. الأم أنخيليكا وإن كانت تغفو عادة وأنا أحدّثها (أو توافق بلطف، أو تهزّ رأسها مستنكرة وكأن لا شيء مما أقصّه عليها يمكنه أن يثير اهتمامها) فقد ظلت من الوجهة الرسمية رئيسة الدير. بهذا الشكل كنت أحصل على موافقتها، وقبولها وامتثالها لكل ما كنت أصنعه. لذلك، لمّا وجدنا ذات صباح زائراً غير منتظر في البستان -قطيطاً أسود عمره أيام معدودات، من يدري ما إن كان ضائعاً أم مهجوراً كما في الأيام الخوالي- أطعمته في المطبخ، وقلت له: «ستظل هنا، معنا». وعند حلول الليل صعدتُ كالعادة إلى حجرتها.

«من هذا؟» -قالت بصوت حالم وهي تجلس وتضع نظّارة ما كانت تفيدها في شيء تقريباً- «ماذا يريد؟». مكتبة .. سُر مَن قرأ

«سيقيم هنا» -بادرت إلى إعلامها- «سنضعه في الصندوق الذي سننزع عنه غطاء البحّار كي لا يختنق».

قالت: «آه! البحّار...!».

وبدا لي أنها عادت تعيش تلك اللحظة لمّا تأمّلت غطاء الصندوق المقوّس، لأول مرة؛ تأمّلت البحّار الذي ينظر إلى الأمام والشمس على يساره، والعاصفة على يمينه؛ لمّا تأمّلت اللوحة التي تحمل لوحة أخرى؛ وهذه تحمل لوحة ثالثة، فرابعة فخامسة. وإذ وضعت رأسها على المخدّة، خمّنتُ أنها توقّفتْ عند النقطة الصغيرة، عند الحلقة الأخيرة المرئية في السلسلة الطويلة من الأشرعة والعواصف والشموس والبحّارة الممسكين باللوحات. أو ربما، لا. لعلها استطاعت أن تدخل من خلال الثقب، وترى أبعد كثيراً مما يمكن أن يحكيه لنا الصندوق.

تمتمت: «أمّ أنخيليكا!».

لكنها كانت قد استيقظت، وجلست مرة أخرى، ورفعت تلك النظارة التي ما كانت تصلح لشيء ورفّت بجفنيها. وراحت تتحرّى القط، ثم قالت:

«عيناكَ حمراوان؛ وأنت بَشِع! بشع وأسود كالشيطان».

وابتسمتْ واستردّت مرحها المفقود، وداعبت القُطيط وأطلقتْ عليه اسماً.

قالت ببطء شديد: «نايلون! أنا أعلم أن اسمك نايلون».

***

غالباً ما أفكر في هذا حين أستيقظ. أفكر في كلمات الأم أنخيليكا الأخيرة، وعينيها المنطفئتين؛ وفي كومة القصص التي تدوّم في رأسي، وتتشابك وتختلط حتى أنساها أحياناً. ولا أجد مناصاً من أن أنتظر الليل لأحاول تنظيم الذكريات، وأنا أجوب أنحاء الدير، كما أفعل الآن حاملة رزمة كبيرة من المفاتيح مربوطة في خصري، ممسكة بالسبحة في كفيّ كي لا تُحدِث ضوضاء، متلمّسة بأصابعي الجدران والأبواب، وأتفقّد الدهليز والمطبخ والمكتب، والفناء وقاعة الشغل والمصلّى، وحجرات الأخوات اللاتي يرقدن أو يتأملن أو يصلّين، أو ربما يعشن ليلتهن الأولى متأملات السطوح من طاقة؛ وأتخلّص شيئاً فشيئاً، من الذاكرة، وأودعها في الأرشيف، وأدعها في أمان. أحجر عليها وأقيّدها، وأعجب من أن غرف ديرٍ ليست غير دروج سرّية في صندوق كبير.

لكن، ستمضي مدة طويلة لأُعتِقَ ما آخذ بحبسه شيئاً فشيئاً. وحين تتلقّى الرسائل التي أبعثها أجوبة، وتتجسّد الرسائل التي أجيب عنها، أخيراً، في نداءٍ هاتفيّ خجول، في صوت الجرس الصغير الذي أتعرّف إثره إلى مرشّحة جديدة، تلميذةٍ مبتدئة، نعم، حينئذ سأتمكّن من أن أحكي

-وأنا أداعب نايلون الذي يصبح كل يوم أكثر سُمنةً وكسلاً- أحكي، عن قلق راهبة قدّيسة، عن توبة الأم الصغيرة، عن حياةِ هاربةٍ مخاطرةٍ سمّت نفسها أمّ بيرو، عن وصول طفلة ببزّة عرسٍ إلى الدير... قصصاً، ومزيداً من القصص، وأساطير.

«خذي واخرجي. هناك سترين وجهك لآخر مرة. وجه سيلازمك حتى نهاية عمرك».

وهنَّ سيجتزن الفناء الظليل؛ وسيُجبن على دعوات الأخوات؛ ويخرجن إلى البستان، يجلسن تحت ظلّ ليمونة، أو برتقالة، ربما، في المكان ذاته الذي نَمَتْ فيه ذات وقت، ثمار القرع؛ سيتأمّلن أنفسهن في مرآة ذات ذراع من فضّة. مرآة الحكايات. وسأراقبهن من مكتبي في صمت مدركة أن تلك اللحظة هي اللحظة الأهم في حياتهن، وأنْ لا شيء ينبغي له أن يثير الاضطراب فيهن، أو يصرفهن عمّا هنّ فيه: لا حفيف الأوراق، ولا صفير الريح، ولا الصوت الذي يبدو أحياناً أنه يصدر من الدفلى قرب المقعد الذي جلسن عليه، بالضبط، حيث قام أحدهم منذ مدّة بعيدة، كما تقول الأسطورة، بدفن رماد قرعة نُقش عليها رسم. لكن ينبغي لنا ألا نخدع أنفسنا، لأن الدفلى شجرة سامة؛ ولا غرابة في أن تكون وشوشتها التي أحسب أحياناً أنني أعرفها أيضاً: «حشرية، عجوز دردبيس، ما أنت إلا عجوز!».

***

ذات الرداء الأخضر

«أنا آسفة!» -تقول الفتاة- «لقد أخطأتِ، يا سيدتي».

استمعتُ إليها من دون أن يرفّ لي جفن، موافقة بهزّة من رأسي، وكأن الخطأ أكثر الأمور شيوعاً في العالم. إذ لا يوجد تفسير آخر: لقد أخطأت. واستعرضت في ذهني، للحظة واحدة، قائمة الأخطاء الصغيرة التي قد أكون ارتكبتها في حياتي، فلم أعثر على خطأ يشبه هذا الخطأ. لكن، لا ينبغي لي أن ألوم نفسي؛ فقد كنت متعبة، مرهقة من العمل؛ وزاد الطين بلّة أني لم أستطع النوم. وكنت هذا الصباح على وشك الاتصال بمؤجّر البيت: كيف يمكنه أن يؤجّر الطابق الأعلى لعائلة صخّابة؟ لكن ما يهمّني الآن، ليس الجيران ولا مؤجّر البيت ولا تعبي، إنما ما بدا لي أنه وهمٌ اعتراني منذ نصف ساعة تقريباً. لأن خليطاً من الشكّ واليقين دفعني إلى أن أغادر دكاناً للأحذية على عجل، وأجري في الشارع وراء امرأة شرعتُ أناديها: «دينا». لكن المرأة تابعت سيرها غير مكترثة بي، ومن دون أن تلتفت إليّ لأنها لم تكن دينا، أو على الأقل، هذا ما تؤكّده «دينا داش» الحقيقية الجالسة إزائي وراء مكتبها المنظّم، تعلو وجهَها تلك الابتسامةُ التي استقبلت بها نبأ تعيينها في المؤسسة منذ أسبوع تقريباً. «كلا!» تقول لي. «آسفة! لقد أخطأت يا سيدتي». نعم، أدرك الآن أني أخطأت لا محالة.

لأن الفتاة الجالسة قبالتي، وإن كان الشبه بينها وبين تلك المرأة ما يزال يدهشني، هي مثقّفة، ذكية، وسكرتيرة نشيطة. أمّا المرأة، المرأة المجهولة التي ركضتُ خلفها في الشارع منذ قليل، فكانت ذات وجهٍ ارتسمت عليه بصمات حياة كاملة من العذاب؛ كانت ذات نظرة غامضة باردة لمْ تتبدّل مرة واحدة على كثرة ندائي بها، ودفع الناس لها، وزحام شارع تجاري عشيّة العيد. وهذا ما لفت انتباهي حقاً، إلى أن تلك المرأة -دينا كما كنت أحسب- تعاني اضطراباً، وغياباً، وفقداناً، مؤقّتاً لهويّتها. لكنني أدرك الآن أن خطئي، لم يكن غير نصف خطأ. لأن المرأة المجهولة، أو أياً تكنْ، تحتاج إلى مساعدتي. أعود بنظري إلى دينا، وسترتها الجلدية ومعطفها الجوخي المعلّق على المشجب، وأتذكّر المرأة مرّة أخرى؛ المرأة التي تلبس بزّة من الحرير الأخضر في عزّ كانون الأول. بزة احتفال خفيفة، مفتوحة الياقة... وتضع على عنقها عقداً بنفسجياً، غير مكترثة بالبرد، ولا بحركة السير والناس. لن أقول شيئاً آخر. خَلْطي بين الفتاة والمرأة مختلّة العقل، جعلني أبتسم. واحتبست في مكتبي، ووضعت الأغراض المشتراة على مقعد، وأخذت أراجع المراسلات. سيكون شهراً مرهقاً، شهراً واحداً فقط. ثم بعد ذلك، روما. روما وإدواردو. وشعرت بأني سعيدة. كان لديّ كلّ الأسباب لأكون سعيدة.

***

كلا الحذاءَين لم يكنْ على مقياس قدمي. الأول منهما كان ضيّقاً للغاية، ويضغط عليهما بشدّة؛ واضطررت إلى أن أضمّ أصابعي على شكل الأناناس لأستطيع تحمّله. أمّا الحذاء الآخر، فكان على العكس من ذلك تماماً. قدماي تنكمشان فيه على شكل أناناس أيضاً، لكن الغاية جدّ مختلفة. صارا كدفّة هذه القوارب التي تستعصي على القيادة، وتتمرّد وتتملّص... وكان الوقت قد فات كثيراً من أجل الرجوع إلى البيت. لذلك،

أقول لنفسي، ليس لي مخرج إلا أن أختار بين عذابين. واخترت الثاني منهما. لكنّي لم أقم بذلك اعتباطاً. فبعد نصف ساعة، كان يجب عليّ حضور عشاء عمل. وبسبب ذلك جئت مترسّمة إلى المكتب، وتوقّفت أمام دكان أحذية، واشتريت حذاء. كان شراء غير معقول وعجولاً. وسأعيد غداً الحذاء الضيّق. وأدرك الآن أني لا أحسّ بأدنى شهيّة للطعام؛ ومع ذلك سأجد نفسي خلال نصف ساعة، مضطرة إلى الأكل. أعرف هذا العذاب مُذْ تحوّلت إلى مديرة تنفيذية محترمة. عذاب لا علاقة له بنقيضه: النهم الشديد الذي لا يرتوي، والذي طالما أخجلني كثيراً. وقع اختياري، إذاً، على الحذاء المنزلق كالجندول. (لا أستطيع شرح الأمر، وإنما بدا لي أنه أكثر ملاءمة لما ينتظرني). وهكذا، وصلت إلى المطعم في الوقت المُحدّد وأنا أجرّ قدميّ جرّاً، ومن دون ذرّة من الشهية. قراءة لائحة الطعام أثارت فيّ الغثيان. إنه إحساس فظّ، مضحك، كما يبدو لي أفظاظاً جلسائي العشرة وهم يتحدّثون بشيء من الريبة عن سكرتيراتهم، وببعض الاحترام والإعجاب عن زوجاتهم؛ وكما يبدو مضحكاً حذائي الذي خلعته على الموكيت منذ برهة. ما كنت أنتظر شيئاً سوى أن يُختتم العشاء سريعاً، وأن يتحدّث هؤلاء في لحظة ما من هذه الليلة عن إدواردو، وعن آخر مرة التقوا فيها إدواردو، وعن النجاح الذي لقيه. لحسن الحظ، لم يلبثوا أن فعلوا ذلك. سألوني عن الفرع الذي افتتحته المؤسسة حديثاً في روما. وأحسست بارتياح خفيف لمّا ذكرتُ إدواردو وأسميته «الرئيس»، لأنني استطعت أن أفكر فيه، أفكر بصوت عالٍ، وإن كان ما أقوله لا علاقة له في الواقع، بما أتخيّله. لكنهم لا يستطيعون أن يعرفوا شيئاً من ذلك. لا أحد، لا أحد في المكتب يستطيع أن يشكّ، ولو من بعيد، في ارتباطي بإدواردو. لا أحد في المكتب، ولا أحد في بيته، ولا إدواردو نفسه، كما يحلو لي أحياناً أن أخمّن، يعرف علاقتنا بوضوح شديد. لا

يهمّني ما يمكن أن تقوله زوجته إن عرفتْ. لكن، نعم، يهمّني ما يمكن أن يفكر فيه إدواردو. فهذا هو سلاحي الأمثل. لكن إدواردو لا يفكر. لا يفكر فيّ على أني عشيقة، وإن كانت تلك خير كلمة تحدّد وضعنا. فلا يلائمني أن يعدّني عشيقة. فإدواردو يخشى الكلمات؛ يخشى الكلمات وزوجته. لذلك تجرّأ لأول مرة في حياته، على أن يخدعها، من دون أن يصل به الأمر إلى القول: «إني أخونها». في نظر جلسائي، لست غير رفيقة دراسة قديمة للرئيس، وذراعه الأيمن. وفي نظر زوجته أيضاً. وأريدهم أن يظلّوا على اعتقادهم هذا؛ زد على ذلك، تعلّمت أن ألعب الدور جيّداً. فإذا ما سُئلت من سيرأس مكتب روما، أهزّ كتفي... إدواردو موجود هناك، وهو سيختار الأفراد. سيشرف بنفسه على العمل في العام الأول. سيأتي خلاله ويعود، وحين يعثر على الشخص الملائم، سيعهد إليه بالإدارة. سيكون إيطالياً بالتأكيد... وطار بي الفكر إلى شقّة في تراستِبيرِه، إلى حياة حرّة من دون دوام، ومن دون عائلة بعيداً عن زوجته آلاف الكيلومترات. بعضهم قال لي إني عازفة عن الطعام، وإني لم أذُق لقمة واحدة تقريباً، وأنّ «المرأة التي لا تستمتعُ بالطعام...» وأنتهز الفرصة، لأتذكّر مكالمة هاتفية عاجلة. مكالمة لها علاقة بالعمل، بالطبع. وأبحث بقدمي عن الحذاء المنسيّ وأضمّ أصابعي على شكل ثمرة أناناس، وأترك المائدة. لكنني لا أتجه صوب الهاتف، وإنما إلى الحمّام. أبلّل وجهي، وأجفّفه بمنشفة ورقية. ولمّا تأهّبت لوضعِ لمسات المكياج، رأيتها مرة أخرى. خلال العشاء، لم أذق طعاماً تقريباً، لكني أسرفت في الشراب. هي لم تلبث غير لحظات أو ثوانٍ. رأيتها بوضوح شديد: رأيت بزّتها الخضراء، وعقدها البنفسجي، ونظرتها الباردة الغامضة. لا أدري ما إنْ كانت هي فتحت الباب وحين رأتني ولّت فراراً. أو أنها كانت هناك لمّا دخلتُ. كل ذلك جرى بسرعة كبيرة. كنت أنشّف وجهي بالمنشفة الورقية، وألهو بشكل آلي بالإمكانات

التي تتيحها مرآة ذات ثلاثة أوجه، وأطمئنّ إلى تسريحة شعري وهيئتي، لمّا مرّتْ ظلّاً أخضر تبخّر في المرآة. أصحّح وضع المرايا وأفتحها وأغلقها وأستطيع أسرها للحظات ولمّا أفقْ من دهشتي. كانت واقفة خلفي. كانت قربي. لست أدري على وجه اليقين. والتفتُّ فوراً؛ لكني لا أحصل إلا على ذهاب الباب وإيابه. «لقد فرّت لمّا رأتني»، فكّرت. ولا أقدر على فعل شيء إلا أن أتذكّر عينيها ونظرتها الباردة الغامضة، لكنني أدركت الآن أنها نظرة حقد أيضاً.

***

دينا داش فتاة مثل سائر الفتيات. أقول ذلك لنفسي في الصباح، وأردّده في المساء. في الليل، أحمل إلى البيت بطاقات جميع العاملات الجدد. وكان مجموعهن خمساً؛ لهن مواصفات متشابهة؛ وهنّ في عمر واحد تقريباً. ويتمتعن بحظوظ متساوية لجهة إمكانية ارتقائهن في المؤسسة، مع أفْضَلية خفيفة لمصلحة دينا داش لأنها تعرف ثلاث لغات بإتقان، وأوراق مؤهّلاتها ممتازة، وأبدت مهارة ملحوظة ساعة ملء استمارة التعيين في المؤسسة. لذلك، كانت أول مرشّحة أختارها. ولذلك أيضاً، أقول لنفسي، كنت أتذكّر اسمها جيداً يوم جريت في الشارع إثر المرأة الخضراء. لئن كان من الصعب أن يُنسى اسم دينا داش، فلربما لأنه لا يشبه اسماً حقيقياً. أفكر في اسم مستعار، باسم فنّي، بـ«دي ن ا داش» معلن عنه بأحرف ضخمة في مسرح منوّعات، أو على غلاف مجلّة... لا أدري في ماذا أفكر. جلبة المستأجرين الدائبة في الطابق العلوي حالت بيني وبين تنظيم أفكاري. غداً، سأحتجّ، سأتصل بالمؤجّر، أو أبدّل الشقّة، وغداً، سأستجوب دينا أيضاً بشكلٍ خفي.

***

قضيت النهار كله وأنا أراقبها، وأرصدها وأضبط مكالماتها الهاتفية، من دون أن يظهر حتى الآن أيّ شيء خاصّ، أي شيء يدعوني إلى الشك في سلوكها حياةً مزدوجة، إلى تفسير ظهورها الغريب في الشارع أولاً، ثم في المطعم ثانياً. دينا تقول إنها لا تخرج ليلاً. تقولها بهدوء كبير من دون أن تدري أنّ سؤالي يتضمّن فخّاً. لا يهمّها أن تظلّ في المكتب وتعمل ساعات إضافية حتّى تنجز عملها. تكاد لا تعرف أحداً من سكان المدينة، وليس لها إخوة ولا أخوات، ولا أبوان. أليس لها أخوات؟ لا! ليس لها أخوات.

طلبت إليها أن تحجز لي هذه الليلة في مطعم، للطرافة أني نسيت اسمه. أدلّها على الشارع، على موقعه الصحيح؛ أشير إلى تفصيلٍ مميّز بأن الجدران مغطّاة كلّها بالموكيت؛ والمغاسل ذات مرايا بثلاثة أوجه. دينا ليس من عادتها أن تتعشّى في المطعم. لكن، خطر لها فجأة أن تستعين بإحدى رفيقاتها. وأدعها تفعل ذلك. وأتنصّت من وراء الباب سرّاً. ما كان يبدو عليها أنها تتصنّع الأمور. ثم أمليت عليها رسالة، رسالتين، ثلاث رسائل. رسائل مرتجلة لن يتلقّاها أحد، وكان الهدف منها الوصول إلى دينا، ومحاصرتها، وصيدها في لحظة شكّ، في زلّة من الزلّات.

وتنبّهتِ الفتاة إلى أن ما أمليه عليها محال. وتنبّهت أيضاً إلى أني أراقبها. وشعرت بالارتباك، فأنزلتْ تنّورتها بصورة غريزية، ورفعت ساقاً عن ساق. فتحتُ النافذة بحجّة أن الغرفة مملوءة بالدخان. كان الطقس بارداً في الخارج برداً حادّاً كالصمت الذي ساد بيني وبين دينا. يصبح وضعي حرجاً. سألتفت وأقول لها أن تنصرف، ويكفيها عملاً هذا اليوم، ولتذهبْ إلى بيتها. لكنني لم أستطع النطق بكلمة. ولأول مرة في حياتي شعرت بالدوار وأنا أنظر من الطابق الخامس. لأن تلك المرأة كانت بإزائي. حتى إذا لم أصدّق عيني، فقد كانت تقف على الناصية المحاذية. أرى البزّة الخضراء، والبقعة البنفسجية، وهيئتها المضطربة وهي تبرز

وسط زحام الشارع. تبدو شحّاذة؛ وتلقي حمالة فستانها على كاهلها. كانت مشعّثة الشعر، منكمشة حتى ليخيّل إليّ أنها ستموت من البرد بين لحظة وأخرى. كانت ترفع ذراعها من دون أن تحرّكه. ومع ذلك، لم يكن وضعها يوحي بأنها تطلب صدقة، هذا إن لم تكن مجنونة أو سكرانة؛ أو أنها ما كانت تشير بيدها إلى أحد غيري، أنا المطلّة من نافذة مكتبي في الطابق الخامس.

«أهناك شيء آخر؟» - يقول صوتٌ متعَب خلفي.

أرجو دينا أن تقترب. أفسح لها مجالاً قربي عند النافذة، وأشير بذراعي إلى حيث يجب أن توجّه بصرها بشكل صحيح. «ها هي ذي المتسوّلة!» -أقول لها- «تلك المتسوّلة!». تقف حافلة أمام المرأة الخضراء. وأنتظر إلى أن تنطلق مرة أخرى. كان جسمها يبدو ويحتجب خلف العربات. «حدّقي جيّداً! هاهي ذي هناك. أو، لا. لم تعد هناك، انتظري...» وأمسكت بها من كتفها دون وعي مني. وتحسّ بالضيق، فتبتعد عن النافذة.

تقول: «لا أرى أيّ شيء على الإطلاق».

تضيق ذرعاً بي، وكانت مثارة. عند خروجها، عملت ما لا تجرؤ أي سكرتيرة أخرى أن تعمله. إذ أغلقت الباب بقوة. صفقتْه صفقاً تقريباً.

لا أستطيع أن أتحدّث إلى أحد عمّا يشغلني. إدواردو ما يزال وزوجته في روما. أعلم أن سفره كان مكافأة ترضيةٍ له؛ كان عملاً لا يفضي إلى نتائج؛ بل هو حيلة ساذجة لتحمّل عبء مشاريع آنية طارئة من دون قلق. لكنني أعلم أنه لا ينبغي لي أن أهتف له. زوجته ستكون معه في الفندق، وفي المكتب وفي كل مكان. ولا أستطيع أن أثق بأحدٍ أيضاً. لأنني أجهل إلى أي مدى يمكنني أن أثق بأحد. في لحظة ما، فكرت بثيسكا أقدم عاملة في المؤسسة. ثيسكا تحبّني وتحترمني، لكنها فضولية، وتدسّ أنفها في

شؤون الآخرين. وهي مضطربة وثرثارة. لكن، إن ظهرت المرأة الخضراء مرة أخرى، ما ضرّني لو دعوت ثيسكا وأفسحت لها مجالاً قرب النافذة؟

«انظري إلى هذه المرأة. منذ أيام وهي تطوف هنا. وتبدو كأنما حدث لها شيء غريب».

وتضع ثيسكا نظّارتها، وتؤكد لي أنها مجرّد متسوّلة من تلك المتسوّلات اللاتي يملأن الشوارع في هذه الأيام؛ لعلها مجنونة أو سكرانة أو عاهرة. الأشياء الثلاثة مرة واحدة. ثم تدقّق النظر فتعترف أنها تذكّرها بأحدٍ ما... لكنها لا تستطيع أن تحدّد من... أو أدعو الحارس ليخرج إلى الشارع، ويجلو حقيقة الأمر. أو ربما، لا أحتاج إلى شيء من هذا. «هي امرأة مضطربة، أو مهرّجة». يمكنني أن أقول لنفسي. «مضطربة أو مهرّجة تظهر في الحيّ أثناء أعياد الميلاد، فيعطيها الناس نقوداً لأنهم يخشونها». لكني لم ألمح أحداً يقف قربها ويناولها نقوداً. الحقيقة هي أني لا أرى شيئاً من أعلى الطابق الخامس، غير حضورها الأخضر، وغير ذراع ممدود نحوي يطلب منّي شيئاً أو يحذّرني من شيء ما. ورأيت دينا أيضاً إلى جانبي مستندة إلى إطار النافذة، بينما أشير باتجاه الشحّاذة. أكرّر ذلك على نفسي مرّاتٍ عدة: الشحّاذة تحتُ، في الشارع، ودينا إلى جانبي؛ تفصيل يبعث على الهدوء ويجعلني أتحدّث عن محض مصادفة، وعن توافق وعن أوجه شبه مشتركة؛ عن استحالة وجود المرأة ذاتها في مكانين مختلفين في آن واحد. لكنني لا أنسى نظرتها أيضاً، وأنا أرفع يدي عن كتفها، وأموت من الضجر، وأصفق الباب بقوّة. الاختلاف في الدرجة، أفكر. لأن نظرة دينا الغاضبة ينقصها شيء يسير جداً حتى تتحوّل إلى نظرة المرأة الخضراء؛ إلى نظرة باردة، محيّرة. نظرة حقد.

***

لكنني لا أستطيع أن ألومها. فأنا أُغرقها في الأيام الأخيرة بالعمل. وأصدر لها أوامر، وأومر مضادة، وأدعوها إلى مكتبي، أو أظهر في مكتبها فجأة، لأتحقّق من أنها ما تزال فيه، متمترسة وراء جبل من الأوراق تصارع حسابات، ووثائق وتقارير. ويطمئن بالي إذْ أعلم أنها مشغولة، وأتثبّت من أنها ستتخلّف كثيراً حتى تنجز عملها اليومي، وقد تكون آخر من يغادر الشغل ليلاً، بينما أقضي وقتي متفكّرة في المرأة ذات الرداء الأخضر. أنتظر ظهور هذه المرأة، وأنا أطلّ من النافذة، وأحمل الهاتف بيدي لأهتف لثيسكا أو الحارس، وليس لدينا. دينا ليست فتاة كالفتيات الأخريات.

علمت ذلك خلال ساعات مهمة وأنا أراقبها. دينا ذات كبرياء وكرامة، والله وحده يعلم إلى أي مدى سأظل ألاحقها من دون أن تهبّ في وجهي. إنما أعلم أنها أخذت تنفر منّي بجدّ. وأعلم أيضاً أن دينا ذات حظوة أكثر مما يبدو في البداية. هي من تلك النساء المتحفّظات الرصينات اللاتي يكسبن بالعمل وبمرور الساعات والأيام. وأحصر دينا إذاً، في مكتبها وأنتظر؛ وعيناي لاصقتان بزجاج النافذة، أنتظر.

لا في اليوم التالي، ولا في يوم آخر تمّ الظهور المرتقب. وعهدتُ إلى دينا بكل ما لا أستطيع القيام به من عمل. حتى النافذة أسمع التكتكة المجنونة الصادرة من الغرفة المجاورة. لكني أصبحت لا أفكر فيها، ولست مهتمة بما يمكن أن يكون رأيها في سلوكي. كل حواسي كانت معلَّقةَ باحتمال ظهور المرأة ذات الرداء الأخضر. وأقول لنفسي، لعلّ هذه المُخبّلةَ استعادت ذاكرتها؛ أو أنها ماتت من البرد؛ أو أن دوريات البلدية التقطتها. أجلس على المقعد وأتأهّب لأهتف لثيسكا. سأقول لها: «لست في صحة جيدة! تولّي شؤون المكتب حتى الغد». لكنني لا أوفّق إلى تركيب الرقم. وشعرت فجأة بالبرد. برد رطب يخترق كتفيّ،

ويجعلني أرتعد، وأدرك أني أحس بنفسي مريضة حقاً، وأنه جنون محض أنْ تُترك النافذة مفتوحة في كانون الأول. هبّة هواء عصفت بكومة أوراقٍ لم أُعِرها أدنى اهتمام منذ أيام؛ وهي، في كل حال، لن تحرفني أيضاً عنْ مَهمّتي. والتفتُّ بسرعة، لأنني أشكّ في أن يكون لذلك البرد المفاجئ غير علاقة واهية بقساوة فصل الشتاء، أو بحالة أعصابي. وكانت المرأة تحتُ، كانت تقف قبالتي على الناصية. كانت تبدو عازمة، مصمّمة، متأهّبة لتقطع الشارع باتجاهي. تحيد عن العربات بمعجزة، رافعة ذراعها صوبي دائماً. سوء حالتها محزنٌ. بقايا بزّتها الخضراء تكشف عن صدرها، وتتحوّل مشيتها فجأة إلى مشيةٍ متأرجحة مضطربة وفظّة. ما الذي يحملني على التفكير في أن هذه الدمية يمكن أن تشبه دينا؟ أحاول أن أتثبّت منها على نحو أفضل، وأنحني فوق إفريز النافذة، وأميّز بقعة خضراء في إحدى قدميها، في قدم واحدة فقط. وفهمت في الحال سرّ عرجها الطارئ. لأنها نسيت النعْلَ الأخرى على حافّة الرصيف. لم يلتقطها أحد، ولم يركلها أحد، ولم يتعثّر بها أحد؛ وأخيراً، لم يُشفق أحد على هذه البائسة التعيسة فيقودها إلى ملجأ. الحياة في المدن لا إنسانية، وقاسية، وخالية من الرحمة... أرتعد من البرد، فأغلق النافذة، وأدقّ رقم ثيسكا. «أنا مُتعبة جداً. تولّي الأمر حتى الغد، من فضلك!». أذهب إلى البيت، وألجأ إلى منوّم. هذه المرة، حتى الجيران في الطابق العلويّ لا يستطيعون أن يمنعوا النوم عني.

***

الطقوس نفسها تتكرّر يوم الثالث والعشرين من كانون الأول من كلّ عام. «أحسُّ بتعبٍ شديد، يا ثيسكا. لن أجيء إلى المكتب غداً». يوم الرابع والعشرين من ذلك الشهر أقوم بالطواف نفسه، والبحث والتجوّل أيضاً

في المحلات التجارية، والمخازن الكبرى حاملةً لائحة كاملة بأسماء الموظّفين جميعاً. هي عادة من عادات المؤسسة. إنه احتفال طفولي حلقته الأولى تبدأ من ثيسكا، من ذعرها المصطنع لمرضي المفترض، من غمزة عينها التي أخمّنها من طرف الهاتف الآخر، تبدأ من عبارة: «ماذا سيكون الأمر هذه المرة؟»، عبارة أكتشفها في كلّ من ألتقيه وأنا أغادر مكتبي، وألبس معطفي وأدع الحارس يفتح لي الباب. يوم السادس والعشرين من الشهر، سيجد كلّ واحد منهم هدية على مكتبه. تفصيل شخصي، نجاح غير متوقّع تقف خلفه مساعيّ الحميدة. لكنهم سيشكرون جميعاً، من دون استثناء، لإدواردو، وكأنهم يعلمون أنه المشغوف الأكبر بلعبة الأطفال هذه، وإن كان الآن، على بُعد آلاف الكيلومترات منهم، ويجهل كعادته أذواقهم وحاجياتهم وميولهم. أتذكّر نظارة ثيسكا المنحرفة دائماً، والجاهزة لتختفي في أي زاوية، وتنتقل إلى أماكن لا يُعقل أن توجد فيها، فأشتري لها سلسلة من الفضّة. يتلوها البوّاب فالحارس، وعاملة التنظيفات، والصبي الذي يحمل الهدايا، فرئيس الأفراد، فالعاملات الجدد... وأدرك فوراً أني أكاد لا أعرف عنهن شيئاً، وإنما كان همّي محصوراً في واحدة منهن. وأفكر في دينا. وأسأل نفسي إن كانت تستحقّ هدية أفضل. تفصيل إضافي لأكفّر عن سوء تصرفاتي معها وعن الملاحقة التي أخضعتها لها، وعن المعاملة الضاغطة الظالمة. لكن، ألا يمكن أن أخطئ بها مرة أخرى؟ أعلم أن أعمال الفتيات الخمس متشابهة جداً. وكلّهن سيتلقَّيْن هدايا متشابهة. أدخل مخازن، ومحلات بيع عطور وأسطوانات. أضع في حقيبتي بطاقات بتوقيع إدواردو، وعليها أسماء العاملين. أفضّل أن أربط بطاقة بكلّ غرض أبتاعه، كي لا يحدث أيُّ لَبْس. وخلال يومين سيكون في وسعهم جميعاً أن يبدوا إعجابهم، ويدهشوا ويشكروا لإدواردو رعايته، وكأنها المرّة الأولى شأنهم كلّ عام.

كان البرد شديداً ذلك المساء من شهر كانون الأول، لكنني كنت أحب دائماً برد أماسي كانون. لئن كان الوقت وقت أعياد، والمحلات مضاءة، وأغاني الميلاد تتعالى والأشجار مزدانة بإفراط، فقد كانت الشوارع غير مزدحمة بالناس. وهكذا كنت أستطيع أن أتمشى وأتأمّل الواجهات بشيء من الهدوء، بشيء من النشاط الحلو الذي لازمني منذ استيقاظي هذا الصباح. أقراص للنوم: هنا يكمن العلاج. نوم مصطنع ردّ إليّ العافية بعد أيام من الاضطراب والتعب. وأخذت الآن أرى الأشياء بطريقة أخرى.

أفرط إدواردو عليّ لمّا عهد إليّ بقيادة العمل لمدة ثلاثة أسابيع. فلستُ مؤهّلة لذلك، ولا أملك الإرادة اللازمة. كانت أعصابي محطّمة؛ ومن يعلم أي حماقة يمكن أن أرتكبها. لكنني سعيدة الآن، وأشعر بالفرح لأول مرة خلال هذه الأيام. وأفاجأ بأني أدندن بأغنية من أغاني الميلاد، تنطلق من مكبّر صوت في أحد المخازن. لاشك في أني جُننت. وشرعت أضحك. حينئذ رأيتها مرة أخرى، وكأنها كابوس يعودني.

لا أشعر بالخوف الآن، ولا أحس بالتعب؛ وإنما بالضجر ضجراً كاملاً. سأتبعها وأنظر إليها من قرب، وأقتنع بأنها مجرد شحّاذة، فأسألها ما إن كانت بحاجة إلى شيء. تترك الآن الجادة المضاءة، وتدخل ممرّاً مظلماً، وأدركها وأنا أجري جرياً تقريباً. ثم أقف، وأحافظ على مسافة معيّنة منها بحذر، وأراقب خطاها. تسير حافية، منزلقةً كالقطّ فوقَ بلاط الشارع. شعرها أسود كالجدجد، وثيابها مرقّعة. لم أنادها باسمها، لأنني أجهله. ثم تقف فجأة وكأنها بانتظاري. وأدركت، رغم العتمة، أننا لسنا في ممرّ وإنما في زاروب من دون منفذ. لكنّ الوقت فاتني كيما أنقلب راجعة.

عجزي عن الركض جعلني أمسك بها من كتفها، وأقول لها: «اسمعي! استمعي إليّ لحظة من فضلك!». واكتشفت بحيرة، قطعة من الحرير الأخضر في قبضة يدي. قطعة من نسيج خشن يتفتّت بين أصابعي. تلتفت إليّ حينئذ، وتبتسم. لم تكن بسمة، وإنما تكشيرة، وزمّة فم رهيبة، خاصة نَفَسٌ ورائحة جعلتني أشعر بالغثيان والدوار والإغماء. ولمّا استعدت وعيي، كنت وحيدة مستندة إلى الجدار، والرزم مبعثرة حولي على الأرض. لم أفاجأ أن ظلّت هكذا مبعثرة. أجمعها واحدة واحدة بحرص وشفقة تقريباً. والآن، صرت أعلم من هي هذه المرأة. وعدت بتفكيري إلى دينا، دينا داش المسكينة، المحتبسة في مكتبها، العائدة إلى منزلها، السائرة في الشارع. لأن دينا، كانت حيثما كانت هذه اللحظات، تجهل أنها ميتة منذ فترة طويلة.

***

أو لعلّني ما أزال أستطيع منع الموت عنها. ونسيت نواهي العقل، هذا العقل الذين تبيّن لي أنه باطل. وأسمع لأول مرة في حياتي، صوتاً ينبع من مكان ما في ذاتي: دينا ميتة، ولمّا تمتْ. ربما كانت المرأة ذات الرداء الأخضر هي دينا الميتة. لقد شهدتُ عمليّة تفسّخ جسدها، وظهورها المستحيل في الشوارع المطروقة، وفي المرايا، وفي الزواريب المسدودة. وأفكر في سرابات شاطئ حارّ. ربما لم يحدث ذلك حتى الآن، لكنه سيحدث.

اتّفق لي نتيجة مخطّطات قدرٍ قاهرة، أن أكون شاهدة على هذه الأحداث المتوالية الغريبة. ولا يبدو لي مخاطرة لو استنتجت أن أحداً غيري، لا يستطيع أن يصنع شيئاً. ولا أحسُّ بالفزع لذلك. هو أمرٌ غريب، بيدَ أني لا أحسُّ بالفزع. أعمل، إذاً، ما أعمله في الرابع والعشرين من

كانون الأول من كلّ عام. أودع هَدَايا العاملين في كشك البوّاب، وأتحقّق من أنني لم أنسَ بطاقة واحدة. وأذكّره بأن يرتّب الأمور بشكل صحيح خلال يومين. قال لي البوّاب، كدأبه دائماً، ألّا أشغل بالي. وودّعني، متجاهلاً أن إحدى الرزم مخصّصة له. وأغلق الكشك وانصرف إلى بيته. أمّا أنا فلم أنصرف، وإنما خرجت إلى الشارع، وسرت بضع خطوات. لكن ضوءاً كان يشعّ من الطابق الخامس. وكنت أعرف من فيه. أعرف من يدقّ على الآلة الطابعة، وينظّم بطاقات ويكمل عمله في هذه الساعات الاستثنائية التي أوجبها جهلي واضطرابي. أفتح بمفتاحي، وأطلب المصعد. أتردّد لحظة لمّا غادرت المصعد في المصطبة الخامسة، غير أني لا أدقّ الجرس. كلّ الأضواء كانت مطفأة ما عدا أضواء مكتب واحد. دخلت خلسةً وبحذر، لأني لا أريد أن أخيفها لأيّ سبب من الأسباب. لذلك أقرع الباب بأناملي وأنتظر.

«أنتِ؟» تسأل دينا. لكنها في الحقيقة كانت تفكّر. «هذه أنتِ. أنت مرّة أخرى؟». كانت قد ارتدت معطفها، وعلى مكتبها، تظهر كومةٌ من الأوراق والرسائل والبطاقات والمحافظ. «كنت منصرفة» تضيفُ. تفتح حقيبتها وتدسّ فيها زوجاً من الرسائل وتغلقها بإحكام. وتقول لمّا رأتني واقفة من دون حراك قرب الباب: «أذكّرك أن الليلة عشيّة عيد الميلاد».

جمعت قواي كلّها ورجوتها أن تنتظر لحظة، وتجلس وتمنحني دقائق من أجل ما سأقوله لها. فأطاعتني من دون رغبة، مطلقةً زفرة ضجر وتعب ونفور. كانت تنقر بأصابعها على بلّور المكتب.

«ينتظرني أحدهم في الطرف الآخر من المدينة. سأكون هناك خلال ربع ساعة. أرجوك أن تختصري!».

لم أشعر بالضيق من ترفّعها. فلا شيء مما تقوله أو تفعله دينا المسكينة

يمكن أن يقف في وجهي. ومع ذلك، لم أجد الكلمات الموائمة. كيف أشرح لها أن عجلتها لا تجديها شيئاً؟ كيف أجعلها تفهم أن الزمن أحياناً، لا يقاس بالحسابات العادية؟ لعلّ كلّ شيء خداع، وأننا نرى الأشياء كما تعلمْنا أن نراها... لنأخذ مكتبها مثلاً: «أنستطيع التحقّق من أنه مكتب له أربع قوائم ولوح منضود فوقها؟ من يستطيع التثبّت أنها ستكون خلال ربع ساعة في الطرف الآخر من المدينة؟ خمس عشرة دقيقة، هَلْ هي غير اصطلاح متّفق عليه؟ أو شكل من القياس والتبويب وإخضاع ما يهرب منا والسيطرة على ما لا نفهمه. هو حيلة لطمأنتنا، كي لا نطرح على أنفسنا مزيداً من الأسئلة».

قاطعتني بسأمٍ واضح:

- «سأشكر لك لو كنتِ أكثر تحديداً، من فضلك!».

لكنني لا أستطيع. أقول لها إني رأيتها منذ قليل في الشارع. «مرّة أخرى؟» والآن تواجهني بنصف ابتسامة ساخرة. «ألستِ مصابة بوسواسٍ حقيقي؟». بين لحظةٍ وأخرى، ستنفجر وترغمني على مغادرة المكتب، وتهدّدني بأنها ستستدعي الشرطة.

لذلك يجب عليّ أن أعجّل. نعم، رأيتها اليوم، وأمس واليوم الآخر في المطعم، والمرة الأولى في شارع مزدحم. حسبت في البدء، أنها تضمر لي شيئاً، أو تلاحقني وتتحرّى عنّي... ثم، لم تكن هي وإنما واحدة أخرى تشبهها شبهاً عجيباً.

«وأخيراً؟».

دينا تنظر إليّ وهي على شفا نفاد الصبر. وألحّ عليها أن تنتظر لحظات. خلعت قفّازي ثم أعدته إلى يدي. وتعوزني الكلمات مرة أخرى. لا أدري كيف أحذّرها. لا أدري كيف أقول لها إن العملية محسومة. وإنني رأيت

منذ نصف ساعة تقريباً، تكشيرة الموت على فمها الخالي من الشفتين. رأيتها في عفنها، ولحمها المتفسّخ. ووُفِّقت في أن أتلعثم:

«كوني على حذر شديد! ما زال بإمكاننا تجنّبه، أو تأخيره في أحسن الأحوال».

انتصبت دينا على قدميها:

«آسفة! كل ما تقصّينه عليّ هامّ جداً. لكن، يجب عليّ أن أنصرف الآن. ربما ليس لديك مشاريع هذه الليلة. أمّا أنا، فنعم».

دينا تكرهني. تبغضني، تعدّني مجنونة. لا أستطيع فعل شيء إلا أن أترك الأمور تجري في مسارها. أنهض أيضاً مقتنعة بلا جدوى أيّ شرح، أيّ تحذير. أحسُّ بالصغار والتفاهة، والغطرسة والكبرياء في آن واحد. أحببت أن أغيّر صفحات القدر، لكنّ قدر هذه الفتاة البائسة كان قد قُرّر.

«هل لي أن أعلم، لماذا تنظرين إليّ هذه النظرة؟».

دينا تحسّ بالإهانة، وتقف إزائي وتعلّق حقيبتها في كتفها، وتُسمع خشخشة مفاتيح المكتب في يدها. لعلني أكون مخطئة. لكنّ معطف الجوخ ينفرج لمدة ثوانٍ لمّا علّقت الحقيبة بحركة عنيفة، فرأيت ما لا أرغب في رؤيته أبداً.

«أنت تلبسين بزّةً خضراء! بزّة خضراء حريرية!».

عينا دينا داش تطلقان شرراً.

«أحذّرك بأن مركزك في العمل، لا يعطيك الحق...».

لا أدري ما أقول. كان في صوتها، في لهجتها شيء لا يرضى بأيّ ردّ.

«كفّي عن مراقبتي، عن مطاردتي كلّ الساعات! كفّي عن تعذيبي بحضورك... لا تظنّي أني لم أنتبه إلى ما تفعلينه».

وتتكلّم الآن متعثّرة، متلعثمة.

«إن كنت تبغين شيئاً من ورائي، فلن تحصلي عليه. وإذا كانت ثيابي تهمّك، فها هي دونك، بزّة حريرية خضراء ابتعتها حديثاً. آمل أن ترضيك!».

خلعت دينا المعطف غاضبة. ها هي ذي الآن المرأة ذاتها التي ألتقي بها دائماً في الأيام الأخيرة. لا ينقصها سوى تفصيل بسيط. تفصيل صغير لا شك في أنه قائم في مكان ما.

أتخيّلها في المصعد تلبس العقد أمام المرآة، أو في سيارة أجرة، أو في حمّام مكتب.

أقول لها: «الحقيبة! دعيني أرَ الحقيبة!».

والآن أراها لأول مرة خائفة. أحاول المستحيل لأقنعها بألا تخرج بهذه الثياب إلى الشارع؛ وبأن كلّ ما أقوم به لمصلحتها. لكن الكلمات لا تنفع. وأعلم الآن أكثر من أي وقت آخر أنها لا تنفع. أجهل ما إن كنت أصبت بالجنون، أم أخضع لصوت القدر. لأني أرجّها رجّاً وهي تقاوم متشبّثة بحقيبتها، محاولة العثور على سكين... هي خائفة ولا تقبل حججاً. وإذ لا أجد وسيلة أخرى، عزمت على شلّ حركتها، فأكشف لها الحقيقة الرهيبة قائلة وأنا أئن: «أنت ميّتة. ما زلت على جهلك؟ أنت ميتة». لكن دينا أصبحت لا تبدي مقاومة، بل تنظر إليّ بعينين شخصتا من الرعب، وينزلق جسمها قرب جسمي حتى سقطت أرضاً، هامدة مذعورة.

ليس لديّ وقت أضيعه، فأنزع حقيبتها، وأبحث عن حقّ، عن رزمة، عن العقد الذي من دونه قد لا يحدث شيء مما هو متوقّع. فلا أعثر إلا على أوراق، أوراق لا تهمّني في شيء، فأضرب عنها صفحاً، وألقي بها بعيداً عني. أوراق سأعرف، مع ذلك، محتواها الحقيقي بعد يومين، كما سيعرفه كلّ العاملين.

حينئذ ستهزّ ثيسكا رأسها بحزن. سأسمع همساتٍ ووقع خطا، وسأشعر بالبرد؛ فاتورة كهرباء، ودفتر مذكّرات، ورسالة. «عزيزي إدواردو!». كلمات أتذكّرها جيداً، لأنها كلمات دينا. «لا تكفّ عن مراقبتي وملاحقتي كل الوقت. وتعذّبني بحضورها». وكلمات أُخَر أعرفها خير معرفة لأنها كلماتي، وإن كانت الرسالة تحمل توقيع دينا؛ ولم أجرؤ على صياغتها كتابة أبداً. «أحلم بتراستبيره، بشقّتنا في تراستبيره. بالأيام اللازمة كيما نلتقي في روما». ذكريات لا أتذكّرها. «لن أنسى أبداً ليلتنا الأولى في فندق قبالة البحر». جمل غير معقولة، مضحكة، وفظّة. وعود بالحب تختلط بضوضاء الخطا والمفاتيح؛ وأبواب تُفتح وتُغلق؛ بضوضاء الجيران في الطابق العلوي، وهم يجرّون قطع الأثاث، وصوت رجل ذي حذاء أبيض يقول لي: «أنت سكرانة. اصحَيْ!». خاصة ثيسكا، نظرة ثيسكا الحانية.

لكن هذا لن يحدث إلا بعد يومين. أركع الآن على ركبتي عازمة على تجنّب المحتوم، وأمسك بالحقيبة الفارغة، وتحيط بي الأوراق التي لا أجد أي رغبة في قراءتها، وأنحّيها بقبضة يدي غاضبة. أتذكر: «خلال ربع ساعة، سأكون في الطرف الآخر من المدينة». وأفقتُ حينئذ. وأجدني كأنني في حفلة، في اجتماع يقام الساعة الثانية عشرة ليلاً نتبادل فيه الهدايا. لكن دينا لن تتمكن من قبول الهدية المشؤومة. فقد تمكّنت من إخافتها وتحذيرها. «منعته عنها»، أقول. وأنظر إلى يديّ داخل القفّازين. كانتا ما تزالان ترتعدان، تمتلكان قوة ما كنت أحسب أنها موجودة لدي. ثم أنظر إلى دينا الراقدة على الأرض، وعيناها قد خرجتا من محجريهما بسبب الرعب أو بسبب ما ظنّته جنوناً ولا ريب. لكن دينا ساكنة من دون حراك تلبس بزة خضراء وحذاء أخضر. وألمح الآن وأنا أنهض ببطء، حلقة صفراء حول عنقها؛ وأدرك بوضوح أنها لا ينقصها شيء.

«ما يزال الوقت باكراً»، أقول بصوتٍ عالٍ، وإن لم يكن بمستطاع أحد أن يسمعني...

«لكنه غداً، أو بعد غدٍ، سيكون عقداً بنفسجياً».

***

المكان

لم تمضِ ثلاث ساعات على زفافنا، حتى كنت أعدّ في المطبخ مزيجاً خمرياً من اختراعي. أخذ الظلام ينتشر؛ وكان المدعوّون القلائل قد انفضّوا منذ قليل. وكانوا في معظمهم من رفاق الدراسة في الجامعة. جرت الحفلة في بساطة ما بعدها بساطة. (وكنت أفكّر: يسرّني أن تكون بسيطة للغاية). تكفّل قاضٍ صديق، وهو أحد أساتذتنا القدامى، بأمر عقد قراننا. وقام بذلك على عجل، من دون إطالة ولفّ، محتفظاً بالخطبة المؤثرة للحظة الوداع. «محظوظ»، قال حينئذ، «لأنك ستكون بصحبة كلاريسا. زوجتك ستبلغ مكانة رفيعة في الحياة». كان يبدو عليه السُّكْر. أقول ذلك، من رنّة صوته ومن الترنّح الذي كان يجهد في أن يخفيه، وليس من كلماته ذاتها، لأني كنت أول من يشاطره هذا الرأي. كنا نجد عندها خليطاً عجيباً من العذوبة والصلابة، من اللطف والقوة. كانت «كوكتيلاً» متفجّراً، لكنه منزوع الفتيل. وكان هذا موضع تقديرنا جميعاً. نعم، قد تنال كلاريسا في عملها وفي حياتها كل ما تطمح إليه. لكنني لا أفكر الآن في ذلك، وإنما في حفلة الزفاف. «حفلة قصيرة، رزينة على طريقتنا الخاصة جداً». وبدا لي فجأة أني أسمع آهة، أو نحيباً أو شيئاً يشبه شبهاً غريباً غطيط هرّ. وخرجت قاصداً غرفة المعيشة، وعلى وجهي شيء من الدهشة حاملاً كأساً في كلّ يدٍ.

لم أجد أحداً سوى كلاريسا. كانت ما تزال بثوب العرس -ثوب ذي لون بنفسجي، لونها المفضّل، ومجعّد قليلاً وملطّخ ببقع صغيرة من الخمر- كانت قد خلعت حذاءها، وجلست على مقعد لونه يشبه لون ثوبها. استندتُ إلى الجدار في صمت، محاولاً إخماد دندنة قطع الجليد في الكأسين. لم أرها من قبل على هذا الوضع أبداً، مطبقةً عينيها قليلاً، مطلقة تلك الوشوشة التي تشي بالسرور. ما كان يُعلم أين ينتهي الثوب ومن أين يبدأ المقعد. الأمر ذاته يمكننا قوله بثقة عن شعرها وجسمها وقدميها الحافيتين. كان لديّ إحساس بأنها اندغمت في محيطها، وأن ذلك المشهد سيبقى ردحاً طويلاً من الزمن في ذاكرتي: مشهدها وهي تلبس الثوب ذاته، ثوب بنفسجي مجعّد قليلاً، وملوّث ببقع صغيرة، وألمح فيه الآن شقّاً صغيراً، وتجلس بانشراح غريب على مقعد كان يبدو أنه يشكّل جزءاً منها ذاتها؛ وأنا أقف لصق الجدار حاملاً كأسين في يديّ محاذراً أن أحطّم تلك اللحظة من السحر. لكن كلاريسا قد كانت فتحت عينيها، ونظرت إليّ بذلك المزيج العجيب من القوّة والحنان. «هذا بيتي»، قالت. «وهنا مقعدي». ما كان بمستطاعي حينئذ، أن أتخيّل المدى الحقيقي لكلماتها. ومع ذلك، أخذ شيء ما، بعد أيام قليلة، يتجلّى لي غريباً ومبالغاً فيه؛ فقد أظهرت أنها ربّة بيت نموذجية. كانت تتحدّث بشغف عن الطبخ، والكوي والتنظيف، والستائر والبسط وترتيب الأثاث، وهو الشيء الوحيد الذي كانت تقوم به عملياً. ولن أنفي أن ذلك بعث فيّ شيئاً من الحبور في البدء. كان انكبابها غير المنتظر على الأشغال المنزلية يبدو تامّاً وشاملاً لا هوادة فيه. وفكرت في لحظة من اللحظات، تهدئة لخواطري، أن الأمر يتعلّق بموقف عابر، وأن هذا يحدث لا محالة، لكثيرٍ من المتزوجات حديثاً؛ وأنها ستعود بعد أسبوع أو أسبوعين على أقصى حدّ، للاهتمام بالعالم، وبدراستها، وبعملي. لكن، ما كان لي أن أنتظر طويلاً حتى تلاشت آمالي:

«سأترك الجامعة!»، قالت بفرح ذات يوم من هذه الأيام. حينئذ، وجدت نفسي أنظر، من دون أن أعرف السبب جيداً، صوب المقعد البنفسجي الذي كان شاغراً. وبدا لي أن سرّ كل ذلك السلوك المحال يكمن تحديداً هناك. يعود إلى عشيّة زواجنا نفسها؛ إلى اللحظة التي فاجأتها فيها جالسة بشكل غريب وقد ذابت في محيطها، وعليها سيماء من كُشف عنه الحجاب واهتدى إلى الطريق القويم للتوّ. وها أنا أجد الآن، والآن فقط، الكلمات الملائمة. ربما تكفّل الزمن بإثبات شكوكي. لأن كلاريسا كانت تبدو كمن اعتنق ديناً جديداً بقواعد للحياة يتشبّث بها الصابئون إلى الدين الجديد بقوّة. قواعد أخذت تتكشف لي شيئاً فشيئاً كلّما تحوّل زواجنا إلى زواج تقليدي، متين مثالي توزّع فيه الأعباء توزيعاً دقيقاً. أمّا مشاريعنا القديمة: تقاسم المشاكل، والعمل معاً، وأخيراً تشغيل «بوفيه» والدي القديم، فقد تبخّرت في منتهى البساطة، واحداً بعد الآخر، ويوماً بعد يوم من دون أن تترك أثراً وكأنها لم توجد قطّ. لم ننجب أبناء. وكانت كلاريسا تصرّ على أننا سعداء بوضعنا هذا، لأن قدوم وافد جديد (ضعيف، بكّاء، محتاج إلى رعاية) لن يقود إلا إلى الكارثة بدلاً من أن يعزّز الوحدة بيننا. «قد نصبح مثل سائر الأزواج»، كانت تؤكد. «وما ضرورة دخيل في حياتنا؟» من الممكن أن تكون على حقّ. لكن هذا التفصيل الصغير ما كان يتطابق، كما يبدو، والفكرة التي كوّنها عن زواجنا كثير من الخلق. لئن لم يزعج أحد نفسه أن يبلغني ذلك صراحة، فقد أدركت سريعاً أن قرارنا تلقّاه هؤلاء على أنه عجزٌ، ونقص وبؤس. ما زلت أذكر الإلحاح المغيظ من بعض زميلاتها القديمات حين يجمعني بهنّ في أوقات معيّنة، مجلس أو اجتماع عمل. الطريف أنهن، مهما تكن مشاغلهن ومهما يكنّ حريصات على واجباتهن أو على الوقت، فكنّ يجدْن دائماً ما يقلنه حولها، ويبدين اهتماماً مباغتاً بمعرفة وضعها؛ ثم يشيع فيهن جوّ من الاكتفاء وشيء من التعاطف حينما

يعلمن أن امرأتي مسرورة بمكوثها في البيت، وأننا لا نفكر الآن في إمكانية إنجاب أطفال. ما كنّ يصدّقن ذلك. وما كنّ يرغبن في تصديقه. لكن هذا المزيج من الازدراء لها (كيف يمكن لطالبة واعدة جداً، أن تتحوّل إلى ربّة بيت بسيطة؟)، وهذه اللمسة من الأسى التي تنعكس في عيونهن غالباً (لعدم قدرتها، كما يزعمن، على إنجاب ذريّة لي)، كانا يتناقضان بشكل صارخ، والقهقهة الصريحة التي كانت تتلقّى بها زوجتي نبأ تعليقاتهن. «يا للمسكينات!» -كانت تقول- «في أحسن حال، هنّ لم يعثرْن بعدُ على مكانهن». في تلك الأثناء، كنت فهمتُ كلّ شيء. «المكان» في نظر كلاريسا، شيء يشبه طلسماً أو تميمة. كان الكلمة السحرية التي يتجسد فيها سرّ السعادة في العالم. أحياناً، كانت مرادفاً لـ«الموضع». وأحياناً أخرى، لم تكن كذلك. كانت تلجأ غالباً إلى سلسلة من الجمل الجاهزة، تبدو حين تنطق بها محمّلة بالمعنى، وحاسمة ومبينة: العثور على المكان؛ أن يكون المرء في مكانه؛ وضع الشيء في مكانه؛ خروج المرء من مكانه... لم يكن صوتها يتحلّى بالبراءة. بعيداً عن المكان، بمعنى الفضاء، أو بأي معنى آخر، تقوم الهاوية والرمال المتحركّة والتذبذب والاضطراب. وكيف لا يسير على غير هدىً من لا يجد نفسه ثابتاً في مكانه؟ لكن كلاريسا لم تكن تعاني أدنى إشكال من هذه الجهة. مكانها كان يقتصر عليّ وعلى البيت. كانت زوجي سعيدة. والثابت أني تعلّمت أيضاً أن أكون سعيداً لمّا تغلّبت على ظنوني وتخلّيت عن مشاريعي التي قد لا يحالفها النجاح.

ومع ذلك، حين أتذكر تلك الأعوام، وذلك العيش الرخيّ المفرح، لا أستطيع إلا أنْ أعود إلى يوم مشؤوم، إلى يومٍ واحد فقط هدّد سعادتنا فجأة بالانهيار. كان صباح يوم خريفي شامس بارد على وجه خاص. يوم شبيه جداً بأيام أخرى، تعيّن عليّ الانتقال فيه إلى محلّة قريبة. فعرضتْ عليّ كلاريسا أن ترافقني، كما تصنع في مناسبات أُخَر، فنستغلّ الرحلة للنزهة

وشراء بعض الحوائج؛ وحين أنجز أعمالي، نتناول الغداء في مطعم جيّد قرب البحر. لكننا، لمّا غادرنا المدينة وسلكنا الطريق العام، التفتُّ جهة اليمين، ونظرت إلى تلّ.

سألتني: «إلامَ تنظر؟».

وأجبت: «إلى المقبرة. في يوم صاحٍ كهذا اليوم، تُمكن أحياناً رؤية مدفن العائلة».

ودقّ منبّه سيارة ورائي، وأدركت أنني انحرفت بتهوّر عن الإسفلت. ولمّا استعدت السيطرة على المقود، تجرأت على القول: «كنّا على وشك أن نموت، من دون أن نحسب لذلك حساباً».

في أكثر من مناسبة في حياتي، فوجئت وأنا أفكر في أنه كان من الخير لنا، لو متنا ذلك اليوم على الطريق، لو متنا معاً، لو متنا كلانا في وقت واحد.

ما كنا نتحدّث عن عائلتينا أبداً. وما كنا نرى داعياً لذلك. وما كنا نحس بضرورة له؛ أو ببساطة ما كنا نرغب فيه. ومع ذلك، كان لا مفرّ لي من أن أذكر بين فينة وأخرى اسم العمّة ريكاردا. كان ذلك بالتأكيد، يوم كنا نخطّط للقيام برحلة إلى كوبا. رحلة لم تتمّ أبداً. وربما قبل الوقت أو بعده، فلا أستطيع تحديده بدقة. أو لعلّي أثرت ذكرى أمي بصورة عابرة، أمي الغارقة في حزنها، المتحفّظة جداً، والصامتة دائماً، كلّما رأيت امرأة صامتة مكبّة على شغلها، مداعبة كبب الصوف، أو ناظرة إلى اللانهاية ببسمةٍ ضعيفة، في قرية من تلك القرى العديدة التي كنا نتردّد عليها كثيراً. أمّا ما لا شكّ فيه أبداً، فهو مبادرتي في أكثر من مناسبة إلى تعبير: «يبدو واحداً من آل رويغ ميرو». ويُخيَّل إليّ أني ما زلت أرى كلاريسا باسمة، موافقة بهزّة من رأسها. لئن كان هذا الاسم نسبة عائلتي، ونسبتها أيضاً مُذْ أصبحت زوجتي، فلا يمكنها أن تجهل أني أشير بذلك إلى والدي، أو بالحَرا إلى

ذلك الطبع الأُسطوري الرديء الذي يُعزى جيلاً بعد جيل إلى عائلة أبي. هذا كلّ ما في الأمر، أو هكذا كان حتى ذلك الصباح.

اختُتمتْ أعمال الاجتماع أبكر مما توقّعناه كثيراً. لكننا لم نتناول غداءنا قرب البحر. وإنما قمنا بذلك في طريق العودة، في مطعم من تلك المطاعم القديمة على حافّة الطريق، لا أستطيع أن أتذكّر ما إن كان اختيارنا ذلك المطعم عائداً إلى تراكم السحاب في ذلك اليوم، أو أنه خطر لأحدنا زيارة المقبرة منتفعاً بالساعات الأخيرة من النهار. أفترض أن الزيارة تمت بمبادرة مني. ولا أرى الآن مهما أبذل من جهد، أي مصلحة لزوجتي في التعرّف إلى مكانٍ جدّ كئيب. لكن صدى الكلمات الذي يتردّد في ذاكرتي ما يزال يثير فيّ قلقاً عميقاً. نعم، أستمع إلى نفسي وأنا في المطعم الذي لا يحمل اسماً وتناولنا فيه الطعام على عجل، قاصّاً عليها أمجاد عائلتي القديمة، مستذكراً آبائي وأجدادي وأقاربي البعيدين؛ وقد أعددتها في نهاية الأمر، لتتعرّف إلى المدفن، إلى هذا الأثر الذي يعود إلى أكثر من قرن؛ أثر مفرط بالزينة، وجليل، ومبنيّ بذوق أغنياء المهجر أجدادي.

أسمع نفسي أيضاً مستعيداً، وأنا أصعد الهضبة، حكاياتٍ منسيّة بدت لي بغتةً طريفة، فاتنة، مضحكة بشكل لذيذ. شرعت أحدّثها عن العمّة ريكاردا، الأخت الكبرى لجدّي، كانت تصغي إليّ بانتباه، تصغي باهتمامٍ لا مفرّ من أن تثيره قصّة مغامرات عمّة والدي. وهو الانتباه ذاته الذي أبديتُهُ لمّا سمعتُ قصّتها أول مرة، صغيراً. لأن العمة ريكاردا كانت امرأة غير عادية. كانت طاغية، متكبّرة ذاتَ جمال عجيب. امرأة استطاعت أن تتزوّج أربع مرات، وترمّلت مثلها. وبين وصاياها التي ستكون موضع حديث لفترة طويلة، واحدة لم نلبث أن عانينا آثارها. حينئذٍ، أشرت إلى أعلى التل بحركة فيها شيء من الغموض.

قلت: «استمعي!».

وهنا بدأ، لتعاستي، كلّ شيء.

***

توفّيت ريكاردا عام 1890 في عمرٍ متقدّم. وَرَثتُها لم يجدوا مناصاً من أن يستجيبوا لإرادتها الأخيرة، ولنزواتها الفظّة، إن رغبوا في الحصول على ثروتها الطائلة. لأن الثروات التي تراكمت لديها من أزواجها الأربعة، وهي لم تكن هيّنةً، كانت تبدو ضئيلة إذا قورنت بثرواتها الخاصة، بما حصلت عليه خلال حياتها، ولم تكشفْ عنه لأحدٍ باستثناء ضميرها، ربما. لكن، أكان للعمّة ريكاردا ضمير؟ لم يلبث الورثة أن استنتجوا أنها لم تملك ذرّة منه؛ وتشكّوا من أنهم أصمّوا السمع عن الأسطورة التي تغلّف حياتها. لأن ريكاردا التي لم يكن عنادها وجمالها أو قدرتها على القيادة موضع شكّ، ذاتُ بوادر متطرّفة لم يعيروها الاهتمام الواجب، لأن المصلحة أعمت بصائرهم. فإذا كانت عمّتي قاسية خلال ثمانين عاماً قضتها على وجه الدنيا، فمن العدل الشكُّ في أنها ستتبدّل في اللحظة الأخيرة لمّا صارت على شفا مغادرتها.

نظرت إليّ كلاريسا بمؤخّر طرفها، وعزمتُ على تأخير الكشف النهائي.

تابعت: «عمّة والدي كانت امرأة خارجة عما هو مألوف. هذا يبدو مؤكّداً».

لقد أخذت على عاتقها لمدة عشرين عاماً تقريباً، أمر استثمار منشأة سكّر في كوبا وَرِثَتْها من أبيها، وانتشلتها بعزمها وحيويّتها ومواهب قيادتها، من حالة إهمالٍ حقيقيّ، وحوّلتها إلى صناعة مزدهرة. كان يسرّني كثيراً أن أتخيّل صورة ريكاردا وقد عبثتِ الريح بشعرها وهي تجوب ممتلكاتها على ظهر الحصان، فتثير الإعجاب بها بوصفها امرأة، وتُطاع

وتُحَبّ، ويُخشى بأسها كأنها رجل. لأنها كانت تمتلك إضافة إلى قواها الأخرى، قوّة رسغ لاستخدام السوط، ومتانة ذراع لتسديد الضربة لا يُستهان بهما. وعلى زعم أمي (أو ربما زعم أمها)، ظلَّ العمال المحلّيّون القدامى، أو أبناء العمال، يعتقدون لفترة طويلة بعد رجوعها إلى أوروبا مرهقة، ثرية، وبعد أن صارت منشأة السكر مجرّد ذكرى، أنهم يسمعون في الليالي العاصفة، وقع سنابك حصانها وفرقعة سوطها المخيفة. وكانوا، حينئذ، يحتبسون داخل بيوتهم إلى أن يُبلغهم أحدثهم سنّاً، وأقلهم إيماناً، أو ربما أكثرهم تطيّراً، أن ذلك الصوت هو صوت الريح، وأن ليس لديهم ما يخشونه. ريكاردا أصبحت غير موجودة هنا، فلعلّها توفّيت. وإنما هو الهواء، وحده، الهواء الذي تخضع حسابات الأنواء عنده لقوانين غير مفهومة، فكان يلهو من حين إلى آخر بإشاعة وشوشاتٍ وأصوات حدثت منذ زمن لا يعلمه غير الله، ولا ينبغي للمرء أن يعيرها غير الاهتمام الذي تستحقّه. إنها هبّات ريح، ونفحات هواء.

وأضفت فوراً، وقد سرّني اهتمام كلاريسا المتنامي: «هذا كلّه كان مجرّد أساطير».

لكن المؤكد أن ثروة ريكاردا التي بنَتها على أساسٍ من العَسف وقوّة السوط، لم تكن أسطورة، وإنما حقيقة ملموسة كان يحلم بها من قد يُعيّنون ورثة لها. لهذا السبب، لم يهتمّوا الاهتمام الكافي عند قراءة الوصيّة، بنزوة المتوفّاة الأخيرة. لم يهتمّوا بشرطٍ غريب يجب عليهم الوفاءُ به وتنفيذه فوراً، إن رغبوا في ألا يُحرموا من كل حقّ في الوصية. وكانت المُتوفّاة قد وضعت شرطها بشكل واضح قاطع.

مدفن العائلة الذي سنراه بإعجاب عما قليل، كان يهيمن عليه أربعة تماثيل لملائكة، ارتفاع الواحد منها متران تقريباً، وذوات وجوه هادئة

بسيطة. إذاً، عمتي ريكاردا أحبّت أن تصبح ملاكاً، أو كما استنتج أقاربُها القلقون، كفّت عن أن تكون شيطاناً. الطريف أن الرسم أو اللوحة الزيتية التي حدّدتها الموصية ليستلهمها النّحات في نسخ ملامحها وحفرها بدلاً من تلك الوجوه السماوية، لم تكن تُبرز وجهها في ريعان شبابها وإنما في كهولتها. لئن لم يكن أحد يجهل أنّ هذه إضافة ستسيء إلى انسجام المجموع بصورة لا تُغتفر، فإن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يصحّح رغبات الموصية. وبعد كل شيء، ألا يبدو منطقياً أن تتذكر امرأة في الثمانين الفترات القريبة منها على أنها أجمل سني حياتها، أكثر مما تتذكّر عشرينيات عمرها أو أربعينياته؟ ريكاردا امرأة السوط التي أثار وجودها الرعب في هذا العالم، كانت تتحوّل إذاً، إلى ملاكٍ متجهّم قويّ، لمّا انتقلت إلى العالم الآخر. ملك من ملائكة الشر، كما سيقرّر عاجلاً كثير من المنتفعين بالوصية، لأنهم، بعد أن انقضت لحظات الانفعال الأولى، وحانت ساعة توزيع الثروات، وجدوا أنفسهم أمام مفاجأةٍ كريهة قضت بأن يُوزّع الإرث الكبير بطريقة تجعل كل واحد من الورثة الكثيرين يرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً. وأدركوا حينئذ، السبب الذي كان يجعل المتوفّاة تقضي سني حياتها الأخيرة، في طلب مشورة كتّابٍ بالعدل، أو محامين ومستشارين. وكانت ريكاردا بدّدت جانباً من ثروتها في رسم ذلك اللغز الذي لا يستطيع أحدٌ بموجبه أن يتمتّع بالإرث تمتّعاً كاملاً.

قالت كلاريسا: «يا لها من قصة!».

بيد أنني لا أستطيع أن أقلّد رنّة صوتها، ولا المغامرة بالزعم ما إن قالت «يا لها من قصة!» لتقول شيئاً، أم أنها كانت تعبيراً عن الدهشة والسأم أو الاهتمام. الحقيقة، أني شعرت ذلك المساء بأني مُكرهٌ على تذكُّر حكاياتٍ عن العائلة، فلم أتنبّه تقريباً إلى حالة زوجتي المعنوية. كنا وصلنا إلى أعلى

التلّ. ترجّلنا من السيارة، وعبرنا باب المقبرة، والتقطتُ جملتها الأخيرة بغرض متابعة الكلام فحسب. أو هكذا خُيِّل إليّ.

«قصّة؟ كلّ هذه المدافن لا بدّ من أن تكون منطوية على قصص مشابهة. فضلاً عن زعم ريكاردا بأن تتحوّل إلى ملاك، فقد ظلت مشاكل الإرث لازمة ثابتة وسط العائلة».

هنا كان بمستطاعي أن أسكت، أو أكتفي بالنزهة وتأمّل قبور وحفر ومدافن أخرى، حتى نصل إلى مدفننا؛ أو أتابع حديثي عن جمال عمّة والدي وخبثها. لكنني لم أفعل شيئاً من ذلك. فكنت أفترض أن كلاريسا مطّلعة على بعض الحكايات التي سأقصّها عليها تباعاً. حتى هذا التفصيل لم يوقفني، فتابعت.

إذ لا ينبغي لنا أن ننسى أن ريكاردا، مثلها مثل جدّي وأبي كانت من عائلة «رويغ-ميرو». وظلَّ هذا اللقبُ يعني لفترة طويلة جداً، جشعاً، وعجرفة، وطبعاً غضوباً، ورغبة في إثارة السأم لدى الآخرين. ولعلّ أبي الغاضب المتهوّر، مثله مثل كل أفراد العائلة، أراد، بسبب ذلك، لمّا بلغ الحلم أن يتخلّص من هذا العبء، أن يشطب هذه (-) الوصلة بين الكنيتين، ويحوّلها إلى رويغ فقط. لسخرية الحياة، لم ينتفع بذلك شيئاً. وهنا أخذت أضحك. لأن زوجته، أي أمي، كانت تُدعى كاسيلدا ميرورويغ. وعادت الكنية المشؤومة لتلتقي في شخصي. وزاد الأمر سوءاً -تابعتُ شارحاً- (وإن كانت كلاريسا على اطّلاع واسع)، أن القضية فيها من المصادفة بقدر ما فيها من القضاء المحتوم. نسبة ميرو التي تحملها أمي، ونسبة ميرو التي تخلّص منها زوجها تنحدران من فرع مشترك. آل ميرو ميرو كانوا ناساً بسطاء طيّبين، نُقل رفاتهم من حفرهم المتواضعة، ووُضع بكل تكريم في مدفن العائلة الجليل الذي أقيم بمال أمريكا.

قالت: «هذا مؤثّر جداً!».

لم أمعن التفكير فيما إذا كان مسعى أغنياء المهجر أيقظ انتباهها، أم كميّة الأسماء المُكرهة على التعايش بعد الموت، أم المدفن ذاته الذي بلغناه للتوّ، وحيث العمة ريكاردا الملاك الفاسد لم تكن النقطةَ السوداءَ الوحيدة أو الخالية من المعنى، كما كنت أحسب. ما كنا نتأمله، كان أشبه بتمجيدٍ للبذخ والفخفخة والذوق الرديء. طفت في الزوايا الأربع المكرّسة لرموز العالم الآخر الأربعة(*)، والتي يقوم عليها أربعة ملائكة. وتوقفتُ عند واحدة منها حيث يُقرأ فيها: «الجحيم!». فوق رأسي، كان وجه العمة ريكاردا يسدّد لي نظرةً جامدة باردة.

رددتُ: «نعم، هو مؤثّر حقاً!».

ووقع في خاطري حينئذ، أنها المرة الوحيدة التي أتأمل فيها هذا الصرح بعينين باردتين خاليتين من الانفعال. لأن حالتي ومشاغلي في المناسبتين الوحيدتين اللتين زرت فيهما هذا المكان، كانت في وضع آخر. أول مرة قصدته، كنت في السابعة من عمري، تقودني أمي من يدي. وشهدت تأوّهاتِها الصمّ، ونحيبها الذي لم أكن أفهمه، بينما كنت أتأمل مفتوناً عمل رجلين قويّين، وذهاب النعش وإيابه، والصمت الذي جلّل الموكب الصغير لمّا أُطبِقَ لوح الحجر، وألقى بنّاءٌ بآخر غَرْفة من أسمنت ونطق أحدهم: «انتهى!». كلمة سترافق أحلام طفولتي ردحاً طويلاً من الزمن، وتُبعث اليوم بكلّ طاقتها. أو لعلّه الصمت. الصمت الذي كنت أستنشقه ذلك المساء في المقبرة؛ أم صمت كلاريسا التي كانت تعيش كلمة «انتهى!» بقوّة تلك الريح التي تهبّ من الجانب الآخر للمحيط، وأضفيتُ عليها منذ قليل، طابع الأسطورة. لا أستطيع الزعم أنني أحسست بانفعال

(*) الموت والحساب، والنعيم والجحيم. (م).

خاص إزاء وفاة والدي، وفاة أحد آل رويغ-ميرو الذي أحب أن تقتصر نسبته على رويغ فقط. لكنه لم يحصل إلا على سخرية القدر منه، لأنه ورث، مع ذلك، وعورة الخلق وحدّة الطبع اللتين ميّزتا هذه العائلة التي سيلتصق اسمها بي. أبي كان جافي الطبع كأيّ ربّان مركب حقيقي. لم أُقم أدنى علاقة حميمة به، لأن والدتي تكفّلت دائماً بأن تُوْصل إليّ أوامره، بأن تتحوّل إلى وسيط بين الربّان والملّاح الصغير. أو ربما، لم تكن هناك مثل هذه الأوامر، ولا ذلك الطبع البغيض. لكن الوسيط كانت تخشى، إنْ لم تتدخّل، أن ينطلق ذلك الطبع المشهور من عِقاله، طبع الغضب والعنف الذي، ربما، لم يوجد إلا في مخيّلتها، أو في مخيّلة أمها ذاتها. ولعل جدّتي كانت تُسِرّ لها: «ستتزوّجين بأحد أفراد رويغ ميرو. فعليك باللطف والطاعة، يا بنيّتي». وهكذا، لا أتذكر أبداً أني سمعت صوتاً حادّاً، أو تلقّيت أمراً، أو حلَّ بي عقاب. لأن أمي كانت تستبق إمكانيّة أن يعلو صوت الربّان أو يصدر أمراً، أو ينزل عقاباً. فكانت تقول لي: «لا تلعب هنا يا بنيّ!»، أو: «لا تغنِّ. لا تستمع إلى المذياع. كن هادئاً. ألا ترى أنك تزعج أباك؟»، لكن أمي لم تتولَّ بعد غياب الربّان قيادة المركب. والطريف (أو هكذا يبدو لي الآن)، أنني لا أستطيع الزعم أني شعرت بالحزن وثقل المصاب لمّا زرتُ هذه المقبرة مرة أخرى في شبابي، بمناسبة دفن أمي. وإنما شعرت بالفراغ. شعرت بفراغٍ رهيب. لم يكن هذا الشعور ناجماً عن فقدان من واريناها الثرى منذ قليل، بل لعجزي عن معرفة شيء آخر عن تلك المرأة التي لن أراها مرة أخرى في الحياة. وكأن أمي قضت نحبها في الواقع منذ سنين بعيدة. أدركت ذلك بوضوح متأخّر لمّا كنت أراقب ذاهلاً عمل الحفّارين، ولفظ أحدهم كلمة: «انتهى!» التي تصكّ بها الريح ذاكرتي الآن. لأن أمي بوفاة زوجها، كانت تبدو أنها فقدت تلقائياً سبب وجودها في العالم. فليس عليها بعد اليوم أن ترقّق صوتها وتنغّمه وتردّد:

«ألا ترى، يا بنيّ، أن أباك مشغول؟»، أو ترضي الرغبات الرهيبة لرجلٍ لم يُتح لها أن تتحدّث إليه بكلمة. ففي حين كنت ألعب في الصالون وغرفة المعيشة، أو في المكتب الذي كان محظوراً عليّ دخوله من قبل، كانت هي، وقد فقدت ما تحرص عليه وتصونه، تحتبس في غرفتها قرب آلة الخياطة. كانت تنهمك في التطريز انهماكاً حقيقياً، وهي تسألني من خلال الباب عن علاماتي، وتحكي لي قصصاً عن العائلة حينما أجلس قربها، مستذكرة آباءها والعمّة ريكاردا وآل ميرو الطّيبين؛ كل ذلك، كما أرى الآن، كان تحايلاً على الصمت، وللإيحاء بأن في هذا البيت، من يتكلّم ويتحدّث كما في بيوت أُخَر، مردّدة حكاياتها باللهجة ذاتها، وبالكلمات نفسها، كأنها تستظهر درساً معلوماً أو تغنّي لحناً من دون اعتبار للكلمات. لكنها كانت تُبقي ذهنها يقظاً غاية اليقظة لتركّز انتباهها على الأشكال التي كانت ترسمها أصابعها على طارة التطريز. كانت ترسم طيوراً أسطورية، ونباتات غير معروفة، وجياداً مجنّحة، وكواكب ونجوماً، ومجرّات لا يُحتمل وجودها. لم أكن أحتفظ بغطاء ولا منديل واحد من شغل تلك السنين، الذي لم أُوْلِهِ اهتماماً زائداً؛ لكنني قد أسرّ الآن لو تأملّته للحظة، وقرأته كمن يقرأ مذكرات حميمة، فأبلغ عالمها من الأحلام والفانتازيا. وأحسست بالحزن بغتة، أو بالحَرا، استطعت لأول مرة أن أحسّ بأني حزين بسعادة. ألا يسعى الناس في مكان كذلك المكان إلى طمأنة ضمائرهم، وتذكّر موتاهم، والاستسلام لمدة دقائق لنعمى الحزن اللذيذة؟ ألا تكون هذه الضرورة وحدها، التي طالما أخمدتُها، هي التي قادتني حتى هنا، حتى مدفن العائلة؟ لقد استطعت أن أحوّل ذلك الفراغ إلى انفعال مجهول، «بتأخّري عن ذلك سنوات»، قلت لنفسي. كل ذلك، ما كان مهمّاً، لأن زيارة المقبرة أدّت وظيفتها.

سمعت صوتاً ورائي: «لكن، أنا.. أنا لا أعرفهم».

ولمّا التفتُّ، أدركت أنني كنت خلال مدّة طويلة أتحدّث إلى نفسي. ووجدتني تلقاء وجه كلاريسا الشاحب، وعينيها الناظرتين إلى نقطة بعيدة. وكانت يداها باردتين (كالموت).

***

عدنا إلى العربة، وتلفّحتْ كلاريسا بالسترة التي وضعتها فوق كتفيها، وتكوّمت إلى جانبي ككبّة صوف، غارقة في صمتٍ شديد عزوته، تهدئةً لمخاوفي، إلى البرد وإلى الريح التي هبّت فجأةً أعلى الهضبة، مشتبهاً حتى اللحظة في أن هذه الريح كانت على صلة برياح أخرى، رياح منسيّة؛ أو بجراح قديمة أيقظها تصرّفي المتهوّر الأحمق في ذهن زوجتي. لأنني بتلك الرغبة الرعناء في أن أبيّن لها أمجاداً ماضية، أو أقصّ عليها حكايات عن العائلة وتاريخها، لم أحصل على شيء إلا على مواجهتها بما كانت تفتقر إليه: الذكريات، والعائلة، وحتى هذه اللائحة الطويلة من الأسماء المحفورة في ألواح الحجر الباردة في مدفنٍ مضحك، سمِج. نظرتُ إليها وداعبت شعرها. قد يُخيّل إلى من يراها، أنها فقدت توازنها، وأنها لأول مرة في حياتها، ضلّت طريقها، ووجدت نفسها قربي ونحن نترك الطريق العام ونقترب من المدينة، كما يمكن أن تجد نفسها مصادفة في أيّ مكان آخر، وفي أي سيارة أخرى. ويرجّح أني مثّلتها في ذاكرتي وهي جالسة على المقعد، يوم زواجنا، في وضع منتصبٍ ومسترخٍ في آن واحد، جامد ومنبسط، منسجمة مع محيطها ومع أفكارها ومع نفسها. وفكرت في عائلتها، في القليل الذي حكته لي عن عائلتها. أبواها أُجبِرا على العمل في بلدٍ بعيد لإعالتها. هناك تعرّضا لحادثٍ مشؤوم لمّا كانت طفلة. ثم تولّت رعايتها عمّةٌ بعيدة لها. يرجّح أنها تجهل أين دُفنا، ومن هما، وكيف كان لون عيونهما. كلاريسا كانت تبدو إلى جانبي عزلاء لا حول لها كالوليد. وتذكّرتها أيام الجامعة لمّا تعارفنا. كانت طالبة ممتازة. وحكت لي حينئذ

أن أبويها تركا لها بعض الموارد. لكنها تفخر بأنها حصلت على منحة، وأنها تدرس معتمدة على كفاءتها الخاصة. ولعل النتائج الرائعة التي كانت تحصل عليها دائماً في ختام كل فصل، كان الشرط غير المعلن لتظلّ تتمتّع بالمنحة. في الواقع، كانت امرأتي تبدو متحفّظة دائماً في الحديث عن نفسها أو عن ماضيها. وأحسب أنها افتقدت للحظة ما، كلّ ما لم تحصل عليه. لكنني، لمّا صرت أمام البيت وفتحت باب السيارة، رأيت أن كل ذلك كان شعوراً عابراً.

هي، وإن كانت سعيدة جداً بالحياة، فقد خطرت لها فكرة الموت المحتوم فجأة. لم تشأ أن تتناول العشاء، وانسحبت فوراً إلى سريرها زاعمة أنها ليست على ما يرام. وقبّلت وجنتي وودّعتني بهدوء كبير، وكأن رؤية الأشياء التي تألفها، عملت عملها المهدِّئ عليها. لم أستطع أن أنعم بالنوم حتى مطلع الفجر. وأنا أيضاً، سبّبت لي زيارة المدفن قلقاً واضطراباً معيّناً. أو لعلّ ذلك كله يعود إلى البرد، إلى الفترة الطويلة التي قضيناها من دون حركة في العراء، مدفوعَيْن بتلك الضرورة الملحّة إلى التذكّر؛ يعود إلى الانفعال العابر عند إثارة ذكرى آبائي وأشغال أمي، أو ذكرى طفولتي وحدها وأنا أراقب أشغال أمي. أو لعله يعود إلى اكتشافي المتأخّر لغياب الذكريات عند المسكينة كلاريسا. لكن، ما شأن ذلك كله بنا؟ فإذا كنت أعني ما أعنيه لزوجتي، وهي تعني ما تعنيه لي، فما حاجتنا إلى الذكريات، والعائلة والماضي، أيّ ماضٍ؟ ألم نَر أن مجيء ابنٍ مفترَض أمرٌ دخيل علينا؟ وإذْ كنت أفكر في هذه الأشياء، في أن الحياة هديّة لا ينبغي لنا أن نطرح حولها مزيداً من الأسئلة، وإنما أن ننهل منها حتى الثمالة، أحسست فجأة أني واقع تحت رحمة تعبٍ لذيذ. ونمت كما ينام الأطفال.

***

لمّا استيقظت، كان الفطور جاهزاً، والفناجين موضوعة على المائدة،

وعطر القهوة الطازجة المُميَّزة يُغرق المطبخ. جلست قبالة كلاريسا، ودهنت قطعة خبز محمّصة بالزبدة.

سألت: «كيف حالك اليوم؟».

كانت تبدو مرهقة وكأنها قضت ليلة ليلاء، أو أنها لم تستردَّ عافيتها تماماً. ودهنت هي أيضاً قطعة خبز، ولم تكد تذوقها.

قالت بغتة: «البارحة سلكت سلوكاً أحمق».

أجبت فوراً: «بل كان سلوكي أحمق».

وألقيت بالمسؤولية على أماسي الخريف الخادعة، وتقلّبات الحرارة المفاجئة، وهبوب الرياح...

نظرت إليّ زوجتي بإمعان.

«لم يكن بسبب البرد».

فوجئتُ بلهجتها. صحيح أنّ أذنيّ سمعتا «لم يكن بسبب البرد». لكن عينيها وجمود حركة يدها وهي تمسك بفنجان القهوة في منتصف المسافة بين المائدة ووجهها، أوحت إليّ بشيء مختلف جداً: «اسكتْ. لا تقاطعني. لا تقم باللفّ والدوران. دعك من معاملتي كأنني طفلة!».

قالت أخيراً (بدا لي أنها أعدّت مداخلتها خلال الليل): «بالأمس خطرت لي أمور بعيدة عن كلّ منطق».

واقتصرتُ على النظر إليها مستوضحاً. وضعت زوجتي الفنجان على غطاء الطاولة قرب قطعة خبز لم تشأ أن تذوقها. وكأنها فقدت الرغبة حقاً في الطعام، أو أنها قد أكلت من قبل (هذا الإحساس طمس الإحساس السابق)، وأنها تسعى بحجّة الفطور إلى تناول موضوع غريب بعفويّة محادثة عادية تجري كل يوم.

«تلك القصص التي قصصتها عليّ: وجوه الملائكة إلخ... بدت لي أنها مسكونة بحياة تتأجّج داخلها، وأنها بشكل ما (وأخذت نفساً لتتابع) كانت تنتظرنا».

رفعت كتفي وابتسمت.

وأنا أيضاً، خطر لي شيء مماثل، تلك الليلة نفسها، لكن، ليس في المقبرة وإنما في السرير. وأعلمتها أن الوجود هديّة، ولا ينبغي لنا أن نبدّده محكومين بوسواس الموت. وأحسست بعينيّ زوجتي تخترقانني مرة أخرى، فسكتّ. كانت تستجمع قواها لتكشف لي شيئاً.

«إذا متُّ... (وصحّحت لنفسها فوراً) أعني، حين أموت... أتدفنني في مدفن العائلة؟».

رجّني سؤالها من المفاجأة. فبادرت إلى إجابتها: «عائلتي عائلتك».

وسرعان ما أدركت أنها تبحث عن جوابٍ دقيق وليس مراوغاً.

قلت وأنا أتحمّل عبء نظرتها: «حسنٌ! هذا أمر طبيعي. ألا تظنّين ذلك؟».

«لست أدري!».

حلَّ محلَّ التصميم الذي أبدته منذ لحظات شعورٌ مجهول بالإعياء.

أضفت فوراً: «اللهمّ إن لم تكن لديك ترتيبات أخرى».

جهدت في أن تكون كلماتي طبيعية إلى أقصى مدى، لمّا غزاني مرة أخرى، إحساس بأن ما كان يخيف كلاريسا حقاً، إنْ هو إلا فكرة الموت. لذلك، فكرت طويلاً في الإجراءات الشكلية التي لا مفرّ منها، في الصعوبات التي غالباً ما يصطدم بها أولئك الذين لم يحتاطوا لأنفسهم حين وقوع مكروه، في الثقة بأن امتلاك مدفنٍ هذه الأيام، وإنْ يكنْ قبيح المنظر وغير متناسق كمدفن عائلتي، يحلّ كثيراً من المشاكل، أو على

الأقل يوفّر لمالكيه ضرورة مواجهتها. وسمحت لنفسي أيضاً، بأن أُلقي نكتة لم تضحك لها.

«أفترض أنك ترغبين في أن تتحوّلي إلى ملاك، مثل ريكاردا».

كلا! كلاريسا لم تكن ترغب في أن تتحوّل إلى ملاك. بل كانت تريد ألا تموت، أم أن هناك أمراً آخر؟ نظرتْ إليّ بمؤخر طرفها. كانت قد أتت على فنجان القهوة الثاني. وبدا لي أنها تحاول أن تستجمع قواها مرة أخرى لتتكلم، وتصوغ في شكل ما الأفكار الغامضة التي تدور في رأسها منذ الأمس، وتبدو لها اليوم سخيفة غير معقولة أو محالة.

قالت مقلّدة لهجتي اللامبالية: «البارحة خُيّل إليّ أني ميتة، فدخلت مدفناً غاصّاً بناس مجهولين وكأني دخيلة... أعلم أن ذلك حماقة. لكنني رأيت نفسي عزلاء وحيدة. إنه عود على بدء. أتفهم؟».

أجبت: «نعم! إني أفهمك تمام الفهم».

لم يكن ذلك صحيحاً تمام الصحّة. لكن كلاريسا كشفت أخيراً، عن سبب قلقها. ولم يفدني شيئاً إثارةُ موضوع البرد مرة أخرى، ولا الإلحاح على إلقاء الذنب على عاتقي؛ سبب، إذا نظرنا إليه في دَعَة هذا الفطور المعتاد، لا يبدو أنه يرتدي أدنى أهمية. وهكذا تطرّقت مباشرة إلى اقتراح زوجتي. أكان هذا ما يشغل بالها فقط؟ فبادرت، حينئذ، إلى لهجة أبوية، (لم تبدُ لها في تلك اللحظات غير مستحبّة)، وسألت كيف استطاعت أن تستنتج أنها، إذا ما جاء يومها المحتوم (لأنها ستموت ذات يوم، وهذا لا يمكنها أن تنسج حوله أوهاماً) ستجد نفسها وحيدة من دون عون، ومحاطة بغرباء. وذكّرتُها بمتانة صحّتها المشهورة. وبمناقشة طالما تذكّرناها، جرت في ما بيننا في مقهى الجامعة، لمّا كانت طالبة في السنة الأولى وكنت في الرابعة. وكنت يومئذ، أعاني زكاماً شديداً، وسألتْ:

«بماذا يحسّ المرء إذا كان محموماً؟»، ظننت في البدء أنها تسخر. لكنني بمرور الزمن، بتتابع اللقاءات التي سرعان ما تجاوزت إطار الكلية الضيّق، تحقّقتُ بدهشة من أنها كانت تجهل وبسعادة جهلاً مطلقاً ما يشير إلى الألم أو المرض. إذْ قلّما أحسّت بانحراف في صحتها. ولم تجد نفسها أبداً، حسبما تسعفها الذاكرة، مُجْبَرَةً على البقاء في السرير، ولم يكن لديها أدنى فكرة عما يشير إليه الآخرون حين يتحدّثون عن «الحمّى». ويجب ألا ننسى فوق ذلك، أني أكبر منها بأربع سنوات؛ وكانت صحتي طبيعية عادية (هشّة إذا قورنت بصحتها)، وأن معدل وفيات الإناث، حسب الإحصاءات، أدنى كثيراً من معدل وفيات الذكور. أخذت أشتبه الآن في أن ما جرى لها في المدفن، لم يكن غير نتيجة لارتفاع طفيف في حرارة جسم تعوّد حرارة ثابتة. لماذا أتحاشى، إذاً، أن أموت قبلها، أو على الأقل، أن نموت -نحن الاثنين- معاً؟

أضفت: «ما لنا نذهب بعيداً؟ ألم نكن بالأمس على شفا الموت معاً، الموت في آن واحد؟!».

لا أجهل أننا قفزنا في تلك المناقشات، فوق المقدمة الرئيسة، بتساؤلنا ما إن كانت توجد حياة بعد الحياة. أو أن نقبل في حالة الإيجاب، عالماً آخر منظّماً تمام التنظيم، عالماً كانت كلاريسا تصوّرته مسبقاً بطعم كابوس شديد المرارة، وإن يكن تحت وطأة الحمّى. لكن ما كان يعنينا في تلك الأثناء، ليس بحث ما وراء الحياة، ولا تصديق ما يجري في الكوابيس. ووجدت نفسي، كما في روايات الخيال العلمي حيث المحيط له أهمية أدنى، أقدّم خدماتي كدليل في ذلك العالم الغامض، فأعرّفها فيه إلى أعضاء عائلتي، وأجعلها تدخله بكلّ التكريم الواجب. لا أدري من أين حصلت على هذه البلاغة؛ لكن قدرتي على الإقناع كانت تامّة. ونظرت إليّ شاكرة وكأنها تترقّب هذه الشروح دون غيرها.

قالت باسمة: «حقّاً! لا داعي للقلق. عمري سيكون أطول من عمرك».

وقبّلتني على وجنتيّ، وكأنّ كل ذلك كان مجرّد لعب. وتذكرتْ فجأة أن لديها عملاً كثيراً، وانهمكت في نشاطٍ محموم. فبينما كنت أنظر إلى الفناجين والأطباق كيف تُنقل إلى الثلاجة؛ وإلى قطع الخبز المحمّصة -التي صارت باردة- إلى القمامة، أو أواني المربّيات والعسل إلى خزانتها، قلت لنفسي مسروراً إنه ليست بقايا ذلك الفطور الغريب هي التي تشغل مكانها، وإنما هي، كلاريسا، كانت تحاول بكلّ الوسائل أن تستردّ مكانها.

***

أصبحنا لا نتحدّث عن الموت بالمفردات التي كنا تكلّمنا بها ذلك الصباح، ولا نتذكّر أيضاً جولتنا في المقبرة، ولو عرَضاً. مرّة واحدة، على الأكثر، ذُكر فيها اسم العمّة ريكاردا، لكنه نُسي بالسرعة التي نُطق بها. كانت مصادفة لم تترتّب عليها نتائج. ذلك لما عزمنا على أن نُدخل بعض التحسينات على الشقة. وتساءلنا عن الجدوى الحقيقية لبعض قطع الأثاث، وعن إمكانية الحصول على غيرها. توقفنا إزاء واجهة زجاجية غاصة بأغراض وهدايا بمناسبة الزواج؛ وتذكارات من العائلة احتفظنا بها منذ أعوام خلت مؤقتاً، ولم نجد لها حتى اليوم مكاناً أفضل. أعدنا حسابنا، وصمّمنا على الاحتفاظ ببعضها، والتخلّص من بعضها الآخر، وإيداع قليل منها في صندوق أمانات، ولمّا وصلنا إلى عقد مزيّن من الفيروز، سألتْ زوجتي عن مصدره، فذكرت اسم عمتي ريكاردا، وتذكرتُ افتتانها الكبير بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. لكنها لم تأبه أبداً، لأنها ما كانت تهتم بالجواهر. خلال أيام قلائل تحوّلت الواجهة إلى خزانة أودعتها كلاريسا، بكلّ حبّ وحرص، آنيتها المفضّلة، وهي مملحتان من الفضة، وأغراض شتّى ذوات استعمال يومي، جعلت من واجهة غريبة، كما لاحظت، قطعة

لا تنفصل عن حياتنا. ذلك كان الأمر الوحيد الذي يعنينا: «حياتنا»، وتلك السعادة التي لا أجد الكلمات حين أصفها، وتظهر في كمال روعتها لمّا فقدناها. لأن كلاريسا، خلافاً لتوقّعاتها، لم تعمّر بعدي.

بين يومٍ وآخر، باغت المرض بيتنا عجلانَ ملحّاً، ولم يدع مجالاً للشك في الأجل المحتوم، حتى في نظر رجل محبّ مثلي، راغب في التشبّث بأدنى عرض يشير إلى التحسّن، في التشبّث بأغرب الأحلام، وبإمكانية حدوث معجزة.

تحمّلت كلاريسا آلامها بشجاعة كاملة وبطولة، وهدوء كبير، جعلت الطبيب الذي لم نكن نعرفه تقريباً، لأننا لم نحتجْ إلى خدماته من قبلُ، يتصرّف معنا كأنه كان صديقاً دائماً لنا، سارقاً بعض الساعات من وقت مرضاه الآخرين، ويطمئنني كلما زار النوم جفنيها، مُقرّاً صراحة بإعجابه بها. فهو لم يعرف أبداً خلال ممارسته مهنته كائناً على بعد خطوتين من الموت يُبدي كل هذا الصبر والشجاعة.

لكن، أكانت تعلم أنها على قاب قوسين أو أدنى من الموت؟ لمّا اشتدّت عليها الآلام في اليوم الأخير من ذلك الأسبوع، ضاعفنا لها جرعة المورفين؛ وغرقتْ في سبات عميق؛ لكن وجهها تقلّص على نحو طريف، كما لم يتقلّص من قبل أبداً.

كانت تتألّم الآن، تتألم حقاً، وكأن النوم أرهقها فراحت تجمع كل الآلام التي كان عقلها يرفض قبولها. وصارت تتلوّى وتئن وتهمس بكلماتٍ غير مفهومة.

قال الطبيب وهو يغادر الغرفة: «إنها تهذي!».

بيد أنها لم تكن تهذي ولا تنطق بأصوات غير مفهومة، ولا بجمل من دون معنى؛ فدنوت من سريرها، ووضعت رأسها بين راحتي، وتنصّت.

«ريكاردا؛ رويغ-ميرو، ميرو-رويغ؛ ميرو ميرو».

أجهل كم مكثت من الوقت قرب سريرها. لكنني لاحظت بغتة برودة يدها وتصلّبها، برودة شعرت بها ذات مرّة. ورأيتني أردّد من دون وعي، ومن دون أن أجد الكلمات المناسبة: «لا تقلقي، يا حبيتي، لا تقلقي!».

***

أعلم الآن، أنّ للناس مواقف ومسالك حمقاء سخيفة حين يقفون إزاء المحتضرين والموتى، كمحاولتي اللامجدية لتحرير كلاريسا من كلّ قلق. محاولة لا ينبغي لنا أن نعدَّها أشدّ المحاولات شططاً. وكذلك يقومون بأغرب الأعمال وأكثرها شذوذاً في الساعات التي تلي وفاة الشخص المحبوب، ويظلّون مع ما يشبه ما كان جسداً. ويبدؤون يتخيّلون الفراغ الذي سينجم عن «الغياب». فالعازفون عن الكحول يُسرفون في الشرب؛ والصامتون يتكلّمون بإفراط؛ والثرثارون يلوذون بصمت مهيب. أو يرتكب هؤلاء جميعاً أعمالاً لا جدوى منها، تبدو ساعة غياب الوعي، رصينة مُبينة ضرورية. ولم أكُ استثناء.

طلع الصباح، وبدأت حركة السير في الشارع، وأخذ البيت يغصّ بالأصدقاء والجيران. فلبست ثيابي على عجل، وتناولت سلّة وقصدت السوق. ولم أمكث فيه غير دقائق معدودات. دقائق تكفي لشراء بعض الفواكه المنتقاة. وذهبت إلى المصرف من فوري، من دون أن آبه بسوء مظهري، ولا بلحيتي التي لم تُحلق منذ يومين، ولا بالأطعمة التي كانت تطلّ من السلة. كان باب المصرف مغلقاً، وإن كانت تُلمح حركة الموظفين في الداخل. وكان عليّ الانتظار ربع ساعة حتى سُمح بدخول الزبن. ثم قصدت محلّ أدوات منزلية حاملاً السلّة الغليظة المحشوّة. كان المحلّ غاصّاً، لكن حاجتي قُضيت فوراً، ربما لأن ما كنت أرغب في الحصول

عليه ضئيل، أو أن مظهري كان لا محالة سيثير ذعر المستخدمين؛ أو لعل محلاً زبنه من النساء أساساً يُعامل فيه الرجال عادة بأفضلية. لمّا خرجت غذذت الخطا، وتوقّفت هنيهة أمام محلٍّ آخر، وقرأت: نظارات، ساعات، أجهزة دقيقة. لكني لم أدخل، وبلغت مدخل عمارتنا راكضاً. لم أنتظر المصعد، بل صعدت السلّم إلى شقّتي درجتين درجتين.

حين دخلت، وجدت أصدقائي الذين تركتهم عند انطلاقي، والذين اتصلت بهم الليلة الفائتة؛ إضافة إلى أصدقاء آخرين كثيرين، لا شكّ أن أصدقائي الأُوَل اتصلوا بهم. ثم رأيت رجلين ذوي مظهر عابس يلبسان ثياباً خالصة السواد، علمت فوراً، وقبل أن ألتفت إلى التابوت الخشبي المودع في غرفة المعيشة، أنهما من مصلحة دفن الموتى. أذنت لهما في مباشرة عملهما. لكني رجوتهما أن يسمحا لي قبل أن يُطبقا التابوت إلى الأبد، بأن أظلّ وحيداً لمدة دقيقة واحدة مع من كانت زوجي.

أفترض أن أحداً لا يمكنه أن يدهش لرغبةٍ مشابهة؛ ولا أن يجرؤ أيضاً على قطع لحظة كهذه اللحظة، لحظة وداعٍ أخير يعبّر فيها من بقي على قيد الحياة بكلماتٍ عن حبّه، ويطلب الصفح، ويرجو اللقاء أبكر ما يمكن مع الشخص المفقود المحبوب. يؤدّي ذلك بصوت عالٍ، وكأن الجثث الصفر يمكنها أن تسمع، أو أنّ الشفاه التي جمّدها الموت تستطيع أن تنطق جواباً. وهكذا، أقفلت الباب بالمفتاح. ولمّا صرت وحيداً وكلاريسا، قبّلت شفتيها.

لكن ذلك لم يكن الأمر الوحيد الذي قمتُ به. فقد دخلت حجرتها حاملاً الأغراض التي ابتعتها صباحاً حاملاً السلّة التي لم يلحظها أحد. بعد كل شيء، أليس من عادة بعض الأرامل أن ينصرفوا إلى أشكال من الشطط غير معهودة؟ وانتقيت بحرص كبير بعض الفاكهة، أصغر الفاكهة وربما

أطيبها: حبّة أفوكادو وتفاح الكاسترد(*) وكيوي، ووضعتها بحبّ بين طيّات الكفن. ثم رفعت قدميها بحذر شديد، وتحقّقت من وجود مجالٍ لما كنت أسعى إليه. أعدتهما مرة أخرى إلى موضعهما. وبحثت في قاع السلّة عن حُقّ كان يرقد منذ دقائق في صندوق الأمانات في المصرف، وفتحته، صدر عن عقد العمّة ريكاردا بريقٌ قويّ غير مألوف، وكأنه طلع من يد صقّال معادن أو صائغ جواهر، وليس من مكان مغلق. لم يكن ذلك غير إحساسٍ عابر تشبّثت به بكل حماس.

خبّأت العقد تحت قدمي كلاريسا. وأضفت ثمرة كيوي صغيرة جداً لا بدّ لها من أن تبرز من بين طيّات الكفن عند تحريك النعش. وما بقي كان سهلاً جداً. أرسلتُ شعرها الذي قامت إحدى صديقاتها أو جاراتها بربطه وراء نقرتها، وأخفيت بين ذوائبه قطعاً من خيوط زرق وحمر، وذهبية وفضية وبرتقالية وبنّيّة، شبيهة بتلك الخيوط التي كانت أمي تطرّز بها، حسبما تسعفني الذاكرة، طيوراً أسطورية، ومناظر غير معروفة. وأخيراً، خبّأت ساعةً قريباً جداً من ثديها. كانت ساعة جيب أجهل من كان مالكها. كانت معطّلة، لكنها كانت ذات جمالٍ فذّ عجيب حتى حفظتها قريباً مني في أحد دروج مخدعي لمّا حوّلنا الواجهة إلى خزانة. وقلت لنفسي قد يروق لمالكها أن يستردّها. أنا لم أكن أصنع ما أصنعه خضوعاً لطقسٍ قديم. ولم أكن أؤمن أيضاً أن الأغراض المودعة في التابوت تؤدّي وظيفة أخرى غير مجرّد تعبير عن الحب، أو أنها رمز وتفسير لأوهام كلاريسا ومشاغلها. وفكرةُ: «لربما سرَّها ذلك»، كانت مسوّغاً لكثيرٍ من الحركات المحالة التي قمت بها على عجل، قبل أن يفوت الوقت، ويُفتَح الباب، ويُطبِق الرجلان ذوا المنظر الكئيب، التابوت مرّةً واحدة، وننطلق جميعاً

(*) Cherimoya فاكهة استوائية، وهي معروفة أيضاً باسم فاكهة القشطة في بعض البلدان. (م).

إلى الكنيسة فالمقبرة، فالمدفن حيث ترقد كلاريسا رقدتها الأبدية. نعم، قبل أن يحصل ذلك كلّه، قمت بأداء واجبي، فداعبت وجهها، وقبّلت شفتيها مرّة أخرى، وكلّمتها بصوت عالٍ: «أترين؟ لا داعي لأن تقلقي!».

لكن كلماتي هذه المرة، لم تبدُ لي هراءً ولا خالية من المعنى.

وبحركة رشيقة تشبه لعبة أطفال نعرف سرّها وحدنا، همست في أذنها: «ستلقّين استقبالاً حسناً، يا حبّي!».

***

البيت من دون كلاريسا كان يخلو من المعنى. لم أتنبّه إلى ما يعنيه ذلك بكلّ جفائه، إلا بعد أسبوعين من وفاتها؛ بعد اختتام ذلك العمل الطيّب من الزيارات والعزاء والسلوى والمشاركة في الحزن؛ وبعد انفضاض الأصدقاء من حولي. كل ذلك أظهر -وهنا المفاجأة- أن الحياة، على رغم ذلك كلّه، تسير سيرتها، ويظلّ المرء وجهاً لوجه بشكل درامي مع الوحدة والفراغ والغياب. ومع ذلك، لم أحسّ بالقدرة على اتخاذ قرار.

ها هي ذي الأغراض والثياب التي أحبّتها في حياتها: الفناجين، زجاجات الكريم، والعطور والثياب الحريرية التي يسرّني الآن، وإن كنت غارقاً في الأحزان، أن أداعبها متذكّراً، لألمي، بعض النصائح، دَهِشاً في آن واحد من السهولة التي يتطوّع بها معظم الناس لإسداء النصح. «تَخلّصْ من أغراض كلاريسا. تخلّص من الثياب، بوجه خاص. ثياب الموتى تسبّب حزناً عميقاً!». أو «بدّل البيت، بدّلْه لفترة معيّنة على الأقل، إلى أن يستعيد كل شيء مكانه في الحياة!». لكن، ماذا بمستطاعهم أن يعرفوا عن «الأمكنة»؟ أمن الممكن بخاصة، أن تكون كلاريسا، التي كانت أسعد امرأة في العالم، قد تخلّت عن مكانها؟ وفي ليلة من تلك الليالي شرعت أحلم.

في البدء، رأيت ظلالاً باهتة وصوراً تكاد لا تبين، وأصواتاً بعيدة وهمسات، لعلّها لم تكن شيئاً آخر غير وشوشة ريح. لكن وسواس اليقظة لم يفارقني خلال الحلم. وسرعان ما ميّزت من بين تلك الظلال والهمسات، الظلّ المحبوب، والصوت المرتقب. سمعت كلمات محدّدة لو استطاعت كلاريسا الكلام، لكانت نطقت بها.

إني، وإن لم أشكّ لحظة واحدة عند الاستيقاظ، في أن ذلك ما هو إلا حلم، فكنت أشعر أني محظوظ. كنت، في الليالي على الأقل، ألتقيها مرة أخرى، وأستطيع أن أروّح عنها، وأنصح لها، وأُعلمَها أنها، حتى في الموت، ليست وحيدة. «أنا بردانة»، قالت. أو خُيّل إليّ أنها كانت تقول ذلك، حين لم تكن غير ظلٍّ كنت أجهد في أن أمنحه صوتاً ووجهاً. وقالت أيضاً: «أنا خائفة». وكنت أبيّن لها بحكمة وهدوء، أعجز عنهما في اليقظة، أن الأمر الأول غير ممكن، والأمر الآخر مستحيل. كنت أؤكد لها أنها لا تستطيع الإحساس بالبرد لأنها ميتة، اللهم إلا أن تتذكر شيئاً كان يُدعى في الحياة برداً. أما الخوف الذي تؤكد أنها تعانيه، فما هو غير اضطراب. فقد كنت قرأت (وفي الأحلام كنت أذكر عناوين جمّة وأسماء مؤلّفين كانت تختفي من ذاكرتي حينما أستيقظ) أن الروح في الأيام الأولى التي تلي الوفاة، تقاوم الإقرار بأنها غادرت الجسد، وتهيم على وجهها في العالم. لكنّ كلاريسا كانت تعثر عليّ كل ليلة في حجرتي، وأنا على أتمّ استعداد لتبديد شكوكها. ومتى تعلم بشكل نهائي أين هي، متى يحلّ اليقين محلّ الشكّ، نتابع حديثنا وذكرياتنا، ونهنّئ أنفسنا بمعجزة التقائنا في الحلم، وبصنعنا الوهم بأننا نلتقي في الأحلام.

في ليلة من تلك الليالي، أبلغتني أنها صارت تشعر بالراحة، وتعلّمت أن تميّز الأشياء في الظلمة. ما كان يبدو لها في البدء ظلالاً، لم تكن كذلك، وإنما هي وجوه. «بعضها ودود جداً» -قالت- «والبعض الآخر

على النقيض...». حينئذ، تجاوزتُ إقراراً جديداً منها بمخاوفها، فذكّرتها أن تلك الكائنات التي كانت تخيفها، عانت في بداية أمرها أموراً مشابهة. وذكّرتها أيضاً بألا تنسى الهدايا (حتى هذه الكلمة كان له وقعٌ طبيعي داخل الحلم) التي رافقتها حتى المدفن، وأنها يمكنها أن تنتفع بها إن لم تكن فعلت، في أيّ وقتٍ يبدو لها ملائماً: الثمار المدارية، والساعة وعقد العمّة ريكاردا.

سألت بدهشة: «العمّة ريكاردا؟ من هي العمة ريكاردا؟».

وإذ وجدتني صامتاً، أضافت فوراً: «لكن، إذا كانت العمة ريكاردا خادمة...».

استيقظت مذعوراً، وأشعلت الضوء، وأشعلت لفافة. كانت أول مرة يشطّ فيها الحلم شططاً كبيراً، ويكتسب حياة مستقلّة، ويسبّب لي مفاجأة. حتى ذلك الوقت -والآن صرت أعي ذلك- اقتصرت كلاريسا على النطق بكلمات مرتقبة، مفهومة، مألوفة، فكانت تذكر البرد والخوف والظلمة. جمل يمكن العثور عليها في أي رواية، في أي كتيّب يتناول مسائل الروح والنفس التي كان لي شرف معرفتها في الحلم. ولعلّ معرفتي اللاواعية بذلك كانت تلقّنُها تلك الكلمات. أمّا ما قالته منذ قليل!... لكن، ماذا يعنيني مصير العمة ريكاردا؟ أليس من دواعي السرور أن يصبح كائن مسيطر وقاسٍ، كما كانت عمتي، في الحياة الآخرة عبداً؟ ألا يسهل بذلك تكيّف القادمة الجديدة مع عالم الظلال؟ جمرة اللفافة كانت تبعثرت فوق الأغطية. فبحثت عن مَنفضة وسكبت كوباً من الماء فوق السرير. كنت نائماً. كنت ما أزال نائماً. وهكذا، أستطيع أن أعزو كل هذه الأهمية التي أوليتها لخبرٍ حدث في الأحلام إلى عالمٍ يوجد فقط في الصور التي كنت أشهدها في تلك الأحلام.

اغتسلت بماء بارد. ولأول مرة منذ ثلاثة أسابيع توجّهت إلى مكتبي. روتين العمل جعلني في وضع أفضل. سكرتيرات المكتب ذبْن ودّاً ورعاية، وكنت في مزاجٍ طيّب حتى الساعة السابعة. فودّعتهم إلى اليوم التالي، وهنّأتهن بحسن قيامهن بالأعمال المعلّقة خلال فترة غيابي. فابتسمن مسرورات. لمّا غادرت المبنى اقتربت مني البوّابة بوجه محزون: «أشاركك الحزن»، قالت. ثم راحت تحدّثني بصوت مكروب عن تقلّبات الحياة، وعن جمال كلاريسا، وعن الخسارة الجسيمة بفقدها. وهي عانت كل ذلك منذ عشر سنوات بوفاة زوجها الذي لا يُنسى. ما كنت أوليها اهتماماً تقريباً، بل كنت أفكر: «ريكاردا! من كان يظن ذلك!»، وبعد أن قطعتُ حديثها بفيضٍ من كلمات الشكر، سرتُ بخطا سريعة نحو منزلي. في تلك الأثناء، كنت أرغب في شيء واحد فقط: أن أتعشّى، وأنام، وأستأنف زيارة كلاريسا بين الجدران الأربعة في محل إقامتها الجديد.

***

كانت كلاريسا تتأقلم شيئاً فشيئاً. فالآن صارت تعلم أنها ميتة، وهذه الواقعة التي صعب عليها قبولها في البدء، ما كانت تبدو لها بعد أن رضيت بها، خطيرة للغاية. فالمدفن -أو البيت كما كانت تسمّيه- كان أوسع مما يوحي به مظهره من الخارج. وهي لن تكلّف نفسها عناء تعداد الأغراض. كانت تعوزها الكلمات لتسمية ما كانت تجهله حتى وقت قريب. وفوق ذلك، كانت واثقة بأنني لا أستطيع فهمها. وإنما أرادت أن تعلمني بأنه توجد أمكنة فائضة. أمكنة لمن هم هنا، ولمن سيفدون ذات يوم من دون شك. شيء لا تستطيع أن تدّعيه كل محلّات الإقامة، («المدافن»، بادرت إلى القول فوراً، كمن يتصل بشخص من بلد آخر أو بلغة أخرى). ومع ذلك، كانت تحس أحياناً بأنها ما تزال مضطربة حزينة. كان ذلك، كما استشعرت، عوداً على بدء. ولا يبدو أن كل الناس مستعدون لتسهيل

اندماجها، ولا توفير الأمور لها. حينئذ أظلم وجهها لمدة لحظات، وتجاسرت على أن أوحي: «آل ميرو ميرو، تذكّري طيبة آل ميرو ميرو. هم لا محالة في "البيت"... إنهم آباء آباء أجدادي. اطلبي إليهم عوناً ونصحاً... ألم أقل لك إنهم نُقلوا إلى المدفن؟».

اخترقت وجهي عيناها كما اخترقتاه في مناسبة مشهودة خلال فطور أمسى اليوم بعيداً.

عقّبت في النهاية: «أنت مخطئ غاية الخطأ!».

ثم أخذت تحدّث نفسها من دون أن تتخلّى عن لمسة الازدراء، لكنها كانت تبدو في آن واحد مرهقةً جداً.

«آل ميرو ميرو هم الأسوأ».

لم أعرف ماذا أقول هذه المرة أيضاً، لا بسبب المفاجأة ولا العجز عن مواجهة معلومة غير مُنْتظَرة وغير منطقية؛ ولا عدم القدرة على الانجرار بآلية الحلم، أو الاستسلام لقوانينه. وإنما بسبب شيء لمع في عيني كلاريسا المُرهقتين؛ وكشف لي منذ تلك اللحظة، عن زعمي الباطل بتقديم النصح لها، كان واضحاً أخيراً، أنني لا أستطيع انطلاقاً من عالمي، أن أقدّم العون لها.

***

ومع ذلك، ألححت بعناد. ما كنت أريد أن أتخلّى عن لقائها، عن الشيء الوحيد الذي بقي لي منها، عن الإحساس بأن الأحداث تجري في المدفن، في مقر إقامتها، في «البيت»، أو أياً يكن، بسرعة عجيبة، وتجعلني متنبّهاً، متأهّباً يقظاً داخل الحلم منتظراً اللحظة التي تلبسُ فيها الظلال وجهها، وتقلّد صوتها وتجعلني أعتقد أني في حضرتها، وأذكّرها بأنها لن تكون وحيدة أبداً. لكنني إذا كنت حتى ذلك الوقت لم أحصل دائماً على

النتيجة المرجوّة، فكان يبدو لي أني أبتعد عن بلوغها أكثر فأكثر. وكنت أتذكّر معظم الأحيان بشوق، وأنا أتقلّب قلقاً في السرير، ظهوراتها الأولى لمّا كانت مجرد ظلٍّ مفعَم بالشكوك، ولا أستطيع تقديم النصح له انطلاقاً من عالمي. لأنني في تلك الأثناء، كنت أعرف، بمهارة معجبة ومن دون أن أطرح مزيداً من الأسئلة عليها، كيف أحجزها، وآسُرها وألتقط خيط الحلم مرة، مرتين، حتى مرات عدة في الليلة الواحدة. كان يكفيني أن أدعوها، أن أهتف باسمها حتى تهرع إلى موعدها طائعة. لكنها أصبحت الآن تتكلّم بصوتها الخاص. أو ما هو أسوأ من ذلك: ما كانت تبدي ميلاً كبيراً إلى الكلام. هناك شيء آخر، أحلام أخرى، صور أخرى، أفكار أخرى كانت تتصارع منذ أيام معدودات لتُسمع صوتها، لتبعدني عن هدفي، لتسرق البطولة مما يمكن أن يحدث هناك، في مقرّ إقامة كلاريسا. وهكذا كنت أرى نفسي كثيراً أعرض المنزل للبيع، وأنتقل إلى شقة مفروشة؛ أهتف إلى الطبيب وأطلب منه موعداً، إلى الطبيب نفسه الذي قام على رعاية زوجتي بحنان كبير حتى الرمق الأخير. أجري محادثة مطوّلة على ضوء المدفأة. مدفأة ملتهبة أعدّ محدّثي لنفسه قربها كأساً من الكونياك. ماذا كنت أصنع في مكتبته؟ أي شيء أشكره له شكراً جزيلاً؟ لماذا كنت أحمل حقيبة خضراء عتيقة؟ لماذا كنت ألحّ على الكلام عن الحياة، وعن جمال الحياة، وعن واجبنا في أن نتمتع بها جميعاً، في أن نترع الكأس منها حتى الطفاف؟ صار الجهد مضاعفاً؛ ولم تكن الصرخة التي غالباً ما كنت أستيقظ عليها، طريقة أتوسّل بها إلى كلاريسا فقط، وإنما لأتخلّص من تلك الدعوات الغامضة إلى التعقّل والنظام، إلى كل ما يبعدني، أخيراً، عن غايتي. إلى أن حدث اللقاء على غير توقّع، ذات يوم، وكنت على شفا فقدان الأمل.

***

لا أستطيع التأكيد أني لحظت شيئاً منذ البدء. لكن رؤية كلاريسا أثارت فيّ القلق، بدلاً من أن تطمئنني. كانت جميلة، جميلة بشكل لافت للنظر. كان الإعياء قد اختفى من وجهها. وكانت تبدو سعيدة، منوّرة بارزة بين الظلال التي كانت تعترض في ما بيننا أحياناً مبعدة صورتها، منتصبة حاجزاً كنت أحاول بكلّ الوسائل أن أتخطّاه. بذلت جهداً مضنياً لأُسمِعها صوتي. وصحت: «كلاريسا! هل أنت بخير؟»، وكان السؤال عبثاً. كان واضحاً أنها تحس بالسعادة.

أجابت فوراً: «نعم! بالطبع، أنا بخير».

كان صوتاً يرافقه صدى. وخطر لي في الحلم أنه صوت من العالم الآخر.

سألتها من فوري: «وآل ميرو ميرو؟».

كانت تنظر إليّ بحيرة. أو تعب؟ وتنهّدتْ، وأخيراً، كأنما تذكّرت شيئاً حدث منذ فترة طويلة جداً، شيئاً يمكن أن يثير انتباه رجل غريب وأجنبي فحسب. ثم قالت: «لا داعي لأن تقلق».

لكن، أكان ذلك جواباً؟ أم شكلاً ناعماً لتوحي إليّ بما كانت تعلمه؟ واضح أنها ما كانت بحاجة إلى نصائحي، ولا إلى أسئلتي أيضاً. وأضافت باسمة: «عصبة ميرو ميرو تحت السيطرة».

لم تتح لي وقتاً بأن أهنئها، بأن أنضمّ إلى فرحتها بما ينبغي له أن يكون نبأ طيّباً، حسب كل المظاهر. لكن تلك التقطيبة على فمها، التي ظننتها بسمة، انقلبت إلى قهقهات رنّانة صاخبة. قهقهات اختلطت للحظات بصدى صوتها المعدني وسبّبت لي قلقاً عميقاً. أكنْتُ أحببتها لو أنني علمت، لو خامرني أدنى شكّ في أنها قادرة على السخرية مني؟

هنا، صار واجباً عليّ أن أضع حداً للقائنا؛ أن أنتهز المفاجأة داخل

الحلم كيما استيقظ؛ أن أنصرف قبل أن أُصرف، أن أحاول التركيز على عملي وأقوم بالنزهات، وأتصل من حين إلى آخر بأحد أصدقائي، وأهرع إلى منوّم قوي يرغمني على الراحة في الليل (أبسبب ذلك كنت أرى نفسي أتحدّث إلى الطبيب، وأحدّثه عن جمال الحياة وأفتح المحفظة الخضراء وأسلّمه وثيقة وأراه مضطرباً اضطراباً خفيفاً ويتناول جرعة كبيرة من الكونياك، ويختفي للحظات وراء كوبه؟)، وأقتنع بأن إحدى الحياتين اللتين أعيشهما يومياً، حقيقية. لكن ثقتي بأن «الحياة الأخرى» قد تتبخّر في كل لحظة أرغمتني على البقاء مغمض العينين، مُبعِداً كلّ صورة غير ملائمة، مخمداً كلّ تفكير غير مناسب، راغباً في أن أصل حتى النهاية. «ينبغي لي أن أصل حتى النهاية»، قلت لنفسي. ذلك كأنما نحيّت جانباً كل ما يبعدني عن هدفي. أو أحْصُره في حقيبة يبدو أنها تنتفخ، وتهدّد بأن تنفجر وتحجب إلى الأبد، المسرح الذي تتشكّل فوقه الظلال مرة أخرى. لكنني كنت أملك حقيبة يد. وتذكّرت بغتة أني أملك حقيبة، وكأنني استعدت المبادهة وسط كابوس مرهق. هذا الكشف الصغير أعاد إليّ خلال ثوانٍ الثقة بنفسي، والاعتقاد بأنني ما أزال قادراً على تغيير مجرى الأحداث وتبديلها وتعديلها. وهكذا وجدت فسحة صغيرة داخل أحلامي، أستطيع أن أتدخّل من خلالها. وكان للحقيبة فوق ذلك، أو هكذا رأيت، جوزة وقفل أمان ومفتاح. وضعت فيها كل شيء: الطبيب والمدفأة والوثيقة، إضافة إلى ذكرى الحقيبة نفسها، التي لم أجد لها حتى ذلك الوقت أي فائدة.

سمعت فجأة: «أشش ـ ش ـ ش».

وغرقتُ في الظلمة فخوراً بشجاعتي.

***

لم يبق لي شيء من كلاريسا، حتى ولا صدى قهقهاتها. ولمّا أصخت السمع خلال هنيهة، بدا لي أنني ألتقط بعض الوشوشات، بعض الهمسات وكأنني بين مقاعد في قاعة مسرح، يتأهّب فيه الممثّلون الذين ليسوا على مستوى عالٍ من الكفاءة، لاحتلال مواقعهم.

المثال غير صحيح على هذا الشكل أيضاً؛ وعلى الأقل لم يدم الانطباع السابق أكثر من ثوانٍ معدودات. ووجدت نفسي فوراً وسط دوّامة من الألوان الصارخة المتنافرة. وأجرؤ على القول إنها كانت خليطاً رديئاً من الألوان ما لبث أن تحدّد في أشكال مشغولة بذوق بدائي، وتفصح عن صور استطعت أن أتعرّف إليها. كانت جياداً مجنّحة ومناظر غير معقولة؛ وكواكب ونجوماً وطيوراً أسطورية.

كانت المطرّزات تبرز بقوّة على أرضيّة غامقة، ما لبثت أن ميّزت منها معطفاً، رداءً، أو ثوباً جديداً يضعه أحدهم فوق كتفي كلاريسا التي أدارت ظهرها كأنها في جلسة تجارب في بيت أزياء من دون مرايا. لكنّ قدماً أطلّت فجأة من طرف الرداء الأيسر. كانت قدماً حافية سحقت ميناء ساعة لم أجد صعوبة ما في تشخيصها.

ولمّا رفعت بصري وطفت به فوق أنحاء المعطف، وتأملت شعر كلاريسا، استطعت أن أرى شفتيها وبسمتها، لأنها كانت تحمل في يدها المرفوعة حُقّاً كان مقرّ ساعة جميلة، سطحها المفضّض أعاد ذكرى شفتين باسمتين من الرضا. لم تدم الرؤية غير ثوان. وسرعان ما انتصب المعطف بيننا كأنه ستارة، وحاجز جمركي أو جدار. أخذتِ الألوان تتلاشى. وكنت أرتاب في أن تحدث هذه اللقاءات مرة أخرى، وكأنني كنت أحضر العرض الأخير، فحاولت أن أتكلّم وأصرخ، وأُسمع صوتي. لكن الشيء الوحيد الذي عكسه إليّ ذلك العالم من الظلال، كان صوتاً بل نغمة مُتعبَة وتحذيراً

رجّ أحشائي وغمرني بعرق بارد وجعلني أظلّ جالساً في السرير لا أدري كم من الساعات.

«رجاء، يا بنيّ، لا تلحّ! ألا ترى أن كلاريسا مشغولة؟».

***

بعد أسبوع انتقلتُ إلى شقّة مفروشة، وعرضت بيتي للبيع، وهتفت إلى الطبيب طالباً منه موعداً. «إنه أمر خاص»، حددت. استقبلني الطبيب في مكتبة بيته، قرب مدفأة مشتعلة، وقلت له إني انتقلت إلى شقّة مفروشة وعزمت على بيع منزلي. أصغى إليّ باهتمام، وقال أخيراً: «بالتأكيد، قمت بعمل طيّب. بيتك لاشك في أنه مشحون بالذكريات». قد كانت مضت ثلاثة أشهر منذ رأيته آخر مرة، وهو مكبّ باحترام فوق رأس السرير. رعايته لزوجتي حينئذ، واستقباله الحاني لي شجّعاني على أن أستطرد في حديثي.

فتحت الحقيبة وأريته بعض الأوراق. إحداها كانت مسوّدة وصيّتي. كنت في صحة جيدة، وليس فيّ ما يثير ذعري. لكنني عزمت على أن أحتاط لنفسي، وأوزّع ثروتي بين أشخاص يحظون بخالص ثقتي وتقديري؛ إضافة إلى ذلك، عيّنته وصياً أول، ثم سلّمته وريقة. كان النص مختصراً قاطعاً واضحاً. وإن كان لا يحتاج، بصفته طبيباً، إلى أيّ تخويل مشابه. أنا، أيضاً ، كنت أحتفظ بنسخة أخرى دائماً. كان ذلك يعني رجاء ورغبة، لأنه سيكون الشخص الوحيد الذي ينبغي له أن يمكث إلى جانبي يوم يأتي الأجل المحتوم. وفتحت الحقيبة التي لم يلتفت إليها الطبيب، وأخرجت منها بعض الأغراض متحاشياً كلّ رسميات، محاولاً أن أجعل تسليمها له طبيعياً للغاية. ووضعتها فوق المنضدة. كانت فنجاناً من الخزف، ومملحة من الفضة وثوباً بنفسجياً تُلمَح فيه بعض البقع وشقٌّ صغير.

أضفت: «هي من أغراض كلاريسا».

رفع عينيه عن الورقة، ونظر إلى الأغراض، ثم عاد إلى قراءته والتفت إليّ أخيراً.

تمتم مضطرباً اضطراباً خفيفاً: «بالطبع، ذلك تعبير عن الحب».

كذبت عليه: «نعم؛ إنه وعد. إنه رمز».

ربما بالغت في إظهار الودّ والحفاوة، ولعلّني كشفت عن أشياء بقولي أقل مما سكتّ عنه. لأنني تحاشيت بحذرٍ أي إشارة إلى المدفن، إلى العالم الآخر. لكنني، في مقابل ذلك، أفضت في الكلام عن ملذّات الحياة وعن جمالها، وعن واجبنا في أن نحياها بعمق. ولمّا انتزعت منه قسماً (وهو ما حدا بي إلى المجيء حتى هنا)، وعقدْنا يدينا، وشددنا عليها بعزم وقوة، بدا لي أن الطبيب (الذي اختفى الآن وراء كأس الكونياك) لم يستجب لطلبي طيبة واحتراماً وسعياً لفهمِ الدافع الذي يدفعني إلى أداء قسم وإقامة طقس، ولا لفهمِ غرابة أطوار مسوّغة لأرملٍ لا يعرفه، وإنّما تغلغل مباشرة في وسواسي وكابوسي وعذابي. لكن، أما زال بالإمكان الكلام عن الكوابيس والعذاب؟ كنت صببت كأساً من الكونياك (وكان ضيافتي وقراي؛ وللطرافة كنت أهملت هذا التفصيل)، كأساً كبيرة مترعة حتى الطفاف. ولمّا رفعتها إلى شفتي، أدركت أن ذلك الفعل، كان أول فعل يبعدني عن شحطة الوصل (–)، وعن الأندية، والأحلام داخل الأحلام التي كانت رسمت لي الطريق التي ينبغي لي أن أسلكها. فعل، انضمّ إليه الطبيب منذ البدء بالتزام ودقة يشبهان المعجزة. لأن السائل العنبري الضارب إلى الحمرة الذي غرقت فيه، والقدح الذي كنت أمسك بأطرافه بيدي الاثنتين، هما (وهنا يطيب لي أن أستطرد) كأس كنت أحبس فيها كلاريسا وقهقهاتها، قهقهات كنت أعرف سرّها حقاً، وأسمح لنفسي الآن بأن أعيدها إليها في صمت، متخيّلاً جملة من الافتراضات والإمكانات والاحتمالات، متمثّلاً

أيامَها في الجامعة لمّا كنا ننتظر لها جميعاً مستقبلاً باهراً، فانقلبت بين ليلةٍ وضحاها إلى زوجةٍ نموذجية؛ متعجّباً أخيراً، من حدسي، وحدس القاضي الصديق، وحدس كلّ المدعوّين إلى حفلة الزفاف: «كلاريسا ستنال كل ما تطمح إليه».

انتظرت والكأس في يدي إلى أن يتنبّه الطبيب إلى كأسه. كأس فارغة تقرع كأساً فارغة، وشربنا نخباً عجيباً، نخباً صامتاً من دون احتفال ومن دون كلمات، وكأنما تطفو في الهواء شاهدة قبر، أو حكمة تقول: «لا شيء نهائي وحاسم». أو بكلام آخر: «كلاريسا قد وجدت مكانها». حسنٌ! أمّا أنا فأعمل ما يمكنني عمله منذ الآن لأضمن العثور على مكاني.

***

غياب

مكتبة
t.me/soramnqraa

تشعرين بالراحة هنا. أنت في مقهى قديم ذي طاولاتٍ من رخام، وخدم مسنّين، ترشفين مرطباً بارداً، وترين الناس من خلال زجاج النافذة وهم يمرّون. وتنظرين، من حين إلى آخر، إلى ساعة الجدار العتيقة.

إنها الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً، الحادية عشرة، الحادية عشرة وعشر دقائق. إلى أن تدركي بغتة أنك في مقهى قديم ترشفين مرطباً بارداً، وترين الناس يمرّون، من خلال زجاج النافذة، وتنظرين من حين إلى آخر إلى ساعة الجدار العتيقة، ولا تستطيعين أن تدركي كيف حصل ذلك. «ماذا أصنع هنا؟» تُفاجئين وأنت تفكرين. لكنّ عرقاً بارداً جعلك تلحظين أن السؤال محال، مخادع وزائف. لأن المهمّ، في هذه اللحظة، ليس ما أنت صانعة هنا، وإنما شيء آخر أبسط من ذلك كثيراً: أن تعلمي «مَن» أنت.

أنت امرأة، وإلى هذا مطمئنّة. تعلمينه قبل أن تميلي إلى جانبٍ ميلاً قليلاً، وتتأملي صورتك معكوسة في صفحة مرآة علاها الريْن(*)، وتحمل إعلاناً عن كونياك فرنسي. لا يبدو لك الوجه غريباً، ولا هو مألوف أيضاً. وجه ينظر إليك دَهِشاً، مضطرباً، مطيعاً، مستعدّاً لأن يرفّ بجفنيه، ويقطّب

(*) الصدأ يعلو الشيء الجليّ كالسيف والمرآة ونحوهما. (م).

حاجبيه، ويسمح بمداعبة وجنتيه، إذا قطّبت حاجبيك ورففت بجفنيك، ومررت بيدٍ ما تزال غير مطمئنّة كثيراً، على وجنتيك.

تجلسين منتصبة مرة أخرى، قرب طاولة المرمر، وتفتحين حقيبة اليد. لكن، أكان هدفك الحقيبة؟ وتلقين نظرة على ما حولك. فترين أربع طاولات أو خمساً مشغولة، يقوم على خدمتها نادلان بشيء من الاحتفاء والصدود. ويذكّرك المقهى فجأة بعربة مطعم في قطار سريع. لكنك لا تمعنين الفكر في ما تستطيعين أن تعلمي عن عربات المطاعم، أو القطارات السريعة. تعودين إلى حقيبتك. لون جلدها يحاكي لون الحذاء. إذاً، هي حقيبتك. والسترة التي ترقد على مقعد إلى جانبك لابدّ لها من أن تكون سترتك أيضاً. ورقة مطويّة قرب كأس تُقرأ فيها أرقام باهتة، تشير إليك أنك دفعت قيمة ما استهلكت. هذا التفصيل يطمئنك. تبحثين في الحقيبة وتعثرين على علبة زينة تتراكم فيها أقلام أحمر الشفاه والبودرة، ولفافة مسحوقة... «أنا فوضوية»، تقولين لنفسك. تفتحين علبة مفضّضة وتذرّين «البودرة» على أنفك. يبدو وجهك الآن في المرآة أكثر انشراحاً. لكنك توقّفت بفضول أمام عبارة: «تذرّين البودرة على أنفك». وترنّ في أذنك كشيء مضحك، مهجور، غير معقول. تطبقين العلبة وتمسكين بالمحفظة.

حانت اللحظة الحاسمة، وكنت على وشك أن تنادي النادلَ وتطلبي إليه مشروباً قوياً، لكنك لا تجرئين. أيتكلّم لغتك؟ أو بالحَرا: ما هي لغتك؟ كيف تستطيعين التأكيد أن صفحة المرآة التي نظرت إلى نفسك فيها أول مرة، تعلن عن كونياك فرنسي؟ شيء ما في داخلك ينبّهك إلى أنك أخطأت الطريق. لا ينبغي لك أن تطرحي على نفسك أسئلة أكثر مما هو ضروري. أنت في مقهى. ولا يهمّك أن تتحقّقي الآن كيف تعرفين أنه مقهى.

تناولتِ مرطباً بارداً، والساعة تشير إلى الحادية عشرة وعشر دقائق.

وليس لديك أي فكرة عما عساك أن تكوني. وتقولين، الأفضل في هذه الأحوال، الحفاظ على الهدوء. فقد خُيّل إليك تلك اللحظة، أنك أُعْدِدْتِ «لهذه الأحوال». تتنفّسين بعمق وتفتحين المحفظة.

***

أول شيء عثرت عليه بطاقة تأمين باسم «إيلينا بيلا غاستون». لا يبدو لك الاسم غريباً ولا هو مألوف أيضاً. ثم بطاقة هويّة شخصيّة عليها صورة تشبهك. صدرت الوثيقة عام 1987، وتنتهي صلاحيتها بعد عشرة أعوام من ذلك. ما عمرك؟ ثم في أي سنة نحن؟ وفي أي يوم؟ تلاحظين في إحدى زوايا المقهى حمّالة رفوف عليها صحف. وتتجهين صوبها مصمّمة. كانت الصحف بلغاتٍ شتّى. تختارين صحيفتين كيفما اتّفق لك ومن دون أن تُلقي على نفسك أسئلة. تاريخ اليوم فيهما مختلف، لكن العام واحد. إنه عام 1993. تعودين إلى طاولتك قرب النافذة، وتقارنين التواريخ ببعضها، وتحسبين: «مولودة في عام 1956. إذاً، لك من العمر سبعة وثلاثون عاماً». مرة أخرى، يسألك صوت، كيف تعرفين الحساب ولمّا تنسي الأرقام؟ لكنك لا تعيرينه اهتماماً -ولا ينبغي لك- وتتابعين بحثك. تعثرين في المحفظة على بعض النقود، وعلى بطاقة أخرى تحمل رقم عضوية في نادٍ رياضي؛ وعلى عنوان ورقم هاتف أيضاً. في البدء، لم يخطر في بالك ما يعنيه امتلاكك رقم هاتف. ودُهشت من أنك معجبة بالرياضة، ومن هذا الإحساس الغريب بأن هذا الاسم «إيلينا بيلاغاستون» الذي ظهر ثلاث مرات ينقصه شيء ما. «هيلينا»، تفكرين. «نعم، يسرّني جداً لو كان اسمي هيلينا». حينئذٍ تتذكّرين -لكنك لا تتوقّفين عن التفكير فيما إذا كانت «تتذكّرين» هي الكلمة الملائمة- لعبةً أو تسلية أو مهارة قديمة. في صغرك، كنت معتادة رؤية الكلمات، والأسماء والجمل، كلمات كان لها لون. بعضها أشدّ لمعاناً من الآخر، وقليل جداً منها

كانت تبدو مطرّزة موشّاة. مثلها مثل «غياب». حروفها حادّة وتميل ميلاً يسيراً جهة اليمين. «غياب». تقولين لنفسك: «هذا ما يحدث لي. أنا أعاني غياباً». وتتابعين اللعبة لمدّة مهمّة. كلمة قهوة بنّية. أماليا حمراء. ألفونسو رماديّة – رصاصية. منضدة لونها بين البيج والأصفر. وتحاولين أن تتذكري نفسك لمّا كنت صغيرة، لكنك لا تقدرين إلا على رؤية كلمة «صغيرة» غائرة في قاع الزمن، ذات ألوان باهتة وأحرف ممحوّة. وتكرّرين آماليا، ألفونسو... وتحسبين للحظة أن هذه الأسماء تعني شيئاً. تنظرين مرة أخرى، بشكل آلي، إلى صورة بطاقة الهوية، وتقارنينها بالصورة التي تعكسها المرآة ذات الغلاف الفضي. تقرئين: «مولودة في برشلونة، في 28 أيار 1956. ابنة ألفونسو وآماليا...». أشرعت الآن، تتذكّرين؟ أم أن ألفونسو وآماليا اللذين لم تعيريهما انتباهاً في البدء، قد دخلا هذه اللحظة تفكيرك، واقتصر الأمر على ذكرى عابرة خطرت لك منذ قليل؟ تتمتمين بصوت خفيض: «ألفونسو بيلا. آماليا غاستون...»، حينئذ يتصبّب العرق منك مرة أخرى؛ وبدا لك أنك تسمعين: «أنت ضائعة. بل غائبة». نعم؛ وجدت نفسك ضائعة وغائبة. لكنّك تملكين هاتفاً، هاتفك. وهنا تشعرين فجأة بولادة أمل لديك.

«هل أنت بخير؟ أجرى لك شيء؟».

وأدركت الآن أن المناضد كفّت عن الاهتزاز، واستطاع صوت النادل أن يشقّ له طريقاً وسط الطنين. وتنفين بحركة من رأسك. تبتسمين. تجهلين ما قد عساه حصل لك. لكن هذا الأمر لا يهمّك.

«لا أعاني شيئاً. شعرتُ بقليل من الدوار. وسأكون بخير، بعد قليل».

وعجبتِ لسماع صوتك. في الحياة، في حياتك العادية –كيفما كانت– ينبغي لك أن تكوني ثرية، وكلماتك محبّبة، واثقة مطمئنة.

«لم يحن وقت تناول المثلّجات» -يضيف النادل وهو يتأمل الكأس. إنه رجل كبير بل عجوز تقريباً- «المثلّجات لفصل الصيف، والقهوة الحارّة للشتاء».

تقولين له إنه على حقّ. لكنك تفكّرين فقط: «نحن في الشتاء. في الشتاء». تنهضين، تتناولين السترة والحقيبة وتسألين: «أين دورات المياه؟».

***

لم تكن عاملة التنظيفات هناك. تراقبين بارتياح منضدة مغطّاة بغطاء أبيض فوقها مَنفضة تبغ فارغة، وصحن صغير فيه بعض النقود وهاتف. تبلّلين وجهك وتتمتمين: «إيلينا». إنها رابع مرة تتأملين نفسك في المرآة، ولعلّ وجهك، لهذا السبب، أخذ يبدو لك أليفاً. «إيلينا»، على العكس من ذلك، ما يزال يبدو قصيراً ناقصاً، غير مكتمل. تلبسين السترة وتنظرين إلى وجهك مرة أخرى. إنها سترة مخيطة بعناية ومبطّنة بالحرير. ملمسها ناعم جدّاً. «ينبغي لي أن أكون غنيّة»، تقولين لنفسك. «أو على الأقل، أرغب في ذلك. ربما سرقت السترة من محلّ أناقة». كلمة «سرقت»، تبدو لك بلون الرصاص، أو لون ضارب إلى الخضرة. لكنها سرعان ما أفسحت المجال لـ«رقم». رقم بنّيّ كالتلفون، وكالقهوة. لكنك لو قلت «رقمي» لتجلّت لك «الياء» بيضاء، باعثة على الأمل وقوية. تبحثين عن نقود، وترفعين السماعة وتعلمين أنه يجب عليك أن تتصرفي بحذر، وكأنك لا تعلمين شيئاً. تستطيعين تغيير الصوت، وتسألين عن إيلينا بيلاغاستون، وتخترعين أيّ شيء حين تعرّفين نفسك. «خرجتْ. ستعود في العاشرة ليلاً. هي في الشغل». تولين اهتماماً خاصّاً للهجة المستخدم. أهي لهجة عادية؟ أم أثّرت فيها المفاجأة؟ أم الذعر؟ لعلّ من يرفع السماعة في الطرف الآخر طفل (ألك أولاد؟)، أم هو شابّ أو رجل (أأنت متزوّجة؟)، أم فتاة خادمة.

وهذا قد يكون خير الأمور: فتاة خادمة. تعرّفين نفسك إنك ابنة عمّها أو صديقة طفولتها، أو مديرة المشروع، ولا ضرورة لأن تحدّدي أي مشروع. تقولين اسماً أجنبياً من دون تلعثم أو توقّف. وتلحّين على أهمية معرفة مكان إيلينا. إنه أمر طارئ. وإذا سمعت: «إنها لا تقطن هنا. انتقلت منذ فترة»، فسوف تهتمّين بمعرفة تفاصيل عنوان مسكنها الجديد. أو، ربما (وقد يكون هذا رهيباً): «ماتت منذ عشرة أعوام». أو: «نعم، ستنهض حالاً. من يطلبها؟»، لأنك، وإنْ بدأتِ تُحسِّين الآن بالاطمئنان إلى مظهرك، فما زلت تفتقدينه بالنسبة إلى هويّتك. إيلينا بيلا. وتحسّين مرة أخرى بالعرق البارد يتصبّب منك، وتركّبين رقماً، وتعلّقين السماعة. ثم تركّبين الرقم مرة أخرى، وتقسمين على نفسك أغلظ الأيمان، كنتِ من كنت، بأنك لن تتخاذلي إزاء أول طريق هام يعرضه المصير عليك. وفوق ذلك، يضمن لك الهاتف تخفّيك، ويرجّح أن يمدّك ذلك بالشجاعة. وتضغطين على منخريك وتجرّبين: «آلو!».

الرنّة الثالثة تنقطع بطقّة معدنية يتبعها صمت. ليس لديك وقت لتفكّري في شيء. خلال ثوانٍ قليلة ينطلق صوت نسائي رزين، مرخّم يلفظ الكلام كمذيعة محترفة، ويكرّر الرقم الذي ركّبته للتوّ، ويضيف: «شكراً!» تظلّين فترة معيّنة والسمّاعة ما تزال في يدك، ثم تعلّقينها. تبلّلين وجهك أمام المرآة وتخرجين. النادل، نصيرُ القهوة في الشتاء والمثلّجات في الصيف، يدركك وهو يعرج عند مدخل الشارع. «سقط منك شيء»، يقول. ويمدّ لك مجلّة: «كانت عند قدم المقعد. لا شكّ في أنها سقطت منك لمّا نهضت». تأخذينها كأنك إنسان آلي، وتوسوسين: «شكراً!»، لكنك لا تفكرين فيما إنْ كانت تلك المجلة لك. لا تفكرين في هذا النسيان الصغير، وإنما في المرأة على الهاتف. وتردّدين: «شكراً». والآن، صار صوتك ضعيفاً خائراً.

ربما كان اسمك إيلينا بيلا غاستون. لكن، كم هو مختلف عن اسم إيلينا بيلا غاستون، (إن كانت هي تلك) التي أمرتك بثقة لا ترحم: «اتركي رسالتك!».

تسيرين بضع مئات من الأمتار، وتقفين أمام كنيسة وتدخلين ولا تتنبّهين كيف تعرفين أن هذه كنيسة. أنت، كشأنك في المقهى، لا تريدين أن تسألي نفسك إلا ما هو ضروري. أنت في كنيسة، ولا يكلّفك جهداً أبداً في أن تتعرّفي إلى وجوه القدّيسين، وإن كنت ما تزالين من دون أي فكرة عما تكونين. وتفكّرين، ربما تهدئة لنفسك، أنّ ما حدث لك خطير، لكنه كان يمكن أن يكون أسوأ من ذلك. تجلسين على أحد المقاعد وتتخيّلين نفسك مذعورة، أو تثيرين الذعر في نفسك، في إيلينا بيلا مثلاً، عالمةً تمام العلم أنك إيلينا بيلا، لكن من دون أن تعرفي تقريباً شيئاً عمّا يحيط بك. فتتأمّلين بفزع صوراً دامية، وصلباناً ومسامير وتيجاناً من الشوك، وأجساداً راقدة، وأضرحة وراهبات ورهباناً (لكن إيلينا لا تعرف ما هي راهبة أو راهب) وهم في موقف ضارع، وعيونهم شاخصة في الفراغ مشيرين إلى آثار الحروق والجراح بيد، وباليد الأخرى إلى كفّ الشهيد (إيلينا لا تعرف أيضاً ما هو الشهيد). لكن كل ذلك محال. شيء قد يحدث فقط لساكن من مجرّة أخرى، إلى متوحّش جيء به من الغابة مباشرة. لكنه لا يحدث لك. تعرفين بالضبط من هم ولماذا هم هنا. لا تشعرين بالخوف. لذلك تنهضين عن المقعد وتقتربين محتمية بالظلّ المعتم، من كرسي الاعتراف، وتنتظرين إلى أن تفرغ سيدة مسنّة راكعة، من قصّ خطاياها. وتركعين أنت وتقولين: «السلام على مريم المطهّرة». وتظلّين صامتة للحظة. تجهلين ما إن كانت هذه العبارة التي لفظتها شفتاك ما تزال سارية. وتتنبهين حينئذ إلى أنك لم تركعي عند كرسي الاعتراف منذ فترة بعيدة. وفي لحظة واحدة، ترين نفسك صغيرة. تستطيعين أن تري نفسك لمّا كنت صغيرة. تصبح

الكلمة غير لامعة ومن دون طراز وزخرفة. وإنما هي أنت منذ ثلاثين عاماً ونيف، مُذِ اعترفت: «قلتُ أكاذيب، وتخاصمت وإخوتي...». لا ريب في أن الكاهن أصمّ أو أعمى. أو يتظاهر بأنه يسمع بينما يكون عقله شارداً في مكان بعيد. لكنك بحاجة إلى الكلام من أجل إسماع صوتك. وبغياب قائمة أخطاء تتّفق وسنَّك تخترعينها. مارستُ الدعارة مرة أو مرتين حتى خمس مرات. سرقت مصرفاً. سرقت سترة مبطّنة بالحرير من أحد المحلّات. تتكلّمين ببطء، وتسألين نفسك سرّاً ما إن كنت لا تطلقين العنان لكومة من الرغبات المخبوءة. لكن صوتك البطيء المرخّم يذكّرك فوراً بصوت مذيعة محترفة، بصوت ممثّلة. حينئذ تقومين بذلك. تردّدين رقماً من دون تحديد، ثم رقماً آخر وآخر. لكنك حين تقولين: «اتركي رسالتك عند سماع الإشارة. شكراً!»، لا يساورك أدنى شكّ في أنك المرأة ذاتها التي أجابت على الهاتف. تتخلّين عن الاعتراف مندفعةً من دون أن تزعجي نفسك بالالتفات إلى الوراء، وتتحقّقي مما إن كان الكاهن أصمّ أو أعمى حقّاً. أو حين يطلّ الآن من بين ستائر البويب ويراقبك وأنت تجرين مذعورة.

هواء الشارع يجعلك أحسن حالاً. ساعة الكنيسة تشير إلى الحادية عشرة وعشر دقائق. لكن، أيمكن أن تظل الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق؟ امرأة طيّبة من المارّة تلاحظ اضطرابك، وتنظر إلى فوق، وتهزّ رأسها وتُعلمك أن ساعة الكنيسة لا تعمل منذ سنين. «إنها الساعة الثالثة»، تضيف. لطيف أن يكلّمك أحد بهذه الألفة، يُكلّمك، أنت المجهولة الأبعد غاية في المجهول. تتقدّمين بضع خطوات. وبسعادة غير منتظرة تقفين أمام لوحة. اسم الشارع الذي تقفين فيه يتطابق لحسن الحظّ، واسم الشارع المذكور في بطاقة الهوية، وبطاقة العضويّة في نادٍ رياضي. «يجب عليّ أن أكون شجاعة»، تقولين لنفسك. «يقيناً أن إيلينا بيلا امرأة شجاعة».

***

الساعة الثالثة مساء ساعة طيّبة هادئة. تفترضين أن البوّابين -إن كان للمبنى بوّابونِ- محتبسون في غرفهم، يتناولون الطعام ويستمعون إلى الأخبار أمام التلفزيون غافلين عمّن يدخل أو يخرج من باب العمارة. يُشارُ في بطاقة عضوية النادي إلى أنك تسكنين الملحق. تفكّرين: «يسرّني أن أسكن أعلى طابق». مرآة المصعد تعكس هذا الوجه الذي أَلِفْتِهِ، وتخفينه وراء نظارة ملائمة غامقة اللون، عثرت عليها في حقيبتك. نعم تفضّلين السُكنى في ملحق على السكنى في أي طابق آخر. لكن، أأنت شجاعة حقّاً؟ هل إيلينا على هذا القدر من الشجاعة؟

كلّا! كلّا، لست شجاعة. لمّا بلغتِ غايتك، ووقفت إزاء باب خشبي، أخذت ترتعدين وينتابك الشك وتطرحين على نفسك كومة من الاحتمالات كلها متنافرة، مخفيّة. ذهنك يعمل بإيقاع عاصف. صوت طيّب ينبع من داخلك ويحاول تهدئتك. في عينيّ الشخص الذي فتح لك الباب (تتذكّرين: هو لا يستطيع أن يرى عيني)، في ألفته، في تحيّته، بل ربما في دهشته، تستطيعين أن تقرئي ذاتك، أن تعرفي كم قضيت من الوقت متسكّعة في الشوارع؛ وكم كان غيابك غير معهود وغير عادي. صوت آخر يطمئنك. أنت في قلب الخطر وعين الإعصار. فمن أنت؟ أما كان من الخير لك لو وضعت نفسك بين يدي طبيب، أو تهرعين إلى مشفى أو تطلبين مساعدة الكاهن؟ قرعتِ الباب ست مرات، ولا أحد يجيبك. لا تلبثين أن تعثري على المفاتيح وتفتحي. ثم تتوقّفين بعد تردّد، بعد ثوانٍ حاولت خلالها أن تتشجّعي. ماذا ستلقين هنا؟ ألن تجدي «هنا» ما دفعك إلى الفرار حقّاً؟ ما لا ترغبين في رؤيته لأيّ سبب من الأسباب؟

أنت على وشك أن تغادري البيت، وتهبطي الدرج راكضة، وتلجئي إلى المجهول، إلى النسيان. لكنك دفعت الباب. تطمئنك رؤية شقّة الملحق

الشامس. تطوفين في الغرف غرفة غرفة. تذكّرك فوضى المخدع بفوضى علبة زينتك. الصالون فيه شيء من سترتك المخيطة بإتقان. سترة تضعينها الآن على الصوفا من دون اكتراث. تشعرين بالراحة في البيت. تطوفين فيه كأنك تعرفينه. على طاولة المطبخ تجدين بقايا طعام الفطور. الخبز ليّن طازج. وما عليك إلا أن تسخّني القهوة. كل ذلك يبدو لك للحظة حلماً. «كم يسرّك أن تكوني إيلينا بيلا! وأن تقطني آخر طابق، أن يكون لك الوجه الذي تعكسه المرايا، وتتناولي طعامك كما تصنع هي الآن في الساعة الثالثة والنصف مساء، في مطبخ مغمور بالشمس!».

أنت إيلينا بيلا غاستون. تعلمين أين تجدين الجبن والسكّر والمربّيات، لا تتردّدين في فتح دروج مودعة فيها الأغطية والمناشف. بعض الصور المؤطّرة تعكس صورتك لمّا كنت أكثر شباباً إلى حدٍّ ما. صورة لا تسرّك كثيراً، كما تسرّك الصورة التي تنعكس في مرايا الحمّام والصالون والمخدع. بعد ساعات عدة صرت تعلمين كثيراً عن نفسك. فتحت خزناً وألبومات. جلست إلى مكتب الدراسة. أنت إيلينا (لماذا فضّلت من قبل اسم هيلينا؟). بلغت من العمر سبعة وثلاثين عاماً. تقطنين ملحقاً فسيحاً شامساً؛ ولا تعيشين وحيدة. في الألبوم يظهر رجل بصورة دائمة. اسمه خورخِه. تعلمين فوراً أن اسمه هكذا، وكأن الصور التي تتحرّينها الآن بقلق، فيها أسطورة، فيها ملاحظة في أسفلها، أو عنوان تتعرّفين فيها إلى بلدان ومواضع. تتوقّفين إزاء فئة باسمة عند طاولة في مطعم. وتقدّرين أن ذلك العشاء بدا طويلاً ومملاً بشكل لا يُصدّق. لكنك تقفين خاصة عند صورة خورخِه. يجري لخورخه ما يجري لك. هو أحسن حالاً في الصور الحديثة عما هو في القديمة. ينتابك إحساس خاص كلما التقيت صورته، مثل إحساسك حين تفتحين خزانة وتداعبين ثيابه. لا تجدين في الألبوم صور حفلة زفاف. لكن، أيمكنك أن تتخيّلي نفسك ببزّة زفاف منذ

عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً؟ كلا! تقولين أنا لم أتزوّج، ولو تزوّجت لما لبست ثوباً أبيض. «يثير خوفي زفافي بثوب أبيض». لكنك لا تتخيّلين بل تفترضين. منذ برهة، مذ خلعتِ السترة بشكل عفوي كأنك في بيتك، كأنك مثل من يعود إلى بيته في نهاية يوم عمل، وذهنُك ذاته يجهد في أن يكتشف ما تعلمينه من قبل، وما سوف تتعرّفين إليه، شيئاً فشيئاً. لأنك تجدين شيئاً جميلاً في هذا اللقاء المتجدّد، شيئاً قد يسرّك أن تتشبّثي به، أو توقفي مسيرته وتطيلي من أمده. لكنه ذكرى تعاسة أيضاً تمتزج بسعادتك، ذكرى تهملينها وتؤجّلينها وتخشينها بصورة لا واعية.

السكرتيرة الآلية سجّلت مكالمات هاتفية عدة. إحداها صمت. تعرفين أنه صمتك على الطرف الآخر للهاتف، لمّا كنت في مغاسل بار، حين لم تكوني سوى امرأة مجهولة.

مكالمة أخرى من مكان العمل، من هيئة التحرير. من المجلّة ذاتها التي أعادها إليك النادل، ذلك الرجل المسكين الطاعن في السنّ والمُرهق للغاية. «سقط منك شيء»، ولا تُولينه أدنى اهتمام، غارقة في نسيان آخر. المكالمة الأخيرة من خورخه. «هيلينا» يقول (على الأقل، خُيّل إليك أنك تسمعين «هيلينا»). خورخه سيصل غداً في الليل. إنك، وإن كان يسرّك في تلك اللحظة، لو أن «غداً» ولّى وانقضى، تقولين الأمر هكذا أفضل كثيراً. حتى في هذه الحالة حالفك الحظ. أنت مستاءة بسبب الحماقات وتوافه الأمور التي يرتكبها دائماً، كلما انطلق في سفر ووصل متأخّراً عن الموعد. أو، ببساطة كدأبه دائماً.

لكنّ هناك شيئاً آخر. تعاستك لا علاقة لها بخورخه وحده. وإنما بعملك، ببيتك، بذاتك نفسها. سخط دائم وقلق مُحال عشتِ بهما خلال أعوام وأعوام، ربما عشت بهما الجانب الأكبر من حياتك. «بيلا غاستون»،

تسمعين على حين غرّة، «شاردة دائماً. لِمَ لا تنتبهين إلى الدرس؟». لكن لا حاجة بك إلى العودة إلى ذكريات جدّ قديمة. «هذا عبث»، إنه صوت خورخه يناديك منذ أسابيع تقريباً. «يُخيّل إليّ أنك سعيدة حيث لا تكونين...». حينئذ، تدركين أنك امرأة محظوظة. «تبارك الغياب!» تهمسين. لأنك مدينة في كل شيء لهذا الغياب الموائم اللذيذ الغامض: لهذه الساعات التي جعلتك تخرجين من ذاتك وتعودين إليها وكأنك ما كنت تعرفين ذاتك، وكأنك ترين نفسك لأول مرة.

طاولة العمل غاصة بالمخطّطات والرسوم والمسوّدات. تمسكين ورقة، أي ورقة، وتكتبين عليها «غياب» بأحرف ناعمة تميل ميلاً قليلاً جهة اليمين. وبمساعدة قلم تخطيط، تحيطينها بهالة. لن تتحرّري من الورق أبداً. ستحملينه في محفظتك حيثما توجّهت. تطوينه بعناية. وإذ تصنعين ذلك، تحرصين على ألا تتركي للمصادفة وجوداً. لأنك كنت ستختارين، من بين خيارات ممكنة ورقاً مموّجاً لمّاعاً. تنظرين إلى نُثار الألوان فيه تجدينها رمادية، بنّية، بنفسجية. وهكذا أنت في بحر ذي أمواج رمادية، بنية وبنفسجية تطفو فوقها الآن خشبة نجاتك: «غياب».

ترين نفسك متعبة، مرهقة، وقد أقبل الليل. وغداً ينتظرك يوم مشحون بالعمل. لكنك تشعرين في قرارة نفسك، بأنك مولود جديد ما عليه إلا أن يهنّئ نفسه بحظّه. ولمّا استلقيت أخيراً، فوق السرير، كان الوقت قد تأخّر كثيراً. كنتِ مُستنزَفَةَ القوى، وكنت ألفتِ سعادتك تقريباً.

***

يقطع المنبّه عليك جولة في مياه شفّافة، فاترة هادئة. تتقلبين لحظة أخرى في السرير، لحظة واحدة فقط. كنت ما تزالين على ظهر مركب مستلقية في أرجوحة مُعدِّدةً كل ما ينبغي لك أن تصنعيه اليوم، يوم الثلاثاء،

«يوم المونتاج». وكأنما تخادعين النوم، أو تقتطعين وقتاً من الحلم نفسه. يحدث لك الأمر ذاته دائماً. لكن عقارب الساعة تتابع جريانها العنيد. وتُفاجئين مثل كل صباح، من أن تلك اللحظات التي كسبتها، ما هي إلا دقائق ضائعات. على الطاولة الليلية تقويم صغير ذو جلد أخضر، يذكّرك بالتزاماتك. «المونتاج في الساعة التاسعة»؛ «المطار ليلاً: خورخه». تقضين في الحمّام وقتاً كهبّة ريح، وترتدين ثيابك على عجل. وإذْ تصبحين في الشارع، تنتبهين إلى أن النهار أصبح رمادياً، والسماء تنذر بالمطر. أمّا الحياة في ساعة الكنيسة وحدها، فما تزال واقفة بعناد عند الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، كما هو الحال كل يوم، وإن كان هذا اليوم -تقولين في نفسك- ليس مثل كل يوم. كنت ما تزالين غارقة في نوم، نوم غير مفهوم. لكنك كنت هادئة، مرحة. ستذهبين إلى المطار ليلاً. منذ سنين كثيرة لم تقصدي المطار بحثاً عن خورخه. تتوقّفين عند كشك وتشترين صحيفة كما تفعلين كل صباح. لكن لماذا تقومين بذلك، هذا اليوم، إن كان هذا الصباح لا شأن له بالروتين المعروف كل صباح؟ أنت عجلى، ولن تَحظَيْ بلحظة واحدة حرّة حتى الليل، ولا ترغبين رغبة صادقة في أن تقابليه في المطار. لا تجدين نقوداً وتفتحين المحفظة. عاملات الأكشاك لا يعجبهن أبداً أن يُدفع لهن بفئات من ذوات الألف، وإذْ تنظر إليك العاملة وراحة يدها مبسوطة، فلا يبدو عليها أنها تمزح، تنتهين إلى العثور على ما تبحثين عنه. لكنك تعثرين أيضاً على ورقة مطويّة بعناية.

***

رؤيتك «غياب» تملؤك بسعادة غير منتظرة. تغمضين عينيك. كلمة غياب بيضاء، لامعة، مطرّزة مثل هيلينا، مثل مطار، مثل سفينة... «أنا نفسي كتبت هذه الكلمة على ورق مموّج قبل أن آوي إلى سريري، قبل أن أنام».

شكل الحروف يبدو لك طفولياً لذيذاً. (طفولي يضرب إلى الزرقة. قد لا تستطيعين أن تحدّدي غير: ضارب إلى الزرقة). ويسرّك أن تكوني لمدة لحظات، طفلة لا يجب عليها أن تبكّر أو تذهب إلى العمل. لكن، أليس هذا العمل ما كنت تحلمين به حقاً وأنت طفلة؟ بلى. لكنني كنت أحلم أيضاً بالسفر، وبالإبحار في قارب كقارب هذه الليلة. ما أجمل أن تشعري الآن بأنك تستلقين على ظهرك في أرجوحة؛ أن تدعي هذه الساعات تمرّ بطيئة، وتتذوّقي مرطّباً، عصيراً غريباً، شيئاً مثلّجاً! تفكّرين: «مثلّج»، لكنك وصلت الآن إلى غرفة التحرير، وتنادين مساعدتك، وتطلبين قهوة «نحن في الشتاء. المثلّجات وقت الصيف، والقهوة في الشتاء». وتنظرين إلى الفتاة بودّ. وتُدهش هي: فلعلّك لم تنظري إليها بودّ أبداً، وإن كنت تنظرين، في الواقع، إلى نفسك، إلى دوّامة من الجمل تشقّ لها طريقاً في عقلك الذي ما يزال مُنوّماً. تبتسمين وتفتحين التقويم وتخطّين: «في الساعة التاسعة: مونتاج». ظلت الفتاة واقفة قرب الباب، وتشك في أن وراء ابتسامتك يختبئ طلب جديد، أمر. «قهوة!» تكرّرين. «فنجان قهوة مزدوج». تعارضك بجمود حركتها. أمامك كومة من الأعمال وكمّية من المشاعر لا تستطيعين تنظيمها، وهي تقف ساكنة منطوية على نفسها قرب الباب. «ألا تزالين هنا؟». وتحرّكت المساعدة. صوتك كان له رنّة جافّة، ضاغطة، أبعدك عن دوّامة الأفكار والأصوات التي تِهت فيها منذ قليل. «تائهة»، تقولين. لكن الكلمة ليس لها لون. ولا لون لما كتبت على الورق المموّج الذي تنشرينه على الطاولة وتطوينه مرة أخرى. رقائق رمادية، بنيّة، بنفسجية.

تطلبين بعض النصوص، وتعترضين على بعض الصور. أنت في مزاج سيئ. لكن، لا يبدو أن أحداً في هيئة التحرير تنبّه لذلك. ولا أنت نفسك. ولعلّ الأمر يجري هكذا دائماً. وربما كنت، أنتِ إيلينا بيلا غاستون، على

هذا الشكل دائماً: مستاءة باستمرار، راغبة في أن تكوني امرأة أخرى في مكان آخر من دون تقدير لإمكاناتك بما تحلمين. أنت غائبة أبدية لا يُرجى شفاؤها. تعودين إلى التقويم، وتخطّين: «المطار ليلاً: خورخه». يا للحماقة! فيمَ تفكرين؟! وما عساه جرى لك؟ إذا كنت تملكين شيئاً واضحاً ذلك الصباح لمّا جهدت كثيراً في أن تستيقظي، وبدا لك خلال لحظات أنك ما تزالين تبحرين في مناطق مدارية، راقدة في أرجوحة، فذلك أن حياتك كانت دائماً رمادية وبنيّة وبنفسجية، وأن اليوم الطالع ما هو إلا يوم آخر، يوم مثل سائر الأيام. يوم يشبه الأيام الأخرى شبهاً تاماً.

***

مع آغاثا في إسطنبول

كلّ عام، كان خوليو يردّد الكلمات ذاتها عند اقتراب موعد بعض الأعياد: «سأقضي عيد الميلاد القادم في مكان لا يُحتفل فيه بهذا العيد». أمسكت به هذه المرة، من كلمته. كان سلوكاً متهوّراً وعفوياً؛ كان قراراً ما زلت أدهش له، لمّا توقّفت أمام وكالة سفر، ورحت أنظر إلى الإعلانات في الواجهة، وفتحت الباب من دون وعي تقريباً، ودخلت وطلبت تذكرتين إلى إسطنبول. أوحت إليّ الموظفة بأن أحدّد تاريخ العودة قائلة: «لديك عرض خاص جداً، لا يشمل الفندق. لكنه مُربح للغاية إذا حددت العودة بعد عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً». وقلت من دون أن أفكر في الأمر جيّداً: «خمسة عشر يوماً». كان ذلك، صباح يوم اثنين من أيام شهر كانون الأول الباردة. في اليوم التالي هبطنا في مطار إيبسيلكوي مساء، ونحن نكاد لا نصدّق أنفسنا. وقلت:

- «لديّ إحساس بأن أموراً ستحدث لنا».

هُرع الضباب إلى استقبالنا حتى باب الطائرة. وكان يُشتمُّ صمت غريب في المطار الغاصّ بالناس، وألقيت نظرة على ما حولي. كان كل شيء يبدو لي مُحالاً، وغير واقعي. إذْ لمّا تمضِ أربع وعشرون ساعة حين كنت أقف أمام حقيبة فارغة سائلة نفسي: «أَيكون الطقس بارداً جداً في

إسطنبول؟» وأضع فيها كنزات وأوشحة وبناطيل وتنّورة طويلة (على سبيل الاحتياط)، وزوجاً من القبّعات وبعض الكتب، وذهني مشغول، في أثناء ذلك، بسلسلة من الصور عن مدينة أجهلها: سانتا صوفيا، والمسجد الأزرق، البازار الكبير... لكن، ها نحن في إسطنبول داخل سيارة ومتاعنا صار في مستودعها، وخوليو يشير إلى السائق منكمش الكتفين: «بيرا بالاس!»، وأنا أشبك أصابعي ببعضها خِفْية: «عسانا نجد مكاناً في فندق من الدرجة الأولى، في بيرا بالاس تحديداً».

لم نحجز في الفندق مسبقاً. هذا التفصيل الذي شُغلت عنه بالحقيبة في برشلونة، أعادني إلى أزمنة منسيّة، أزمنة غالية عزيزة، أزمنة بعيدة جداً. فكرت خلال الرحلة في تلك الأزمنة، لأن الحجز في فندق لم يكن ضمن مفرداتنا، وإلا لعددناه رفضاً وحماقة ونقصاً حقيقياً. ما كنا نختار حيّاً معيّناً ومجهولاً تمييزاً له عن أحياء أخرى مجهولة أيضاً وفاتنة حقاً. لكنني ما كان يخامرني أدنى وهم بأن أعيش هذه الأزمنة مرة أخرى في إسطنبول، في هذه المدينة التي أشاهدها من خلال زجاج عاتم. لأن أعوامي الأربعين التي أصابها البرد بالخَدَر، جعلتني أدرك أني خلّفتها ورائي بعيداً، بعيداً جداً. ظلّت رهن عصور أخرى ولن تبرح مكانها. شبكت أصابعي مرة أخرى. أيوجد مكان في بيرا بالاس؟ نعم، يوجد. وسرعان ما قابلت حسن الحظ بالجحود، كعادتنا -بني البشر-، ونسيت لحظة الشكّ التي انتابتني داخل السيارة، وبدا لي كلّ شيء عادياً ومتوقَّعاً ومنطقياً.

كنا في موسم ركود، لأن الطقس الرديء بثّ الخوف في نفوس السيّاح المحتملين، والتدفئة فوق ذلك، كانت تعمل متعثّرة. لمّا وصلنا إلى حجرتنا في الطابق الثالث وتحقّقنا من أننا خُصصنا بغرفة «سارا برنار»، تذكّرت آغاثا.

قلت: «قرأت في كتاب ما، أن آغاثا كريستي أقامت هنا».

كان خوليو فتح باب الشرفة، وبدا عليه أنه يتأمّل القرن الذهبي مفتوناً. دنوت منه. ما كان يُرى أيّ شيء مطلقاً. وعلّقت: «غداً، إن واتانا قليل من الحظّ، سينقشع الضباب». لكن الضباب ظلّ في اليوم التالي وفي يوم آخر، ويوم ثالث أيضاً، مسيطراً على المدينة.

كان الأثر الناجم عن ذلك طريفاً. فكنّا نعبر جسر «غَلَطَة» كالعميان تقريباً، ونلمح ظلال المساجد والكنائس والقصور، إلى أن نصبح داخلها. حينئذ، كنا نتيقّن أنها بالفعل مساجد وكنائس وقصور. كان يبدو أن المدينة جاهدة في أن تتجلّى لنا قطعة قطعة، وتكشف عن أبعاد داخلية مضاءة ومفعمة بالحياة في مشاهد من الظلال فُتنتُ بها. نقلت إحساسي بذلك إلى خوليو ونحن في مقهى البازار الكبير. خوليو الذي كان يكره الضباب دائماً، تبسّم لي من وراء الصحيفة. «انتظر حتى الصباح. الديلي نيوز تبشّر بطقس جيد». كان ذلك لمّا اقترب النادل بإشارة منا، وقلت: «Iki kahve ve maden Suyu, Lütfen»(*)، فابتسم الرجل وانعقد لسان خوليو من الدهشة. «حسن!» -سمعت بعد لحظات- «أهذا أحد الأمور التي ستحدث لنا؟ منذ متى تتكلّمين التركية؟». هززت كتفي. بصراحة، ما كنت أعلم.

في اليوم الرابع، أصبح الصباح خلافاً لكل توقّع، مكفهرّاً كالأصباح الأخرى. أطلَلْتُ من الشرفة ونظرت ناحية القرن الذهبي، من دون أن أميزّ شيئاً يمكنه أن يذكّرني بالقرن الذهبي. لكنني كنت في آن واحد، أستطيع أن أراه لفرط ما شاهدته في الصور، وفي البطاقات البريدية وفي الأفلام. ودهمني شكّ مفاجئ ما كنت أستطيع الإفصاح عنه بصوت عالٍ من دون أن أحسّ بغلالة من الخجل: هل إسطنبول موجودة؟ هذا الإحساس الذي استولى عليّ في المطار عند نزولي من الطائرة، لم يلبث أن ازداد تلك الأيام.

(*) بالتركية في الأصل، وتعني: «فنجانا قهوة مع ماء معدني، من فضلك».

لكن، أموجودة أنا فيها الآن؟ أو بالحَرا، ماذا فيها؟ خلفي بعض اللوحات تنسخ لمحات من تلك المدينة التي كانت تأبى أن تتجلّى لنا كاملة: البازار الكبير، الحرملك في توبكابي، وسانتا صوفيا. عند مدخل الحمّام كان يبرز نصّ مكتوب بلغة إنكليزية طريفة، يسرد الأحداث التي ميّزت الحياة في الفندق. فقد نزل فيه ضيوف كبار كآغاثا كريستي، وسارا برنار، وماتاهاري، وأتاتورك نفسه؛ وجرت فيه جرائم واغتيالات؛ وانفجرت قنبلة في المدخل عام 1941 ما يزال بالإمكان رؤية آثارها. وسرّني أن سرحت مع الخيال قليلاً في أنّ الانفجار لم يكن مجرد فرقعة استعراضية كما يقال هنا؛ أو أن المدينة التي ما زلتُ أجهد في أن أتحرّاها من شرفتي، ربما لم توجد قطّ؛ أو أنها كانت ضحية قصف أو كارثة أو زلزال، أو دمار شامل، وبقيت منها مشاهد فقط أشدّ عناداً من غيرها، استنفدت قوانين العطالة حتى المدى الأقصى، وتحدّت حسابات الزمن، وكانت تكافح لتشكّل جانباً من الماضي. لذلك، كانت تنبعث منتفعة بطاقاتٍ لا تُحصى، على هذا الشكل هنا وهناك سواء كان البازار الكبير أو المسجد الأزرق أو سانتا صوفيا. كل ذلك دام لحظات معدودات. أمّا نحن، خوليو وأنا، السعيدان الغافلان، فكنا نحرّك لوالب مخفيّة في ما هو قريب منا أو في أي شيء آخر، فتندفع لوحات تُضاء فجأة، وتكتسب حياةً ما إنْ نبتعد عنها حتى تغرقَ مرّة أخرى في ظلمة غاشمة، بانتظار أن تعود فتتجلّى في أقرب مناسبة وتتابع حياةً انتُزعت منها، وتكرّر آليّاً سلسلة من الأفعال كان لها في حينها معنى. لأنني أسأل، وأنا أتذكر مساء أمس في البازار الكبير: «أكان هؤلاء التجّار المَكَرَة الذين يبسطون كلّ نوع من البسط أمام أعيننا يبسطونها حقاً؟ أبسطوها؟ أو أن أحداً لم يصنع شيئاً من هذا؟ وأن تلك المشاهد التي نحسب أننا نشارك في صنعها ليست سوى روتين من أزمان أُخَر تطلّ بعناد وقوّة كبيرة على الحاضر حتى لا يستطيع حضورُنا الضعيف أن يعكّرها. كان يعجبني

التفكير في هذه الأشياء وأنا أطلّ من شرفة الفندق المسكون بالأرواح، وأتأمّل الضباب فوق مدينة كانت اختفت منذ لحظة.

لا أدري كم قضيت من الوقت ذاهلةً من دون أن أبالي بالبرد، لكن ظهور صبيّ التنظيفات المباغت أعادني بعنف إلى دنيا الواقع. كنت في فندق بيرا بالاس وعامل التنظيفات ينظر إليّ الآن دَهِشاً حاملاً رزمة من المفاتيح تخشخش في يده. لكن، ممّ هو دَهِش؟ فهذه قصّة معروفة بإفراط. ذلك أن كلّ المكلّفين بترتيب الغرف في فنادق العالم كلّها يبدون دهشتهم من نزيل ما يزال في غرفته. لكن دهشته في هذه الحالة اقترنت فوراً بدهشتي. كنت متجمّدة من البرد وأنا أرتدي قميصاً داخلياً وأطلّ في عزّ كانون الأول من شرفة لا يُرى منها شيء أبداً. «عشر دقائق»، قلت. وتخيّلت خوليو وهو ينظر إلى ساعته في الممشى، أو ينتظرني ناظراً من خلال النافذة. «قليل من الشمس»، تمتمت. «قليل جدّاً من الشمس لإدخال السرور إلى نفس خوليو». وتنبّهت حينئذ إلى أني لم أقل منذ لحظات خلت لذلك الصبيّ الذي اختفى باسماً خلال الباب «عشر دقائق»، وإنما «أون دكيكا»، بالتركية، وكأنّ صدى مختبئاً في الحجرة يعيد إليّ كلماتي ذاتها.

لم أُدْهش هذه المرة كما دهشت اليوم الفائت في البازار الكبير (الذي تحرّر الآن في ذاكرتي من كل ملمح لا واقعي، وظهر ببساطة كأي سوق كبير)؛ ولم أقع في وهم القول بأن أحداً، أو شيئاً ما نفث في مسمعي تلك المعرفة المفاجئة من دون إدراك مني. وقلت لنفسي: «اللغات كالأشخاص يتّفق المرء مع بعضها، وينفر من بعضها الآخر». خلال هذه: On Dakika التركية التي استنفدتها كاملة وأنا أفكر بالدقائق العشر (Diez Minutos) الإسبانية في ساعة خوليو، اغتسلتُ ولبست، ورتّبت الغرفة على عجل، ونبّهت عامل التنظيفات: «Lütfen, bana bir yorgan daha gönderinitz» لكنني لمّا قلت له ذلك، لما أبلغته بأنه لا يضيرنا لو أتانا

بغطاء آخر، جعلت بعض الأمور في نصابها الصحيح. تلك الكلمات التي استعملتها بطلاقة واضحة كنت رأيتها سابقاً. رأيتها في الطائرة وأنا أتصفّح فصلاً مكرّساً للجمل الجاهزة المستخدمة في أي دليل، وظلّت محفورة بنوعٍ من القابلية الغريبة في ذهني. ظلت متّسقة ثابتة من دون أن أدرك ما كانَ يحدث لي. والآن، ليس لديّ فسحة من الوقت للتمعّن في ذلك. إذاً، قابليّتي هي الأمر الوحيد المدهش. ولمّا بلغت الممشى، عجلى، سعيدةً، فرحة، تحقّقت من أن الكلمات الجاهزة تقوم غالباً على أسس من معرفة حكيمة بالواقع، وأن الدقائق (Minutos) التركية المحتملة لا علاقة لها بالدقائق (Daki-ka) الإسبانية.

***

خرجنا إلى الشارع، وتلقّانا الضباب مرة أخرى، والظنّ بأن تلك هي إسطنبول، كما يمكن أن تكون كل مدينة أخرى في العالم، والإحساس بأننا جدُّ قريبين أحدنا من الآخر، حتى لم نجد حاجة إلى التفكير في الخير بأن نكون معاً، إلى أن ظهرت فلورا. ذلك كأن أعوامي الأربعين برزت تلك اللحظة على المسرح بشكل غامض، مشكوك فيه. لأنها، حسبما يُخيّل إليّ أحياناً، تريد أن تساعدني، وتقيني وتنصح لي؛ وأحياناً أخرى، لا تبدو في الحقيقة، بذلك الوضوح.

***

سأتحدّث عن ذلك في ما بعد. سأتحدّث عن الحكمة التي تطلّ في الأربعين، كما يقال؛ عن أن الشخص في هذه السنّ، كما يقال أيضاً، يبدأ في معرفة نفسه ومعرفة الآخرين، ويعرف كيف يسير العالم؛ ويعرف أن يتنبّأ ويحدس ويتحاشى أشراك الحياة وخدعها؛ لكن، يجب عليّ الآن أن أركّز همّي على فلورا بصفاءٍ وعدل. باختصار، أكان يوجد شيء غريب في

ظهور فلورا ذلك المساء في الفندق؟ وجوابي لا يمكن إلاّ بـ«لا»، لا شيء غريب فيه مطلقاً.

كنت راجعة من جولة صغيرة في الحيّ، وتوقّفت عند مدخل الفندق، محاولة من دون نجاح، أن أحدّد آثار الانفجار التاريخي -القنبلة التي انفجرت عام 1941- على الجدران الرخامية. وبدا لي فجأة أني أسمع من يناديني، والتفتّ، وميّزت خوليو في الحال جالساً على صوفا في قاع الصالة يحيّيني بيده. نسيت القنبلة واقتربت.

«فلورا!»، قال وهو واقف.

حينئذٍ، لحظتُ شعراً طويلاً أسود مسترخياً على مسند المقعد.

«زوجتي!»، أضاف وقد أفسح لي مكاناً على الصوفا.

هو لقاء مثل كثيرٍ من اللقاءات التي كانت ترغم المسافرين على التجمّع في بلد غريب، والحديث المستهلك عن الضباب، وسوق الأفاويه أو البازار الكبير. لكن فلورا -وإن كانت صحّحت من وضعها وتماسكت في ما بعد، وشرعت تتحدّث عن الضباب وسوق البهار والبازار الكبير- سدّدت إليّ نظرة لا علاقة لها بحسن تصرّف المسافرين في بلد غريب. حضوري (فاجأها) من دون شك، وكأنها ما كانت تحسب أن لخوليو امرأة، أو أنه بمرافقة امرأة. قد يبدو ذلك زعماً مبتسراً أو أحمق. نعم، أقول لنفسي، من الأرجح أن يكون كذلك.

«أنا ذاهبة» -أعلنتْ بعد قليل وهي تجمع شعرها بمشبك، وتوجّه الكلام إلى خوليو فقط- «إذا أحببتَ أن تتناول العشاء، تذكّرْ: مطعم ياكوب. هو على الناصية قريباً من هنا. الجوّ فيه لطيف جداً».

كان هذا كلّ شيء. رحنا ننظر إليها -أنا وخوليو- وهي تغادر الممشى وتختفي بين زجاج باب دوّار. لكننا لم نكن وحيدين. إذ تمتم أحدهم،

وأرجح من طاولة قريبة: «أم م م م م...». لم أزعج نفسي بأن أتحقّق من يكون. واستندت إلى مسند الصوفا. وصرت أرى الآن بوضوح كبير، الرخام المهشّم، وبعض الشقوق والثقوب. وصحت: «آثار القنبلة!». كانت كلّها مجتمعة فوق رأسينا تماماً.

***

تناولنا تلك الليلة عشاءنا في مطعم ياكوب. كان، في الواقع، قريباً جداً من الفندق، وكان الجو فيه باعثاً على الانشراح ولطيفاً. وفوق ذلك، كانت تمطر. أوضّح هذه المظاهر الخالية من الأهمية، لأنني سأسأل نفسي في اليوم التالي عمّا دفعنا إلى التوجّه إلى مطعم ياكوب وليس إلى مطاعم أخرى ذوات أجواء حميمة، في وقت تمطر فيه، كما تمطر فوق أنحاء المدينة كلّها. لكن، لم يخطر في بالنا حينئذ التفكير في مطاعم أخرى. بل وجدنا نفسينا في أحسن حال في مطعم ياكوب. طلب خوليو مشروب (راكي)، وطلبت خمراً، وطلب كلٌّ منّا صحناً من السمك المقليّ كبداية.

«انظر!» -قلت وقد أخرجت كتيّباً من حقيبتي- «اشتريته هذا المساء. إنه "تعليم التركية". الشروح فيه بالإسبانية. ألا يبدو لك أن حظي حسن؟».

رفع خوليو كأسه، ورفعت كأسي، ولمّا نظرنا خلسة إلى الطاولات المجاورة، لاحظت أن كل روّاد المطعم يشربون الراكي ويأكلون سمكاً مقليّاً. وظهرت فلورا للمرة الثانية في هذا اليوم.مكتبة .. سُر مَن قرأ

دخولها مطعم ياكوب ليس فيه أيّ شيء استثنائي. فالمطعم، كما قلت، كان قريباً من الفندق. وفوق ذلك، كانت تمطر؛ وبعد كل شيء هي أشارت علينا به. لكن هيئتها، نعم، ربما كان فيها شيء من التكلّف وهي تنظر ذات اليمين وذات الشمال. (والآن كانت ترشدني حكمة غريبة إلى أن ملاحظتي لم تكن غبيّة).

«إنها فلورا!» -قال خوليو من دون ضرورة لذلك. (وأخفيت كتيّب تعليم التركية في الحقيبة)- «لا شكّ في أنها تبحث عن أصدقائها».

جلست فلورا إلى طاولة مجاورة لنا. وأدركت أنها كانت أعدّت نفسها تلك الليلة، قبل ظهوري في الممشى، للِّقاء بأصدقائها حيث اعتادت أن تلتقيهم هنا. لكنّ إلحاحها النسبيّ على الكلام عنهم، أو على إبداء دهشتها من عدم مجيئهم حتى الآن؛ أو على الشك في أنها هي التي تأخّرت عن المجيء كثيراً، والاستنتاج بآليات غريبة أن الموعد كان في مكان آخر، وأنهم في هذه اللحظة لا محالة، يبحثون عنها بيأس، كل ذلك بدا لي طفولياً وساذجاً. نظرت بمؤخر طرفي إلى خوليو. إلامَ ترمي فلورا؟ كان واضحاً أنها تعزو التأخّر الممكن إلى الآخرين، إلى أصدقائها. ألهذا السبب، تتحمّل كلّ هذه المشقّة؟ اللهم إن كان لها أصدقاء البتّة. وكان واضحاً أن من تبحث عنه تلك الليلة الباردة من شهر كانون الأول، هو نحن. وفكرت: «لا شكّ في أنها تشعر بالوحدة جداً».

وتناولتُ سمكة صغيرة مقليّة.

غادرنا مطعم ياكوب إلى حانة قريبة. تناول فيها خوليو وفلورا «راكي»، وطلبتُ «ويسكي». ما كنت أصنع ذلك في أوقات أخرى، لأنني معتادة من قبلُ -ربما منذ حوالي ثلاث سنوات أو أربع- أن أشرب ما يُقدّم في البلدان التي أزورها. لكن ذلك كان من قبل. لم تكن بي شهيّة إلى الراكي، واخترت من بين الزجاجات الصفر في «البوفيه» نوعاً من الويسكي. المشكلة كانت في الثلج فقط. لم يكن في الحانة ثلج، لكنهم يستطيعون أن يبحثوا عنه في... وحدجني خوليو بنظره، وكأنني ارتكبت خطيئة لا تُغتفر. واكتفيت بالماء.

«أنتما زوجان بالطبع» - قالت فلورا، وراحت تحرّك رأسها مرة أخرى من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين.

نعم، نحن متزوّجان. ولا حاجة بالمرء إلى أن يكون حاذقاً حتى يدرك أن تبادل بعض النظرات وبعض المواقف غير الواضحة وضوحاً كاملاً في ذاتها، يمكن أن تكفّ عن أن تكون كذلك في أي لحظة، بمجرّد تذكُّر مواقف مشابهة كانت واضحة جداً في حينها. فاكتفيت بابتسامة، وصببت قليلاً من الماء الفاتر في كأس الويسكي، وحاولت أن أقنع نفسي بأن فلورا لم تكن حمقاء في تعليقها. «إنها وحيدة». ردّدت في سرّي، «وتبحث عن شريك». ومع ذلك، كان هذا الأمر الأخير -أي حاجتها للشريك- ما جعلني آخذ حذري فوراً.

لِمَ لا يُترك الأزواج الذين قضوا معاً ردحاً من الزمن ينعمون بسلام؟ وخُيّل إليّ أني أحدّد التاريخ: «نعم، نحن متزوّجان منذ خمسة عشر عاماً». وتخيّلتها تقول وقد بالغت في تدوير عينيها: «يا للشناعة!»، لكنها كانت تهمس حقاً في قرارة نفسها تلك اللحظة: «رائع! لابدّ أن يملّا كلٌّ منهما الآخر ويفترقا كمحارتين. لقد صار لي أصحاب في إسطنبول». لذلك طلبتُ من النادل علبة كبريت وأشعلت لفافة، وشرعت أتحدّث بانفعالٍ كبير عن آغاثا كريستي.

كلّنا نعلم قصة «اختفاء» آغاثا كريستي المشهورة. لذلك سأمرّ عليها مروراً سريعاً. كان ذلك عام 1926 لما حسبها العالم، لمدة عشرة أيام في عداد الأموات. ويحتمل أنها فقدت عقلها خلال تلك الأيام؛ أو عانت من سُباتٍ حادّ، وهذا يبدو أرجح الأمور. لكن بعض الروايات ترى أن كل ذلك اقتصر على خطة ذكية للفت الانتباه، انتباه زوجها أساساً، فتتحاشى ما كان يمثّل لها تلك الأوقات كارثة: وهو الفراق أو الهجر. لكن، إذا كان الوضع على هذا الوجه حقاً، فلم يُفِدْها ذلك في شيء أبداً. (لأن زوجها حصل على الطلاق بعد فترة قصيرة، واقترن بصديقة مشتركة لهما). أما ما

كنت أجهله حتى وصولي إلى الفندق -وهما لا يعلمانه أيضاً- فهو الزعم بأن مفتاح السر يوجد تحديداً في الطابق الرابع في فندق بيرا بالاس، في الغرفة التي كانت تحمل اسمها: غرفة آغاثا كريستي. ولو تأمّلنا الأمر جيداً، لوجدنا غرابة في أن تكتب المؤلفة مذكراتها خلال زياراتها المتكررة إلى إسطنبول بين أعوام 1926-1932. فتسوّد صفحات من الورق، وتكشف النقاب في النهاية عما حدث حقاً في الأيام الغامضة. لكن أصعبَ ما في القضية، تصديق...

قاطعني خوليو وهو يرشف الراكي: «من فضلك! لا تقصّي علينا ما هو مطبوع على جدران هذا الفندق: قصة الوسيط الروحي، وروح الكاتبة وهي تشير إلى حجرة معيّنة، والعثور على المفتاح...».

قالت فلورا: «قصة جميلة! تصبّ كثيراً في مصلحة من اخترعها. وهي وسيلة ليظل الفندق مزدهراً.. ولو كان بفضل الأموات».

«أنتما لم تفهماني!» - أبديت احتجاجي. لكن، من الممكن أني بدأت لا أفهم نفسي.

كنت سأقول شيئاً. نعم، لكن، ماذا أقول؟ حينئذٍ، قمت بما لا ينبغي لأي مغفّل أن يقوم به. إذْ تابعت حديثي، وكأنني آمل بذلك أن ألتقط الخيط مرة أخرى.

أول ما كنت أرغب في توضيحه -أو عزمت على توضيحه في تلك الأثناء- هو أنني لا أنتمي إلى ذلك العرق المتهافت من عبَدَة المشهورين. وفوق ذلك، أتيح لي خلال حياتي فرصة التعرّف إلى بعضهم، وكنت أرفض دعواتهم بلطف دائماً. لا أشعر بذلك إلى صغار المشهورين، إلى الناس الذين يظهرون في الصحف لأيّ سبب، ولا إلى الأشخاص الذين قد برزوا في الفنون والآداب، أو في «أي مجال آخر»، وإنما يعجبني بصراحة

وفوق كل شيء، «هذا المجال الآخر» الذي تفوّقوا فيه. في هذه الحالات أو المناسبات التي قد تبلغ نصف دستة تقريباً، ماذا عساني وأنا الخجولة بالطبع، أن أقول لهم ما لا يعرفونه، أو ما لم يقولوه من قبل؟ كنت أحبّذ اللقاءات العرضية، والتلقائية. (قطعت حديثي وطلبت مشروب ويسكي. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الجانب الذي يتّجه صوبه الخيطُ الأول الذي كنت أرغب في التقاطه). ولم أكن أبداً من محبّي جمع الحكايات، ولا هاوية أو متعصّبة لأسفار في «ذكرى...» أو «على طريقة...»، وكنت أمقت خاصة الناس الذين يسمّون نماذجهم العليا سواء أكانوا يعرفونهم معرفة شخصيّة أم لا، بصيغ التصغير، أو بأسماء التعميد، أو بالألقاب المحبّبة التي لا يطلقها عليهم سوى أفراد أسرهم. ومع ذلك، كنت أدعو آغاثا كريستي، آغاثا. لئن بدا ذلك تناقضاً في الظاهر، فهو لم يكن كذلك مطلقاً. (وهنا وجدت طرف خيط غير متوقّع أصلح به ما يمكن إصلاحه من حديثي). لأنني كنت أحس بأن لي ملء الحق في ذلك. حق يخوّلني إياه العطف. وهو من جهة أخرى، امتياز لا أستأثر به وحدي. وعدت بذاكرتي حينئذ إلى أيام المدرسة، لمّا كنّا نتناقل رواياتها المجلّدة بورق أزرق، من درج إلى درج حتى تتمزّق؛ ونتمترس وراء كومة من الدفاتر والمعاجم لنقرأها بشغف في خفية. أذكر بعض العناوين: انتقام نوفريت، بيت سيّئ السمعة، جريمة في قطار الشرق السريع. وأخذت أستظهر بانفعال لائحة كاملة من رفيقاتي في الصف، لمّا أدركت بنوع من الحدس المتأخر، أنني لا أجد خيطاً فألتقطه مُذ كفَّ خوليو وفلورا عن الاستماع إليّ. وأتذكر الآن أني كنت بدأت الحديث عن آغاثا، لتحاشي الكلام عن أشياء أخرى. وقد لا يحدث شيء –وفي الواقع لم يحدث شيء– لو رفعت صوتي أو خفضته، أو أقفلت فمي فجأة.

تابعا شرب الراكي، ونشأ بينهما نوع من الصلة أُبْعِدتُ عنها بشكل آلي،

وظللت وحيدة، أنا وكأس الويسكي الفاتر. للكحول قواعدها، وتحالفاتها وإيقاعها. وهمستْ في أذني بقايا الحكمة: «من الأفضل أن أختفي قبل أن يتقدّم الليل لا محالة». فنهضتُ وقلت بلطف إني أشعر بتعبٍ شديد، لكن خوليو وفلورا نهضا أيضاً على الرغم من احتجاجي الذي ذهب سدى. فلم يفدني شيئاً إلحاحي على أن الفندق يقع بعد الناصية؛ وأن طريق العودة، وإن يكن الوقت ليلاً وماطراً، ليس أطول ولا أشدّ ظلاماً مما هو عليه في النهار. زد على ذلك، إذا كان الأمر يعني مرافقتي خلال مسافة الشارع القصيرة، فكنت في غنى عنها. لأنني كنت أتقدّمهما بحذر محاولة أن أتجنّب بقع الماء والوحل وتلالاً من الفحم أمام بعض الأبواب، يسيل منها سائل أسود. هما كانا يسيران خلفي على إيقاع الراكي، ويتكلّمان من دون توقّف، ويرغمانني على انتظارهما وتنبيههما إلى الحفر. وفكّرت: «لن يستطيعا الوقوف غداً على أقدامهما». لكنني في تلك اللحظة زلّت قدمي زلّة، وتعثّرت، ومددتُ يدي إلى عقبي بشكل عفوي. وتذكّرت وأنا أستند إلى باب الفندق أحد الأسباب التي كانت دفعتني إلى الحديث عن آغاثا. إذاً، كان في يدي خيط، خيط عارض بالطبع، قصة معيّنة، خاصة أنه محاولة لتجنّب الحديث عن شيء آخر.

سمعت وراء ظهري تقريباً: «اسمع! كم عاماً مضى على زواجكما؟».

ثم أضاف ونحن ندخل المدخل ونقطر ماء ووحلاً: «يا للشناعة!».

***

دقّ المنبّه الساعة التاسعة صباحاً. وأفاق خوليو قافزاً. وسألت نفسي وأنا ما أزال مغمضة العينين. من أنا؟ وأين كنت؟ ومن أين أتيت؟ خاصة، إلى أين أسير، كما يُفترض بعد دقّة النفير الذي هبط بي إلى دنيا الواقع بعنف. وقد وجد السؤال الأخير جواباً حاضراً: لن أذهب إلى أيّ مكان.

لأن قدمي كانت تورّمت تورّماً لافتاً للنظر، حتى لم أستطع تصديق نفسي لمّا نظرت إليها في مرآة الخزانة. القدم اليسرى كانت تبدو في مظهرها المألوف: ناعمة، ناتئة العظام، ربما أكثر من المعتاد. أما القدم الأخرى، فكانت على نقيض ذلك، ذات مظهر مضحك. ما كان بالإمكان التأكيد أنها كانت مشوّهة أو ممسوخة. فلو نُظر إليها معزولة عن غيرها، لبدت في ذاتها طبيعية تماماً. لبدت، إذاً، قدماً ممتلئة تمشي بساق عبلاء، ربما سمينة، لكنها ضخمة فعلاً. وتذكرت ما يحدث، كما يُزعم، للجرحى الذين بُتر أحد أطرافهم، فيظلّون يشعرون به، ويظلّ يؤلمهم. بشكل ما، يظلّ العضو كأنه في مكانه. أما أنا، فكان يحدث لي عكس ذلك بالضبط. فحاولت من دون جدوى أن أُدخلها في الجورب. في تلك اللحظة خرج خوليو من الحمّام مغتسلاً، مرتدياً ثيابه، حليقاً نضراً كالوردة.

«انظر!» - قلت له.

لم يلبث طبيب الفندق أن حضر بعد خمس دقائق. دهن الموضع بالمرهم، وبحث في حقيبته حتى عثر على زجاجة فيها أقراص حمر، وطلب، بإنكليزية جيدة، ألا أتحرّك خلال يومين إلا للضرورة القصوى، وأن أتناول المسكّن كل أربع ساعات. ثم ضغط على عقبي، على غير توقّع، وأطلقتُ صرخة من الألم. «كل ثلاث ساعات»، صحّح. لمّا شيّعه خوليو حتى الباب، ظللت أنظر إلى قدمي غير مصدّقة. كيف ابتليت بهذه المحنة؟ ولعنت من أعماقي إفراطي الليلة الفائتة في الشرب. ولعنت الفكرة التي قادتني إلى العشاء في مطعم ياكوب، والرهان المحال على الكحول المعروفة، وإن كانت ذات مصدر مشبوه، بدلاً من الراكي المحلي البريء والضعيف. لكني نجحت في أن أقول: «هيّا، ناولني جورباً من جواربك!». وتناولت قرصاً أحمر.

***

كان الصباح قاتماً كالمساء. وجلست في البار لصق النافذة تُحيط بي أقلام ودفاتر وكتب. وأشعر الآن بالسرور لوجودي هناك، وعيناي لاصقتان بالزجاج أراقب الناس يعبرون الشارع وقد حنوا قاماتهم وخدّرهم البرد. أو أكبّ على كتابِ محاولة القراءة على ضوء مصباح المنضدة الخافت. كنت وحيدة، إذا استثنيت النادل الذي كان يتثاءب في آخر القاعة جالساً وراء حاجزٍ من دون زُبُن، أو السمكة التي كان يبدو أحياناً أنها تنظر إليّ من داخل الحوض المضاء والموضوع وسط الصالة نفسها.

كانت تقف وسط الحوض وهي تفتح فمها وتغلقه. ومع ذلك، كانت تشرع بين حين وآخر في الصعود مخفية خطمها، مبرزة كرشها. حينئذ، كان يحدث شيء عجيب. لا أدري ما إن كان كل ذلك عائداً إلى المسافة الفاصلة بيني وبينها، أو إلى غلاصمها أو زعانفها وتقلّصات عضلاتها لضخّ الماء. لكن، كان يُخيّل إليّ أحياناً أن السمكة كانت تكفّ عن أن تظل سمكة ضخمة، قبيحة المنظر، فتتحوّل إلى وجهٍ لطيف طفوليّ. وجه كوجوه الصور المتحركة. وكان عليّ أن أنتظر التحوّل الثالث حتى تعرّفت إليه. إنه «جرس صغير». نعم، تحوّلت السمكة الرهيبة بغتة إلى «جُريس». لم أرَ في حياتي شيئاً مشابهاً. وسألت نفسي لحظة ما إن كان النادل الجالس في آخر القاعة، والذي يتثاءب الآن من دون خفاء، قد عانى ذات مرة في صباح قاتم كهذا الصباح، وهماً مشابهاً. ثم أصبحت لا أسأل نفسي شيئاً. ظللت ذاهلة وأنا أراقبها منتظرة أن تقرّر فتخفي خطمها مرة أخرى، وتكشف عن بطنها وتتحوّل من جديد إلى ما كنت أعلم أنها قادرة على التحوّل إليه. لكن رنين جرس، جرس حقيقي انتشلني من الحلم. وأقبل النادل يحمل لوحاً. وقرأت رقم غرفتي. كنت مطلوبة إلى الهاتف.

«كيف حالك؟».

كان ذلك صوت خوليو. كنت ما أزال أشعر بشيء من الخدر. وأبطأت قليلاً في الإجابة.

تابع: «التقيت فلورا في الشارع منذ قليل. اكتشفنا مطعماً رائعاً في كامبكابي إزاء البحر. لماذا لا تطلبين سيارة أجرة وتأتين إلى هنا؟».

نظرت إلى الجورب، إلى جوربه الأزرق المملوء بالفراغات، وقد شُدّ طرفاه إلى المدى الأقصى. أيحتمل أنه لم يُقدّر حجم إصابتي؟ وقلت إني أفضّل أن أستريح.

«كما تريدين. سأعود إلى الفندق بعد ساعتين».

عدت إلى طاولتي قرب النافذة، كان المارّة ما يزالون يعبرون الشارع، وقد حنوا قاماتهم، وصار الصباح أكثر صخباً وأشدّ قتامة. «كامبكابي!» قلت في نفسي: «كامبكابي! أيمكن رؤية البحر من ذلك المطعم في كامبكابي؟». نظرت مرة أخرى جهة قاطن حوض الماء الذي صار الآن ساكناً في وضع أفقي، بصفته سمكة ضخمة وقبيحة. لا أدري لماذا عاد بي الفكر حينئذ إلى الخلل في النسب في المساء الفائت، وإلى المدخل، وإلى فلورا. نعم، كنت أفكر حينئذ، في فلورا، أو بالحَرا، بدا لي أني فهمت فجأة الخلل في نظرتها. لم تكن نظرة موجّهةً صوبي، وإنما صوب الأعماق الداخلية. باختصار، كانت تتجه إلى غاية واحدة. فوجود خوليو مع امرأة، أو مع امرأته، يؤدي إلى نتيجة واحدة. وكان هذا اليقين يعاكسها. وإذا كنت أجتهد الآن، في إعادة بناء لقائنا الأول في المدخل، بدا لي أني ألمح شرارة، أو بعض الوميض في إنساني عينيها، ألمح بريقاً، ربما مجرد بقايا بريق؛ شرارة انطفأت بعنف لما شدّت على يدي، لكنها كانت تقودني مباشرة إلى ما يُحتمل أن كانت عليه من قبل، أي منذ لحظات خلت، لمّا كانت فلورا غير معروفة عندي باعتبارها فلورا، بل شعراً أسود جالساً على مقعد قبالة

خوليو. نعم، كنت مفاجأة لها. كنت مفاجأة بالنظر إلى كل ما كانت نسجته في وهمها في صمت. وتواتيني الجرأة الآن، على سبر النظرة الأولى لتلك المرأة التي كانت ما تزال مجهولة في نظري، وتتجاذب أطراف الحديث مع رجل كان يبدو أنها تحسّ بالراحة قربه. كانت نظرة وضيئة، واثقة، مغرية. نظرة امرأة ذات مشاريع ومخططات، ذات فكرة في ذهنها جعلها ظهوري المفاجئ، وحضوري البسيط من دون نتائج، على الأقل من دون نتائج آنيّة... لكن، ألا يتناولان طعامهما بهدوء في كامبكابي، في مطعم عجيب على شواطئ بحر مرمرة؟ وأنا، أثناء ذلك، أتأمل ذاهلة، كيف تتحوّل سمكة مشوّهة الشكل إلى جرس صغير.

تناولت قرصاً آخر. لقد وُفِّق الطبيب في العلاج. ولو لم أكن أنظر إلى الأرض، إلى هذا الورم الشائه الملفوف بجورب أزرق، لكنت استطعت أن أنسى السبب الذي جعلني أقضي نهاري بلا حراك في البار. طلبت شطيرة، وأخرجت كتيّب تعليم اللغة التركية من جيبي، وفتحته على أول صفحة: Ben (أنا)، Sen (أنت)، O (هو)، Bir (نحن)، Siz (أنتم)، Onlar (هم)... لكن خوليو وفلورا كانا يستمتعان بوقتهما لأنهما لم يظهرا في البار حتى حلول الليل، وقد كنت وصلت إلى الدرس السادس. وصرت أعرف العدّ حتى المئة، وأستطيع أن أدبّر أموري، وأصرّف من دون خطأ عملياً بعض الأفعال.

«نستطيع تناول العشاء هنا، إن شئت».

قلت ذلك بصوت خفيض وأنا أُري خوليو الجورب الأزرق. لم يسرّني أبداً الشعور بأني مريضة، وأسوأ من ذلك، الإفادة من وضعي المرضيّ. لكنني ما كنت أملك من القوى لأسير حتى الحاجز.

«يا للرعب! مجرّد التفكير في الأكل...» نطقت فلورا. والتفتُّ نحوها دَهِشة.

واستمعت إليهما يتحدّثان بإسهاب عن الأطعمة التي ذاقاها في مطعم كامبكابي؛ عن الحلوى الجزيلة التي جهد صاحب المطعم في تقديمها إليهما ولم يجدا مناصاً من قبولها مجاملة له؛ وعن كؤوس الخمر النبيل التي ظلا يتناولانها في مقصورته. ثم عودتهما سيراً على الأقدام. كانا يشعران أنهما مثقلان ويحتاجان إلى المشي واستنشاق الهواء. استمعت إلى حديثهما عن الكهوف التي صادفاها في طريقهما بأعجوبة كالسحر. وهنا استأنف خوليو المتحمّس مسار الحديث. ذلك الكهف كان مشهداً عظيماً لا يُنسى، بل أعجب مشهد شاهده حتى ذلك الحين. يمثّل كاتدرائية حقيقية غاصت تحت الأرض. سيقلّني إليها متى استعدتُ عافيتي، وما كان يهمّه أن يزورها مرّة ثانية وثالثة. لكن فلورا التي التقطت حبل الحديث من جديد، كانت قد سمعت حديثاً عن كهوف أخرى غير معروفة تماماً. كهوف ذوات ألف عمود وعمود، ميزتها أنها لا تزال على حالتها الأولى لما اكتُشفت، أي من دون أضواء، ومن دون موسيقا، من دون كل هذه الحماقات. «هي هنا بالضبط»، قال خوليو حينئذٍ.

«لنرَ...» همست فلورا. وغابا كلاهما وراء خريطة نشراها فوراً، من دون أن يكفّا عن الكلام.

وباغتني إحساس شبيه بإحساس الليلة الفائتة. هما كانا في مستوى آخر، في إيقاع آخر، إيقاع الكهف، الذي أخذ الدور من إيقاع الراكي. لكن النتيجة كانت واحدة. وبدا لي بجلاء منذ قليل، أني سأتناول عشائي وحيدة هذه الليلة.

لكن، ألم أكن أجد نفسي، في ذلك الوقت، وحيدة؟ «لطالما قلتُ لكِ ذلك!» تمتم صوت ما فجأة. هما كانا مشغولين بتحديد أماكن الكهوف، فما كان يبدو عليهما أنهما التفتا إلى أيّ شيء. أمّا أنا، فلم أنبس ببنت شفة

قطّ. وكان النادل ما يزال يتثاءب في آخر القاعة وراء حاجز البار. وبدا لي ذلك الصوت أليفاً ومثيراً للأعصاب؛ معروفاً ومجهولاً في آن واحد. وتذكرت -حقاً- «إم م م م م». اليوم الفائت في المدخل، لمّا اختفت فلورا في الباب الدوّار، وظللنا، أنا وخوليو، جالسين على الصوفا ننظر إلى الصدوع التي أحدثتها القنبلة. لم تكن همهمة إعجاب كما ظننت حينئذ. ولا هي بالتالي، صادرة عن أي من الطاولات المجاورة. نغمة ذلك الـ«إم م م م...» والصوت الذي سمعتُه منذ قليل، متشابهان بشكل مريب. لكنني لم أقع في إغراء السؤال: «من أنت؟ ومن أين طلعت؟»، ربما، لأنني أخشى الجواب. وعرفت فوراً أنه قد يقول لي: «أعوامك الأربعون». أو: «ماذا تجديك التجربة المتراكمة على مدى أربعين عاماً؟».

«وأنتِ» -سمعت ذلك لحظة وصلت إلى قناعة بأن أحداً لا يراني. وما كنت أعلم جيّداً مع من أتحدّث. كان هذا صوت خوليو الذي وضع الخريطة على الطاولة- «كيف قضيتِ يومك؟».

أطبقت كتيّب تعليم التركية وأشرت إلى الحوض قائلة: «هذه السمكة الرهيبة تتحوّل أحياناً إلى جرس صغير».

***

«هناك أشياء يجب الشروع بها على انفراد»، هذا ما قلته لنفسي في اليوم التالي وأنا جالسة في البار قرب النافذة، في صباح قاتم قتامة المساء تقريباً. تجلّى لي الدرس السابع شاقّاً وشائكاً حتى أنه أثار دهشتي. ليس فقط أنني ما كنت أستطيع اجتيازه، وإنما كان يضع كل ما تعلّمته حتى اللحظة موضع شكّ. لم أهتمّ بذلك، لأن هذا الوضع شائع في كلّ اللغات. إذ تُفتح لك الأبواب على مصاريعها ثم لا تلبث أن تُصفق في وجهك من دون أن يُقال لك لماذا. «علامة طيّبة»، قلت في نفسي أيضاً كيما أتشجّع. «ذلك برهان

على أني أحرز تقدّماً». لكنني كنت أفكر منذ هنيهة في أبواب أخرى. في الباب الدوّار الذي غاب فيه خوليو منذ الصباح الباكر: أفكر خاصة، في ما ينتظرني في الطابق الأخير من فندق بيرا بالاس. حقاً، هناك أشياء يجب أن تُنجزَ على انفراد.

غادرت المصعد في الطابق الثالث، لكنني لم أدخل حجرتي، وإنما انتظرت ثوانيَ معدودات وصعدت إلى الطابق الرابع. آغاثا كانت أقامت في الغرفة 411. كان الطابق الرابع مُسنّماً وغرفه فسيحة، وبعضها يبدو مفتوحاً. ابتسمت لعمّال التنظيفات ونظرت خفية نحو الداخل. كانت الغرفة ذات الرقم 411 مغلقة. احتميت بضوضاء المكانس الكهربائية وانحنيت ونظرت من ثقب القفل. كانت الغرفة مظلمة، ولم أرَ شيئاً إطلاقاً. لكن كل شيء حملني على الظنّ بأنها مثل سائر الغرف الأخرى. غرفة متواضعة فيها سرير كبير تحت تسنيمة السقف، ثم مكتب. ما كانت تعنيني كثيراً قصة اختفائها المزعوم التي يختبئ سرّها بين جدران الغرفة الأربعة. آغاثا نفسها ما كانت تشير في سيرتها الذاتية إلا لماماً إلى هذه المرحلة من حياتها، لمّا حسبت أنها فقدت العقل. وما كانت تُبدي غيظها، وقد صارت سيدة كبيرة، من خداع زوجها الأول. وتردُ الآن إلى ذاكرتي جملة من جملها الحكيمة: «من بين الأشخاص الذين قد يثيرون ضجرك، تَجدين القرين في أحسن وضع للقيام بذلك». أم لعله ليس «الضجر»، وإنما شيء آخر أقوى من ذلك؟ أو لعله ليس القرين أيضاً؟ في كل الأحوال، كانت تلك عبارة حكيمة باردة تخلو من السخط. ربما لأنها أطلقتها وهي في سنّ متقدّمة، لمّا استقرّت في المكان والزمان، حالة الاضطراب التي أغرقها في لجّتها هجرُ الكولونيل كريستي لها. لأن آغاثا كانت عاشت، وكانت ما تزال تعيش، حبّها الكبير مع مالوان، زوجها الثاني، عالم الآثار الذي كانت تكبره بمرّتين.

نعم؛ أصبحت آغاثا منذ سنوات، آغاثا كريستي مالوان. صارت عجوزاً ضاحكة سعيدة. وأتخيّلها الآن، أتخيّل آغاثا التي طالما أحبّت الحياة، تحكم بالموت على بعض شخصيات رواياتها، مكبّة على مكتبها وريشة طائر في يدها، آخذة من حين إلى آخر نفساً، متخبّطة بين ألف طريقة لإخفاء الجثّة ومحو الآثار وخلق أبواب مموّهة لتضليل قرّائها، ثم تبتسم فجأة: «هكذا إذاً، إذاً!».

وتنكبّ مرة أخرى على الورق، وتنظر إلى ساعتها فتجد أنها الخامسة إلا ربعاً، وتتردّد لحظة بين أن تدفن الجثّة أو تحرقها وتقطّعها، وبين أن ترتّب نفسها وتعيد تنظيم شعرها وتنزل لتشرب الشاي جاهلةً أن تلك القاعة ستخلّد ذكرها وتُسمّى قاعة آغاثا كريستي، خلافاً لكل السيدات الإنكليزيات الكثيرات اللاتي كنّ يشربن الشاي كل يوم في الساعة الخامسة مساء في أوانٍ من فضّة.

لكن تلك المرأة ذات الشعر الأشيب، التي كنت أراها الآن تُعِدُّ زجاجات، وتبعد سموماً وتُشغل القراء والشخوص والشرطة، لا يمكن أن تكون آغاثا نفسها التي شغلت الحجرة 411 في تلك الأوقات. كانت الكاتبة في الثلاثين ونيّف من عمرها حينئذ، أي في مثل سنّي. فجعلتُ شعرها أسود، وبدّلت ريشة الطائر القديمة بقلم حبر وجعلتها تتمشّى قويّة منتصبة القامة في الحجرة الفسيحة. «هكذا إذاً. آها!».

لكن تلك الصورة، صورة آغاثا شابة، لم تلبث غير ثوان معدودات. وتنبّهتُ حالاً إلى أن تلك المرأة ذات الشعر الأشيب المهمل لا ترضى أن تتخلّى عن مكتبها. ورحت أتحرّى آغاثا الشابة بفضول. ما كان يبدو عليّ أني أصنع ذلك عن قناعة، وإنما كنت أتسلّى. ثم رففت بجفني رفّةً خفيفة. أهو قذىً في العين؟ أم مشهد عابر ما كنت أرغب في تذكّره؟ وابتسمت. لكني ما كنت أنظر إلى الحيّز الفارغ الذي خلّفته الفقيدة. كان

ذلك إحساساً قصيراً غير مفهوم. وكانت آغاثا تبتسم لي من خلال الباب. نعم، تبتسم لي.

لمّا عدت إلى غرفتي، استلقيت على السرير. كنت أحسّ بالراحة في الفندق، في هذه العزلة الاضطرارية التي قادتني إليها قدم مشوّهة لا أكنّ لها ضغناً. وضعت علبة الأقراص الحمر على المنضدة الليلية، ونظرت إلى الساعة. كانت الثانية والربع. ما تزال أمامي نصف ساعة على ميعاد الجرعة التالية.

سأستريح قليلاً، وأتمتّع بهذا الإحساس العجيب الذي ساورني منذ لحظات. ولربما نمت أيضاً. ضبطت المنبّه على الساعة الثالثة وعشرين دقيقة، وأغمضت عيني. لم ألبث غير قليل حتى أفقت على صوت رنين. ونظرت غير مصدّقة نفسي إلى المنبّه. لكن الرنين كان صادراً عن الهاتف. خوليو، أيضاً؟ أيكون قد التقى مرة أخرى بالمصادفة فلورا في مدينة ضخمة كإسطنبول، وهما يتأهّبان الآن لتناول الغداء بهدوء كبير في أحد المطاعم الأنيقة؟

أيعني ذلك أخيراً، أني سأتناول عشائي الليلة وحيدة؟

قالت فلورا: «مرحبا، كيف حالك؟».

أبطأتُ قليلاً حتى أجبت. لم تذكر اسمي. ربما لأنها لم ترَ لزوماً لذلك، أو لعلّها ما كانت تتذكّره.

«وإذْ لم أرك في البار...»، ثم تابعت: «... كيف حال قدمك؟».

«ماتزال كما هي».

«بشكل ما، ما تزالين مشلولة الحركة. يا لسوء الحظ!».

لم تكن تلك فكاهة رخيصة، ولا سخرية، وإنما نكتة. فلورا تتصل من البار لتطمئنّ بأدب إلى صحّتي. فشكرت لها ذلك. ومع ذلك، لم يلبث

هذا الاهتمام المفاجئ بصحتي أن اقترن بالصورة التي كوّنتها عن فلورا. لمّا وضعتُ السماعة نظرت إلى الجورب (وكان اليوم، أسود اللون). كان لكلمة مشلولة صدىً ولا أسوأ في مسمعي. وسمعت: «آغاثا، لو كانت مكانك، لصنعت شيئاً».

كان ذلك صوتاً ينبع من داخلي، يقول إني أنا ولست أنا. ويجهد في أن يحذّر ويوحي، وفي نهاية المطاف، لا يجلب أيّ حلٍّ معيّن. لكن، لم يكن لديّ مجال لألقي التبعة عليه. وشعرت كأن أحداً أضاء الغرفة فجأةً، ولمحت لوحة تومض وقرأت فيها رقماً منقذاً. وراحت شفتاي -هذه المرة، شفتاي حقاً- تلفظان «أربع وأربعون». وشرعت أضحك. «هكذا إذاً. آها» لأني تذكّرت في تلك اللحظة شيئاً، شيئاً لا أهمية له، شيئاً لو تذكّرته في وقتٍ آخر لما أبهت له؛ لكن الوضع الآن، مختلف، حذاء خوليو -وكيف نسيت ذلك؟- مقياسه أربع وأربعون.

***

بدا لي شارع الاستقلال أحلى مما هو عليه عادةً. لعلّ اضطراري إلى السير برفق، ولّد لديّ إحساساً مباغتاً بأنني جزء منه، أنني إحدى الجارات، أو تاجر، أو ربّة بيت تخرج لشراء أغراضها. صرت إسطنبولية، قلت لنفسي. ولم تبدُ لي الكلمة الرهيبة التي كنت أتأمّلها برعب في الدليل وفي الكتيّبات السياحية، خطأً أو ضلالاً. لأنني كنت بشكل ما، أحسّ بأني إسطنبوليّة. أو بالحَرا، كنت تحوّلت من دون تخطيط مني من سائحة إلى مواطنة مقيمة، إلى صنف أكثر انشراحاً ولطفاً. كنت ألبس تنّورة طويلة حتى القدمين. ولولا هاتان القدمان ما كنت لأُمَيَّز من بين سائر العابرين. في إحدى اللحظات، جذبني من طرف الرداء طفل. كان يجلس على الأرض إزاء كومةٍ من قوارير العطر، كاشفاً عن ساق مشوّهة، نظرت إلى الأسعار

فأدهشني رخصها وضآلتها. أهي عطور مهرّبة؟ أم تقليد مغشوش؟ لكن الطفل أمعن في النظر إلى الجورب الذي ألبسه. ثم رفع بصره وخفضه مرة أخرى باتجاه الجورب الأيسر. وابتسمت له بعطف. أكان يعلم أن عاهتي بسيطة لا تلبث أن تزول؟ أم، على العكس من ذلك، عدّني شبيهاً له، شبيهاً تعوّد منذ ولادته تحمّل عبء الاختلاف والتباين؟ عدت إلى العطور، وأعجبني اسم منها: إيغويست Egoiste، من صنع شانيل. وقد لا أخسر شيئاً لو جرّبته.

بعد خطوات معدودات، لمحت محلّاً لبيع الأحذية. فدخلت قسم الأحذية النسائية، وخرجت من قسم الأحذية الرجالية. ابتعت حذاءين من الجلد، من طراز واحد تقريباً. شكّلت منهما حذاء بفردتين مختلفتين. إحداهما مقياسها سبع وثلاثون للقدم اليسرى، ابتيعت من القسم النسائي. والأخرى أربع وأربعون للقدم اليمنى، من قسم الرجال. ووضعت فردتي الحذاء الفائضتين و«خفّ» خوليو في حقيبة كبيرة ألقيت بها على كتفي. كنت أبدو في صفحة مرآة إحدى الواجهات نسخة من بابا نويل لم يُرَ مثلها. مررت في شارع شيتيك واشتريت باقة زهر. ووقفت أمام محلات بيع السمك والفواكه. كنت أحسّ بالسرور والحرية بشكل عجيب. لمّا وصلت إلى الفندق هُرع أحد ماسحي الأحذية إلى قدمي. نعم، كان حذائي الجديد قد تعرّض لآثار الوحل. «عشرة آلاف ليرة»، سمعته يقول. ووضعت القدم اليمنى على الصندوق اللمّاع.

أضاف فجأة: «عشرون ألف».

هذا ليس عدلاً. منذ متى يُضاعف السعر بعد الفصل؟ وإذ لاحظ الرجل دهشتي، قام بحركة ذات مدلول. فرسم بيده دائرة تكبر شيئاً فشيئاً. وكان يشير بالطبع، إلى مسألة الحجم. شعرت بالإهانة وسحبت قدمي، وشعرت

بأني عرجاء خلقة، وأني من سكان المدينة وإسطنبولية كل حياتي. وبدا لي ذلك السلوك تعسّفاً.

«تمام! عشرة آلاف».

وافق الرجل. وأضاف شيئاً بدا لي أني فهمت منه معنى الشرط أو العقد. وقال لي اسمه: عزيز كمال. وهو، أي عزيز كمال، سيمسح حذائي كل يوم.

قلت: «تمام!».

واختتمت بذلك نهاري.

تناولت فلورا تلك الليلة عشاءها وحيدة في الفندق. ولمّا خرجت لمحت وجهها من جانب وهي تتنقّل بين طاولات المطعم. خُيّل إليّ أنها ترتبط بشيء ما؛ بميعاد ربما، ميعاد ظهورنا المرتقب. لم يبقَ عندي أدنى شكّ في مغزى مكالمتها اللطيفة، لتتحقّق من أني ما أزال في الغرفة مشلولة الحركة، وتستنتج بالتالي أن لا مناص لنا من تناول العشاء في الفندق. لم أفرح بذلك، بل ربما شعرت بالحزن. لكن الصوت كان يردّد: «هذا حسن! بل حسن جداً!». بعيداً عن هواجسي، كان خوليو يبدو مسروراً أيضاً. «غداً ستستردّين عافيتك، وقد نتمكّن من السفر إلى بورصة ونيقيا...». سِرنا عبر شارع الاستقلال باتجاه ساحة تقسيم. كان الطفل ذو الرِّجل المشوّهة ما يزال جالساً على الأرض إزاء كومة عطوره. وكان الطقس بارداً وتمنّيت له ليلة طيّبة. وحيّاني صاحب محلّ الأحذية الذي كان يسدل ستارة معدنية ثقيلة. تجار كثيرون كانوا يغلقون محلّاتهم. لمّا وصلت إلى الساحة لمحت ماسح الأحذية حاملاً صندوقاً لامعاً ضمّ إليه عدّته كلها. وكان يبدو عليه أنه بانتظار الحافلة التي ستقلّه إلى منزله بعد يوم عملٍ مرهق. ورسم خطّاً حلزونياً بيده في الفراغ، وكأنه يذكّرني: «لقاؤنا غداً». نعم، إلى

اللقاء صباحاً، بالطبع. إنه عزيز كمال، قلت شارحة بإشارة تنمّ عن الفخر، لم أخفها جيداً.

تناولنا الطعام في مطعمٍ صغير يقع في أحد الشوارع التي تؤدّي إلى ساحة تقسيم. خوليو كان استعلم حقاً جيّداً عن أفضل وسيلة لبلوغ بورصة. زد على ذلك، في بورصة فندق ملائم جداً لوضعي. وأخرج من جيبه ورقة، وأراني مناظر حمّامات مرمرية. «سيكون كأنك في منتجع للمياه المعدنية. لا فرق بينهما». كان يقتله الشوق للسفر، ونظرت إليه بعطف.

«نعم؛ غداً، سأكون في حالة حسنة».

«وفلورا؟ أرأيت فلورا؟ سأل فجأة».

في تلك اللحظة أخذت قدمي تحتجّ، وكأنها أفلتت من قيود الأدوية والمهدّئات. فأخرجت قرصين من حقيبتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«بدا لي أني لمحتها خارجة».

«عسانا نستطيع دعوتها».

وسألت نفسي: ولأيّ شيء ندعوها؟ ولِمَ يتعيّن علينا أن ندعوها؟ لكن الصوت أوحى إليّ: «حذارِ!».

بلعت القرصين وشربت كوباً من الماء.

«لماذا؟» – سألته بسذاجة. وبدا خوليو الآن دَهِشاً.

«لا لسببٍ في الدنيا. هي فتاة لطيفة جذّابة، وفوق ذلك، وحيدة».

صببت كأساً. وكان ينبغي لي أن أقول شيئاً؛ ربما مثل: «لا بأس! الحقيقة أن ذلك لم يخطر في بالي».

قلت: «بالتأكيد! يسرّها أن تسافر وحيدة، وإلا لسافرت بمرافقة ما. أليس كذلك؟».

«هي بصحبة أحدهم» - قال خوليو إزاء دهشتي. وراح الصوت يلحّ علي كعادته: «دعيه يتكلم. واعلمي ما قالته له. ولا تضيّعي الفرصة». لعل رفيقها في السفر صديق أو خطيب، أو أحد ثقلاء الظل استطاعت -كما يبدو- أن تتخلّص منه.

ولِمَ لا يكون العكس صحيحاً؟ وإذا كنت على خطأ في هذا، لِمَ لا يكون ردّ فعلها المنطقي والمعقول والمتوقّع، بعد التخلّص من ثقيل الظل، العودة إلى أحضان العزلة والتمتّع بها بعمق؟ «سبب آخر إضافي»، يمكنني أن أقول. لكن الصوت كان يأمرني: «كوني على حذر».

«سبب آخر إضافي» - اندفعت قائلة.

لم أستطع أن أصبغ كلماتي بطابع لا مبالاة كنت أخطّط لها. بيد أن مجيء النادل حاملاً الصحون حال بيني وبين ملاحظة وقع ذلك على خوليو. لكن الفرصة أتيحت لي خلال هذا الفاصل -إذ استعاد الطعام بطولته مرة أخرى- أن أتجاوز الموضوع. فلم أكن على استعداد لأن أقضي الليل متحدّثة عن سوء تصرّفات فلورا المفترضة، وقلت:

«الأمر ذاته يجري في كل اللغات. يُفتح لك الباب، وتُدعى للدخول، وتُكرَم وتُقدّم إليك ضيافة ممتازة. ثم يُغلق في وجهكِ في لحظة ما كنت تنتظرها. وكأنها تخضع لتغيّر مفاجئ في المزاج».

التركية مثل سائر اللغات قلعة لا تُعرف مخططاتها. لقد مدَّ لي أحدٌ ما من القلعة جسراً متحرّكاً واجتزته. وها أنا ذا أجدني بغتة ضائعة في فناء السلاح. ومع ذلك، كانت تلك علامة طيّبة لاشك فيها. لكن الصعوبة والتحدي الحقيقي بدأا الآن. كان عليّ أن أستخدم حزمة من المفاتيح وأكشف أسرار الأقفال. وتسلّيت لهُنيهة وأنا أتخيّل سراديب، ومطامير، وأبواباً مموّهة وممرّات... ولمّا صرت في إحدى الشرفات، بدا لي أن خوليو قد دبّ إليه النعاس ويحاول أن يخفي تثاؤبه.

- «آه!» -قلت فجأة متحوّلة من شرفة القلعة التركية إلى مرتفعات فندق بيرا بالاس- «لقد رأيت غرفة آغاثا». وأوضحت فوراً: «أنا لم أرها في الواقع. لكن، نعم، استطعت أن أرى حجرات أُخَر في الجناح نفسه. وبدت لي متواضعة جدّاً، حتى رحت أفكّر -وأنا واثقة بصحة تفكيري- في أن آغاثا لم تنزل الطابق الرابع، لا هي ولا أيّ من ذوي الأسماء المشهورة التي تُقرأ على الأبواب. لاشك في أنّ هذه الجهة كانت مخصّصة في تلك الأوقات للخدم. وقد وضُعتِ الآن، والآن فقط، في خدمة الجمهور، ووُزّعت الأسماء كيفما اتّفق. وفلورا على صواب في هذا: هي طريقة للحفاظ على الفندق منتعشاً بفضل الأموات.

قال خوليو: «آه ه!» ونادى النادل. أمّا أنا، فرحت أنظر إلى الزجاجة الفارغة من مشروب بيّادولوكا.

لكن، كيف سمحت لنفسي بأن أحطّ من شأن لقائي، من شأن إحساسي العجيب ذلك المساء، إزاء باب الحجرة 411؟ من طلب مني الكلام عن جولتي في الطابق الرابع وبتلك المفردات؟! خاصة، لماذا خطر لي أن أذكر فلورا عرضاً، في وقت كنت معنيّة بتجاهلها تحديداً؟

نهضت وذهبت إلى الحمّام. ربما ما كان ينبغي لي أن أجمع بين أقراص الدواء الحمر، والخمر، وأحسست بقليل من الدوار. كان صنبور الماء البارد ينسكب بخيط ضئيل. فتحت حقيبتي، واستخدمت عطر الإيغويست. فبلّلت نقرتي وعنقي ورسغي. كانت الرائحة قويّة نفّاذة.

رائحة بضاعة مغشوشة، لا شك في ذلك. عند خروجي، كان خوليو ينتظرني واقفاً عند الباب حاملاً معطفي بين يديه.

قال: «بدأ المطر يهطل! طلبت سيارة أجرة».

صعدنا السيارة. وأشار خوليو إلى العنوان، ثم أخذ يتململ مضطرباً،

نظر إلى عنق السائق؛ إلى الأزهار البلاستيكية التي تزيّن المقود، إلى الدمى الفوسفورية التي كانت تتأرجح في كل الاتجاهات. وراح يتشمّم من دون خفاء، في كل الاتجاهات ككلب صيد. كان يبدو دَهِشاً ومثاراً بل مهاناً.

«إنه الإيغويست!» - قلت وقد عرضت عليه زجاج العطر.

ونظر إليها غير مصدّق.

«كان عليك أن تفكري في الآخرين!».

زمجر بجفاء، وفتح زجاج نافذة السيارة.

***

لم يبذل أي منّا جهداً في إقناع الآخر، لأننا كنا متّفقَيْن منذ البدء. هو سينطلق صباحاً، ويستقلّ سيارة أجرة حتى المحطة، ثم قارباً حتى يالوبا، ثم أي وسيلة نقل يجدها أو خطّط لها. وأنا سأستغلّ الوقت في الاستجمام. سأسير ما لا بدّ من سيره، وأضطجع حالاً وأسجّل اسمي يوم السبت في الرحلة التي يعدّها الفندق وأعلن عنها في مكتب الاستقبال. هناك رحلة إلى كل الأنحاء. أنا، وإن كنت أضجر من الرحلات المنظّمة، فإن هذه الرحلة فيها شيء مميّز جداً. سأتمتّع بتسهيلات الأتوكار للوصول مباشرة إلى بورصة. ومتى وصلت إلى هناك، أرفض العودة وأظل مع خوليو في فندق الحمّامات المعدنية، الحمّامات التركية المرمرية. سنقوم بجولة في السوق ونتابع طريقنا معاً إلى نيقيا.

كانت خطة على المقياس، على مقياسنا. رافقته حتى الشارع، ووعدته بأن أستريح. وجدته سعيداً وفرحاً، وكنت أيضاً كذلك. وأخذت الأشياء -أو هكذا بدت لي حينئذ- تستردّ إيقاعها.

«سيارة غير جيدة» - قال عزيز وهو يدهن حذائي بالدهان، والسيارة تنطلق بخوليو في نهاية الشارع. ابن عم عزيز كمال عنده سيارة أجرة جيّدة.

«لا مشكلة. فاروق (ابن عم عزيز كمال) سيكون هنا في الفندق الساعة 11. ابحثي عنه مدام».

«تمام!» - قلت بدهشة. واستطعت حتى تلك اللحظة أن ألوّح لخوليو مودِّعة. اتفقنا.

لكن، أليس الحل الذي يعرضه ماسح الأحذية رائعاً؟ عربة تحت تصرّفي، وإمكانيّة تنقّلي في إسطنبول من دون أن أخلّ بوعدي في الراحة. نعم، ها هي ذي الأشياء أخذت تستردّ إيقاعها، بل تسير نحو الأفضل. دفعت ضريبة العقد. وذهبت إلى البار.

***

لكن، بقيت عليّ فلورا (فلورا مرة أخرى. ما أثقل ظلّها!)، وكان طريفاً لو نسيت، بذهاب خوليو إلى بورصة، وجودها تماماً.

سألتْ: «وخوليو؟».

أدركتني أمام حوض سمكة الجرس الصغير، وتسألني الآن: «وخوليو؟» بلهجة تخلو من الاكتراث، وكأنّ اهتمامها بزوج امرأة أخرى مشلولة الحركة -أو هكذا تظن- تقف أمام حوض سمك في البار، أمر عادي للغاية.

أجبت بلطف: «ذهب إلى أنقرة».

قالت: «أوه!».

تناولتُ قرصاً، بينما فلورا إلى جانبي، تنظر إليّ، أو هكذا بدا لي بفضول، وربما بشكّ. وشعرت بالسعادة كأنني طفلة. وبعد كل شيء، هل أنا مضطرّة إلى قول الحقيقة لها؟ أينبغي لي أن أطلعها على كل تحرّكات خوليو؟ وماذا عليّ لو وضعته في الشرق، بينما هو يسير باتجاه الجنوب حقاً؟

«لا بأس!» - تمتمتْ وهزّتْ كتفيها.

كلامها كان له رنّة الوداع. وركّزتُ انتباهي على ساكن الحوض. وكان واضحاً أن فلورا ليس لديها ما تفعله هنا إلى جانب امرأة جُلّ همّها مراقبة ردود فعل سمكة تبيّن اليوم أنها مخدّرة بشكل مملّ. نقرتُ على الزجاج بلطف. لم تتحرك السمكة قيد ميليمتر واحد. لكنني رأيت.. حينئذ رأيت...

ذلك أن الزجاج عكس شفتين مقطّبتين، وملامح واهنة، باهتة، مرهقة، لنقلْ، في ذاتها ليس فيها ما يدهشني، لو لم تكن تبعد سنوات ضوئية عن اللامبالاة التي أبدتها لما هزّت كتفيها، وقالت «لا بأس!» أو عن الكبرياء لمّا وشوشت منذ لحظات بـ«أوه!». ونظرت إليها مباشرة من دون تحفّظ تقريباً. حاولت فلورا بحركة سريعة، ماذا أسمّيها؟ أن تستردّ رباطة جأشها. بيد أني كنت كشفت الصورة الجانبية، صورتها! كان لها وجه جميل مشرق مكتنز. أناقة ملامحها وكمال قسماتها كذّبتها مفاجأتُها بالنظر إليها وجهاً لوجه، كما فعلت الآن. درت حول حوض السمك متظاهرة بأني أراقب سمكة الجرس الصغير. وقامت هي بالدورة ذاتها، لكن، باتجاه معاكس. ثم انصرفت. لا أذكر أنها ودّعتني، إن قالت: «إلى اللقاء!»، أو أنها لم تجد لذلك ضرورة. ما زالت أمامي ساعتان للقيام بنزهة مع فاروق. «لغزُ وجه»، تمتمت. وإذْ كنت في بطالة كاملة، انكببت على دراسة صورة فلورا الجانبيّة. أهي فلورا بيركنز؟ فلورا سمارت؟... ستكون لديّ فسحة من الوقت لأجد لها عنواناً.

***

هناك أشخاص جميلون دائماً، وآخرون أحياناً، وبعضهم في مناسبات معدودات، حين يشعرون بالانشراح والراحة والسعادة. حتى هذه الشريحة المتطرّفة لا يجب الحكم عليها بالنظر إليها حرفيّاً. وأتذكر على حين فجأة

بعض الأصدقاء والصديقات يكافح الجسد عندهم في مناوأة الروح؛ فهم يشبّون، إذا تكلّمنا جمالياً، في الصعاب والمشاكل، ويتخلّون عن الطيبة ويهملونها.

لكن كلّ ذلك كان يحرفني عن هدفي. وهكذا لهونا، أنا والصوت، بهذه اللعبة، وسمعت: «لندع المقدّمات، ولندخل لبّ الموضوع». لأن حالة فلورا، إذا لم تكن فريدة، فكانت تبدو على الأقل، متميّزة. حتى صرت أرتاب الآن، وأنا أتأمّل تذبذب السمكة - الجرس، في أنني تسرّعت في إطلاق بعض الأحكام. لعل غرابة فلورا وغموضها الذي أثار فيّ كُرْهاً ممضّاً، وتقلّبات انفعالاتها المفاجئة التي عزوتها ببراءة إلى مشاريع مبهمة، إن هي إلا نتيجة متوقّعة لوجه عليم بسحر مظهره الجانبي، ويجهد (وهو المدرّب والخبير) في الإبقاء عليه بكل ثمن. نعم، هنا تتجلّى مهارة فلورا، حتى إذا ارتكبت جريمة -وهذا فرض بسيط- في حضور شهود يتوزّعون في أماكن مختلفة من الغرفة، أيمكن بالاستناد إلى تصريحاتهم، تشكيلُ صورة موثوقة عنها؟ هذا غير واضح. لكن، لنفترْض أن الشهود الذين رأوها في مظهرها الجانبي وهي تغرز خنجراً (أعلم أن آغاثا كانت تفضّل السمّ، أما أنا فيلائمني خنجر) في جسم الضحيّة، ألن يصفها هؤلاء أنها امرأة جميلة تغرز خنجراً؟ امرأة غريبة فاتنة حسناء. لكن، ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن الضحية نفسها، في حالة استطاعتها الكلام، أتكون قادرة على العثور على معطيات، على أمرٍ مميّز، على تفصيل يمكن بعده تشخيص القاتلة؟ «امرأة من دون ملامح محدّدة، امرأة باهتة». لكن، هل فلورا امرأة باهتة؟ لا: ليست كذلك. الأمر المؤكّد أنها في لحظة كتلك اللحظة، اللحظة المحدّدة والهامّة لارتكاب الجريمة، لحظة تحتاج فيها، كما أفترض، إلى أقصى تركيز وجهد، لن تكفّ، مدفوعة بعادتها بأن تعاقب بحركات سريعة بين النظر إلى هذا الجانب والنظر إلى جانب آخر

وبالعكس، مغرقة الشهود المفترضين، وحتى الضحيّة ذاتها في اضطراب مطلق. فإذا لم يرها أحدٌ مرّاتٍ متكرّرة، فسيكون عاجزاً عن وصفها. والشرطة ذاتها المعتادة على كشف الأقنعة والتحوّلات، والماهرة في قراءة تقاطيع الوجوه كما يُفترض، ستتأخّر أكثر مما هو معقول في الجمع بين صورة مظهرها الجانبي، والأمامي الباهت. وإذا ما حصلت على بطاقة كاملة للمجرمة وظهرت في شوارع إسطنبول لوحات كُتب عليها بحروف كبيرة «مطلوب»، وتحتها صورتان للجانية، فلن تنال شيئاً سوى زيادة الاضطراب لدى السكان. لأن الحاجة تدعو من أجل تشخيص هويّة فلورا إلى معرفة عميقة بفنون الغرافيك، والنفوذ إلى أسرار التمثيل الديناميكي، إلى أسرار التعايش بين مظهري وجه من الأمام ومن الجانب (مع أرجحية لهذا الأخير)، وإلى اللجوء إلى تذكُّر بعض البطاقات البريدية، إلى صورٍ لحمتُها تنتج أثراً مدهشاً كلّما تحرّك الناظر إليها قليلاً، فتظهر امرأة تغمز بعينها، أو رجل يتحوّل إلى امرأة أو أسد إلى نمر. نعم، يكفُّ الأسد عن أن يكون أسداً مثلاً، ليكتسب ملامح نمر. هذي هي النقطة الحاسمة الغامضة؛ هي جزء من ثوان، لكنه كاشف، لو عملت خلاله على تركيز انتباهي على الحوض، لربما شغلت بالسمكة - الجرس. ذلك أني عدت بفضول متجدّد إلى سمكتي بعد أن كشفت سرّ فلورا. لكن ساكن الحوض لم يشأ ذلك الصباح (كانت ستدّق الحادية عشرة بين لحظة وأخرى) أن يتحوّل مرة واحدة إلى جرس صغير.

حضر فاروق في الساعة الحادية عشرة تماماً. كان رجلاً قصيراً جداً وسميناً، وذا شاربين غزيرين. عربته، «السيارة الجديدة» التي وعدني بها عزيز كمال، كانت تبدو خارجة من محل خردة، أو كأنها محكوم عليه بالإعدام جاءه قرار العفو في اللحظة الأخيرة. تجاهلت نظرة الدهشة التي كان يوجّهها صوبي بوّاب الفندق. لمّا صرت داخل العربة، تساومنا

على سعر بدا لي منصفاً، وبدا له، كما أفترض، مسرفاً. كان فاروق يبدو متحفّظاً قليل الكلام. وسألني بالإنكليزية إلى أين سيقودني. وأجبته بالتركية إلى كنيسة سلبادور ديجورا. تلك كانت بداية علاقتنا. فأقلّني إلى قصر كومّينوس، وإلى سور تيودوسيو، ومسجدي مصطفى باشا وسليمان، وإلى كنيسة سانتا صوفيا الصغيرة. كان يساعدني على لبس حذائي وخلعه. ما كنت أسير إلا داخل الكنائس والمساجد والمتاحف، وأتناول عشائي سريعاً وأستلقي فوراً. استرددت عافيتي في اليوم التالي، وإن ظللت أستخدم لعبة الحذاء للتسلية، وصرفت فاروقاً الذي كان يبدو مسروراً من حسن تعاملنا. وإذا احتجت إليه، فما عليّ إلا أنْ أخبر عزيز كمال. «تمام، سيد فاروق، تمام!». في تلك اللحظة أخذت تثلج.

***

قال المسؤول عن الرحلات: «آسف! لا توجد مقاعد إلى بورصة».

رفضت في البدء أن أصدّق ما سمعته. لأني كنت استعلمت عن الرحلة منذ يومين في المكتب نفسه. قيل لي إن عدد المسافرين قليل، بل قليل جداً في وقت قلّ فيه العمل، وزاد البرد والضباب والمطر، وفوق ذلك، الثلج، الآن.

أوضح الموظّف: «قليل جداً! حتى اضطررنا إلى إلغاء رحلة الأوتوكار. بل سينطلق من الفندق ميني ميني باص. وهو مكتمل».

وفكّرت في فاروق. في إمكانية استخدام سيارته، لكنني وجدت نفسي فوراً، أدخّن لفافة. ورأيت شاربيه الغزيرين يعبق بهما الدخان أمام غطاء مفتوح. فكّرت في سفرٍ عاديّ، أستقلّ فيه قارباً إلى «يالوبا»، ومن هناك أركب حافلة.

بعد ذلك أصبحت لا أفكّر في شيء.

كرّر الرجل وهو يهزّ رأسه فوق لائحة: «مكتمل، يا سيدتي! لم يُلغِ أحد حجزه».

وقمت حينئذ بحركة لا أجهل أنها توحي بعدم الثقة، فأمسكت بالورقة واستعرضت لائحة المسافرين، ووجدت الحجز الأخير باسم فلورا.

***

قمت بزيارة الكهوف. كهف القصر الغارق، ذي الألف عمود وعمود. عدتْ إلى توبكابي، إلى الحرملك وسانتا صوفيا والمسجد الأزرق والبازار الكبير. توقّف الثلج عن الهطل، وران الضباب مرة أخرى فوق مدينة تبذل قصارى جهدها في أن تتجلّى تفاريق. هل إسطنبول موجودة؟ أأنا حقاً في إسطنبول؟ بيد أن هذه الأسئلة لم تكن إلا صدى أسئلة أخرى، أو ذكرى إحساس لذيذ باللاواقع. ذكرى أيام كنت أكتشف وخوليو مسحورَيْن مدينة من الظلال. وكان يسرّني الاعتقاد بأنني موجودة في مغارة ساحر كبير يحرّك لوالب خفيّة ويضيء مشاهد سريّة، ويجلب من الماضي فصولاً توقّفت خلال الزمن بمعجزة. لكن فاروقاً كان واقعياً، واقعياً بشكل مخيف. زد على ذلك، أوحى إليّ بالثقة، وأحياناً بالعطف. ولمّا وقع في وهْمه أن إنكليزيته هشّة، وظنّ من دون تروٍّ، أني أفهم التركية، أصبح لا يكفّ عن الكلام. كان يتكلّم ويتكلّم. كان يتكلّم بمرفقيه (بالتركية)، وكنت أكتفي بالموافقة بالقول: «نعم، بالطبع، صح»، وأغفو متكوّمة داخل السيارة على إيقاع أحاديثه الطويلة التي لم ألتقط منها سوى جمل متفرّقات، وترنيمة ملحّة: إسطنبول - برشلونة، برشلونة - إسطنبول... برشلونة جميلة. ثم حسان بك، خاصة حسان بك. وفكّرت للحظة في أنه يتحدّث عن كرة القدم. وبكلّ قواي صحت: «غلطة سراي!»، وخمّنت أن حسان بك لاعب نادر المثال حتماً. وكان يلمس ساقه (نعم، لست أشك في أنه يتحدّث عن كرة القدم)، ويكرّر مرة أخرى: «برشلونة» و«حسان بك».

في يوم من تلك الأيام، قدّمني إلى أمّه. كانا يقطنان في بيسيكتاس، على بعد كيلو متر من المركز. عرضت عليّ المرأة الطيّبة شاياً، وشكرتني، وكرّرتِ الشكر. ووجدتُني مضطربة قليلاً. ألست أنا من ينبغي له أن يقول «تشكراتي»؟ علامَ تشكر لي من قدّمت لي الشاي؟ لماذا توافق بفرح كلما ذكر فاروق حسان بك؟ أتكون أم فاروق معجبة بكرة القدم أيضاً؟ ولماذا يلمس فاروق ساقه في حضرة أمه دائماً؟ ثم يشمّر، لدهشتي، كمّي قميصه ويريني عضلاته؟

قال الصوت: «هي ضريبة دخول عالم اللغات بسهولة بالغة».

لكنه لم يكن صوت أعوامي الأربعين، وإنما كان صوتي الشخصي الملازم لي دائماً. أو ربما كان الصوتين الحائرين المرهقين معاً، وقد انصهرا في صوت واحد.

«للدخول والخروج فوراً، تعالي وابذلي جهداً، والجئي إلى المعجم، وحاولي مع فاروق ليعود إلى إنكليزيته المنسيّة، وهي ليست أسوأ من تركيّتك».

وهكذا فعلت. واستطعت خلال مسافة العودة الطويلة إلى الفندق، أن أفهم جزءاً من ذلك الصداع. لم يكن حسان بك لاعب كرة، وإنما هو خال فاروق، أخو أمّه الأكبر. وكان صاحب وكالة سفر، وينظّم رحلات، ويصدر تذاكر (حينئذ، بدا لي أني عرفت سر العلاقة: برشلونة - إسطنبول، إسطنبول - برشلونة)، يلعب بالمواعيد، ولا يجد مشكلة في ذلك. في نظر حسان بك، كما أرى، لا توجد مشكلة قط. لكنني كنت متعبة، وكرّرت ثلاث مرات أن لديّ تذكرة، ورجوته أن يضعني في الفندق.

ولمّا وصلت، التقيت خوليو عند الباب، وقلت: «يا للفرح!»، واندفعت بين أحضانه، ونسيت فاروقاً.

***

لا أدري كيف بدأ ذلك كله. كيف أخذت الكلمات تدور حول نفسها بعد انتهاء العناق والقبلات والفرح باللقاء (لأن كل من يرانا، يظن أن فراقنا دام شهوراً وأعواماً)، وبعد استماعي إلى قصة سفره الصغير في الغرفة. الثابت أننا كنا نحس بالسعادة، بسعادة كبيرة. وفتحت بشغف صرّة مدّها صوبي خوليو باسماً. كانت برنساً. وأعلمني وهو يبتسم أيضاً، بالسبب الذي يجعل برانس بورصة ذات شهرة لا تضاهى في أنحاء العالم. ذلك أن أحد السلاطين المترفين كان يحبّ أنعم الثياب لجسمه وأرفهها. ولعل سرّ ذلك كله يكمن هنا، في هذا التفصيل الصغير. في السلطان المرفّه المتدثّر بمناشف ناعمة عند خروجه من الحمّام. لأن هذه الحكاية المسلّية ما كانت تبدو لأول نظرة، من إبداع خوليو الصرف (بالحَرا تبدو مستوحاة من كتيّب أو دليل سياحي؛ أو منقولة عن صاحب محل طُرف سياحية). لكن ذلك كان ومضة، كان شرارة مقلقة. وجرّبت البرنس في الحال، وتحقّقت بإعجاب من نعومة النسيج. وزاد من دهشتي أن خوليو وُفِّق في معرفة مقياسي بشكل صحيح، وهو استثناء نادر. وفكّرت حينئذ (هذه المرّة، لم يكن تفكيري ومضة)، ليس في ما سمعته، وإنما في ما لم أسمعه. لأن كلّ ما كنت أسعى إلى إخماده، خلال هذه الأيام، أخذ يطلّ برأسه فجأة. وبدا للحظات أني غير موجودة هنا، في غرفة سارا برنار، متدثّرة بسعادة ببرنس من بورصة، وإنما عند حاجز المدخل، أشهد بأسى انطباق باب «الميني باص» الذي كان يجب أن يقلّني إلى بورصة.

قال خوليو: «خسارة أنك لم تستطيعي السفر!».

كان يبدو متعباً، وخلع حذاءه وارتمى على السرير. ولم ألبث أن استلقيت إلى جانبه وشرعت أتكلّم. يا إلهي! كيف خطر لي أن أفعل ذلك!

قلت: «فلورا قد سبقتني».

وجرى صوتي بهدوء ومن دون اكتراث. لكنني سرعان ما عرفت أنه خانني وكشفني، وأن الصمت الذي يهيمن على الغرفة كان ينذر بالكارثة. لأنني كنت أستطيع أن أقول: «ألا تعلم ما حدث؟ لمّا توجّهت إلى قطع تذكرة، وجدت...»، أو ربما: «هي مسألة سوء حظّ، بالتأكيد. أرأيت...؟». لكن ذلك كلّه لم يخطر في بالي إلا في وقت متأخر جداً. وهكذا اخترت من بين كل الطرقات الممكنة، أسوأها.

«يا إلهي!» -قال خوليو من بين أسنانه، وقد انتصب واقفاً- «كنت أعلم حقاً أن شيئاً ما يجري لك».

كان يعلم مثلاً أن سحابة مظلمة مشؤومة وغير معقولة خصوصاً، تدور في ذهني. كان لاحظ ذلك في إسطنبول، ثم بعدها في بورصة لمّا التقى فلورا. -لأنه بالفعل، التقى فلورا. لكن، أيمكنه الاعتراف بذلك؟- كانت هي أول من فوجئ. وربما صاحت من الدهشة: «جعلتْكَ في أنقرة!»، لأنني كنت أكّدت لها بكلّ هدوء أنه في أنقرة. ولربّما سرّها أن تعلم الآن أي آليات ذهنية غامضة قادتني إلى أن أقول لها ذلك. لهذه الأسباب جميعاً، ولأن موقفي كان يبدو له غريباً مريباً، امتنع عن ذكر فلورا. وحانت الآن لحظة النهاية: فبعد أن وضعته بنزوة مني في أنقرة -إن كان يعرف السبب، فهو لم يستطع فهمه- لم يبقَ لي أفضلُ من أن أنسب إلى فلورا سوء النيّة بتعمّدها السفر إلى بورصة. علامَ حصلتُ؟ ألم يكن في أنقرة؟ كنت أذنت له في السفر وكان يعلم أني سآذن له.

«أنت أذنتِ لي في السفر».

لكن الذنب لا يقع على عاتقي. كيف أحدّثه عن هذا الصوت الداخلي الذي اضطرّني إلى أن آخذ حذري؟ كيف أقول له إن بعض الأشخاص يمتلكون حاسّة سادسة، يستحيل علينا أن نصمّ أسماعنا عن ندائها؟ وكيف

لي أن أتنبأ بأن قدمي -وأريه الآن قدمي اليمنى التي تعافت- ستصاب بالتواء في لحظة أبعد ما تكون عن كل توقّع؟ لا أحد بمنجاة من إزعاج طارئ. وهذا ما جرى لي: إنه حادث عارض.

«حادث؟» -كان خوليو يذرع الغرفة بخطا كبيرة- «لقد أسرفتِ في شراب الويسكي كأساً وراء كأس. وفلشت علينا ملفّاً ضخماً عن بتريثيا هايسميث».

صحّحت له: «كريستي!».

لكن خوليو قال ذلك عمداً، كما أدركت في ما بعد.

«بقيّة الأيام قضّيتها مُخدّرَة، مخبَّلَة الوجه بهذه الأقراص الحمر الرهيبة، متنقّلة في المدينة تتَبعك حاشية عجيبة، غارقة في أدغال لغة تجهلينها، مستخدمة عطراً رخيصاً؛ ثم ختمت ذلك كله بنوبة من الغيرة».

كان خوليو على صواب. أرجّح أنه كان على صواب. وشعرت بالخجل للحظة من سلوكي، وشكوكي وأفكاري. لكنّ كلمةً تقود إلى كلمة، وأخرى تعيدك إلى الأولى. هو قال: «فلشت علينا ملفّاً». ويشعل لفافة ويؤكّد لي مردّداً بأنه لم يحدث شيء بينهما، لا شيء مما تغامر مخيّلتي المريضة باختراعه. قال ذلك ليجعل الأمور واضحة، وإن كان غير ملزم به. هما كانا شخصين اثنين؛ وأنا -المريضة- أتحْتُ لهما ليلة كاملة بحرية.

أجبت: «لم يحدث شيء، وإنما سيحدث».

«معجزة! امرأتي معجزة! كيف يمكنني العيش مع معجزة!».

كان على حق، كل الحق. لكنه بعد هنيهة، فقده. لأن الكلمات إذا كانت تقود إلى كلمات أخرى، والصراخ إلى صراخ والاتّهام إلى اتهام مضاد، فلا أستطيع التثبّت من الوضع الذي نحن فيه. لا أستطيع التحقّق: إن كنا حقاً

في غرفة سارا برنار في فندق يُعرف باسم بيرا بالاس، أو أننا اجتزنا عتبة الجحيم نفسه. أكانت إسطنبول موجودة؟ أم أنها لم تكن إلى هذا الحد أو ذاك، غير فضاء من دون حدود تحمّلنا في وقتٍ ما عِبْأه جميعاً وهو لاصق بنا كالمزادة؟ أكانت إسطنبول عقاباً أم نوالاً؟ أم أن الأمر مجرّد صدى؟ صدى يراه كلٌّ منا بشكل مختلف، ولا يفيد شيئاً إلا بوضعنا وجهاً لوجه مع حياتنا. لم أصل إلى أي نتيجة. وإنما تصطَفّ في هذا الفراغ السائب قصص قديمة، وخناقات عنيفة وأحداث منسية. شتمني خوليو، وأنا دفعته إلى أن يشتمني. وشعرت أخيراً بالألم والإهانة والضعف. لكنني ما كنت أستطيع التثبّت لماذا أنا مهانة، متألّمة ضعيفة. وصارت فلورا وبورصة وصوت أعوامي الأربعين بعيدة عني الآن.

وسمعت في لحظة من اللحظات خوليو يلعن نفسه بصوت خفيض لاستجابته لي في تلك المناسبة، ولقبوله تذكرة سفر ذهاباً وإياباً غير قابلة للمبادلة. أو التحويل. «تذكرة مغلقة»، كان يقول. عرفت في الحال بماذا كان يفكّر، وإن لم أستطع سماع المزيد. لأن تذكرة مغلقة ستضطرّه إلى أن يقضي معي أربعة أيام طويلة في العذاب.

قلت: «حسان بك!».

ولم أكلّف نفسي عناءً بأن أبيّن أن حسان بك كان خال فاروق، وأن فاروق ابن عم عزيز كمال، وعزيز كمال ماسح أحذية عقدت معه عقداً. خلعت برنس بورصة، اختراع السلطان المنعّم الحريص جداً على جلده، المحب للّذات، وارتديت سترتي البرشلونية.

***

اختُتِمت الحفلة، وها أنا أجلس الآن منهارة على مقعد في طائرة بوينغ وأشدّ حزام الأمان حول خصري، وأنظر مخدّرة إلى حركات المضيفة،

وهي تشير برقّة، كأنها في باليه، إلى مَخْرجَي الطوارئ؛ أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار؛ وتمثّل عملية نفخ صدْرةِ نجاة؛ أولاً إلى اليسار ثم إلى اليمين؛ وتختفي باسمة وراء قناع الأوكسجين، وتشير بأصابع ذات أظفار طويلة جداً، إلى خزن صغيرة عليا تحوي أقنعة مشابهة معدّة للركاب. وسرّني لو أن تمثيليّتها لا تنتهي أبداً، وألا تكفّ يداها المصونتان المنتهيتان بأظفار مشبوبة عن رسم أشكال في الهواء. أولاً، إلى اليمين، ثم إلى اليسار. لكن المضيفة الرهيفة الأثيرية التي لا تطاق جهدت في أن تعيدني بعنف إلى الواقع. لأنها خلعت صدرتها في لحظة واحدة، وتخلّت عن البسمة، واستردّت نظرة قاتمة وزيّاً عسكرياً. أما أنا فلجأت بضعف إلى النافذة الصغيرة، إلى ضباب ذكّرني بنفسي، إلى حلم معتكر لن ألبث إلا قليلاً حتى أضطرّ إلى الإفاقة منه.

أصبحت إسطنبول تحتُ، وأنا أطير فوقها على ارتفاع تسعة آلاف متر. كيف حصل لي هذا الغباء حتى عرقلت كلّ شيء؟ الآن، وقد بلغت هدفي، وصرت في الطائرة التي تقلّني إلى برشلونة، لم يبق لديّ أدنى أثر من الطاقة التي كنت أزهو بها اليوم الفائت، حتى لم أكن أشبه في شيء تلك المرأة المعجبة، النشيطة لمّا كنت أعدّ الحقائب، وأحرّك لوالب باحثة عن عزيز كمال، وألتقي فاروقاً مرة أخرى، وأزور حسان بك. لا توجد مشكلة. في نظر حسان بك لا توجد مشكلة مطلقاً. لكنني أنا، من أنا؟ مسافرة، منهكة القوى، تشعر بالغباء والذنب، وتتحمّل المسؤولية عن الإخفاق كاملة، وترى خوليو فجأة أنه ضحية بريئة لتخيّلاتها وحماقتها. وكأن كلماته، والمشهد العاصف في غرفة سارا برنار -كل المشاهد العاصفة التي جرت في غرفة سارا برنار- ظلت متنحيّة بعيدة جداً. وتذكّرت خوليو فرداً هشاً، محبوباً. خوليو -أوَكنت أنا من فكّر فيه؟- ربما ما كان يوجد إلا في مخيّلتي، إلا في حبّ أسبغه عليه الآن بغير حدود؛ ويقين رهيب

مشؤوم بأني فقدته. لكن، أكان خوليو هكذا؟ زد على ذلك، أفقدته؟ أين الصوت؟ خاصة هذا الصوت الأجشّ المزعج الذي يطلّ حيناً ويختفي متى شاء، ويعود إلى الظهور في لحظة غير ملائمة قطّ؟ كل ذلك كان لإثارة الملل، لإثارة الملل المطلق. فإذا كان هذا الصوت القويّ، حكمة الأربعين المفترضة، يصلح فقط لإرغامي على التصرف بتهوّر، فيا ليته لم يستيقظ أبداً. أثرتُ ذكرى مداخلاته واحدة واحدة، والجهد الشيطاني في أن يبقيني على حذر، ويحوّل إلى شكل قاطع حاسم ما كان يبدو حسب كلّ المظاهر افتراضيّاً ومحتملاً. والآن: لِمَ لا يتدخل الآن، حينَ صرت وحيدة محطّمة، أثناء طيران العودة إلى برشلونة؟ تخيّلته مقعياً في المقعد الخلفي، أو في غرفة القيادة، أو ربما قربي في المكان الذي يفصل مقعدي جنب النافذة عن المقعد جهة الممرّ، الذي يشغله مسافر في منتصف العمر ينظر إليّ -هو الآخر!- نظرات مزعجة دَهِشة. ألاحظ على وجهي آثار معركة أخوض غمارها، تلك اللحظات في مواجهة الصوت؟ معركة الرهان على الجهل علماً أني أصبحت غير مسرورة بالجهل أيضاً؟ لكن الجهل -كما كان يقول لي- يمتلك مزايا عظمى. أولاها، أنه يدفعك إلى العمل وكأن شيئاً لم يحدث. فالجاهل -على طريقته- لا يُقهر؛ ولا يستطيع أحد أن يتغلّب على جاهل. لأن عدوّي كان الجهل آنئذ. تصفّحت بنهم نشرة التعليمات في حالة الطوارئ. وتردّدت في أن أهبط بالمظلّة بعنف أو في أن أنزلق بواسطة فراش صغير منفوخ. وملت إلى الإمكانية الأخيرة. نعم، تخيّلت نفسي على النحو التالي: حافية القدمين، ذات وجه غامض الملامح كوجه في صورة، لكنه مضحك قليلاً وهادئ بوضوح. «وداعاً!»، قلت. وأحسب أني قلتها بصوت عالٍ. لكنه، لكن الصوت لم يحتجّ. لم يقل شيئاً، ولم يطلق حكماً أو رأياً. وهذا ما أثار دهشتي. أتحرّرت حقاً من الصوت؟

فتحت حقيبتي بشكل آلي، وأخرجت علبة سجائر. وعثرت على

ظرف سلّمنيه فاروق في المطار. فاروق الطيّب، رفيقي المخلص في الأيام الأخيرة، ومحدّثي الوحيد وإن كنت لا أفهم غير نزرٍ يسير مما كان يحاول نقله إليّ بحماس كبير. ورأيت بطاقات بريدية، ونشرات دعاية لوكالة سفر خاله حسان. في تلك اللحظات كان مساعد الربّان يشير من خلال مكبّر الصوت، إلى أننا خلّفنا وراءنا الطقس الرديء، وعمّا قليل ستظهر على يسارنا شبه جزيرة كلسيكليكا. أو «قرون شبه جزيرة كلسيكليكا الثلاثة». كانت نافذتي تقع على الجهة اليسرى، فرأيت كيف كانت كتل الضباب تنقشع. وبرزت الشمس فجأة. كان منظراً بديعاً لم يلبث، مع ذلك، غير ثوانٍ معدودات. لأن رؤية جبل آتوس، أو ظل الأوليمب البعيد أفسح المجال لإطلالة القرن الذهبي في إسطنبول التي خلّفتها بعيداً، وصرت الآن أتمتّع برؤيتها في كامل ضيائها وبهائها. القرن الذهبي! وقد يكون خوليو هناك يشهد مفتوناً ما أبته علينا هذه المدينة خلال أيام وأيام. نعم؛ الشمس والقرن الذهبي وفلورا قربه مولية جانبها للناظر إليها. وأرجّح أنهما أسعد حالاً عمّا قبل. وبعد كل شيء، أيوجد بينهما شيء لا يمكن الاعتراف به؟ لأن سحابة سوداء مشؤومة هي أسوأ السحب التي غطّت وجه المدينة حتى ذلك الوقت، حتّمت تقديم موعد عودتها فجأة. أبسبب القدم؟ نعم؛ هذا ما قد يكون نقله إليها خوليو المثقّف والنبيل والحريص جداً على خصوصيّته. كيف أشركت فلورا في شيء لم يكن لها به شأن؟ حتى قدمي التي شفيت، صارت قلقة داخل حذاء على مقياسها. لأنّ فلورا وخوليو -ولا بدّ من الاعتراف بذلك- كانا يشكّلان -إذا نظر إليهما من الجو- زوجين رائعين.

«ها أنت ترين، يا آغاثا. ها أنت ترين». لم يُتح لي الوقت لأودّعك، لم تتسنّ لي لحظة فراغ واحدة لأتجوّل في الطابق الرابع، وأداعب قبضة باب حجرتك، أو أنظر من خلال ثقب القفل. «أوه، آغاثا!»، ردّدت. لكنني

كنت واثقة هذه المرّة بأن الكلمات سبقت التفكير. لماذا جعلتُ همومها همومي لحظة انهيار العالم من حولها؟ من يعلم ما ارتكبت من جنون يؤكد الفندق أنه يملك مفتاح سرّه؟ كيف جرؤتُ على أن أوحي إليها بعنوان أشدّ أعمالها غرابة؟ لكن، لا «وجه فلورا سمارت»، ولا «فلورا بيركنز»، ولا «لغز وجه»، ولا جرأتي أخيراً، ما يشغلني الآن. وإنما هذه المشاركة القائمة من خلال الباب الموصد، مشاركة وتواصل حميم، لا شكّ في ذلك، لكنه، أليس استباقاً مني؟ أليس رغبة مخفيّة في أن أستبق الأحداث؟ آغاثا نفسها خطت خطوة سعيدة زائفة قادتها بنوع من المفارقة إلى سعادة غير متوقّعة، خطوة إذا نُظر إليها من مشارف نضجها، لبدت أثراً بعد عين. كنت أستطيع أن أحدّثها حقاً، عن الكولونيل كريستي. لكنّ آغاثا الشابّة كانت تبخّرت فوراً، وظلّت آغاثا الناضجة، آغاثا كريستي مالوان. وصار كل شيء آخر عندها تاريخاً.

أمّا أنا، فكنت على النقيض منها، أنظر باهتمام إلى الماضي وأهمل الحاضر. فمن أنا؟ مجرد مسافرة ذاهلة تعود إلى برشلونة بحصيلة هي علبة يمرح فيها آخر قرص أحمر؛ وحذاء غير قابل للاستعمال مقياسه أربع وأربعون، وكتيّب لتعليم التركية يصعب عليّ الآن أن أتذكّر عنوانه؛ وظرف سلّمنيه فاروق الطيب في المطار. نظرت مرة أخرى إلى البطاقات البريدية، وإلى المناظر فيها. ورأيت الصورة حينئذ.

***

كانت صورة فورية قديمة اصفرّت بتقادم الزمن، ولا يُعلم عن أي حائط رُفعت، ولا من أي خزانة نُزعت. على أطرافها الأربعة تُلمح بوضوح آثار دبّوس أو مسمار. لكنّ ما كانت تمثّله جعلني حائرة لفترة غير قصيرة. لاشك في أنها تمثّل فاروقاً، وهو أحدث سنّاً، بشاربيه اللذين ألفت

رؤيتهما خلال تلك الأيام. لكنني لا أرى فاروقاً من خلال مرآة السيارة العاكسة -مسرّح الشعر، أنيق الهندام على طريقته- وإنما يقف أمامي الآن وقد التوى فمه من الألم أو الجهد قليلاً كستارة رُفعت حتى منتصف المسافة كاشفاً عن أسنان دقيقة حادة على غير توقّع. كان يلبس سروالاً رياضياً وهو في وضع القرفصاء، وعضلاته متوتّرة وإحدى رجليه تتقدّم الأخرى، وذراعاه مرفوعان إلى ما فوق رأسه، قابضاً على سيخ حديدي ينتهي طرفاه بإسطوانتين. ولم أستطع إلا أن أتبسّم. هنا، يكمن إذاً، سرّ اهتمامه الدائم بالضرب على ربلتيه ليدلّني على قوّة ساقيه اللتين اكتشفت الآن أنهما شعراوان. كانتا عمودين حقيقيّين مصَمتَيْن وقصيرين يسمحان له برفع أثقال فوق جذعه. أثقال ثقيلة، لا ريب في ذلك. وسرعان ما ميّزت أنّ تلك التكشيرة التي يشكّلها الشاربان والأسنان الدقيقة البارزة، لم تكن تعبّر عن الجهد فقط، وإنّما عن البهجة بالنصر. لأنّ تلك الصورة كانت تمثّل لحظة انتصار. فاروق هو، أو كان، من محترفي رفع الأثقال. «آها! هذا هو السرّ إذاً!» فهذا الرجل الشجاع لم يكن يريد، خلال أحاديثه المطوّلة (التي كنت أشارك فيها بنعم، وبالطبع، أو موافقة)، خلال عرض عضلاته القصير، أو محاولته الدائبة الضرب على ربلتيه، شيئاً آخر إلا أن يُعلمني بأمجاده الماضية، ربما بمشروعه في استئناف مهنة رفع الأثقال. ورجعت بنظري الآن إلى الثقوب الأربعة، إلى الآثار الأربعة التي خلّفها دبّوس أو مسمار، وخمّنت أن فاروقاً انتزعها من على الجدار، أو من خزانة؛ وهو بذلك تخلّى، على طريقته، عن كنز وقدّم إليّ خير ما في ذاته وما عنده.

أم أنّ هناك شيئاً آخر؟ نعم، بالطبع، هناك شيء آخر. لأنني استطعت أن أرى اسمي مكتوباً في إحدى زوايا الصورة قرب الثقب الذي خلّفه الدبّوس أو المسمار، ثم تليه جملة مكتوبة بخط مطبعي وتنتهي بكلمة: «برشلونة». إني وإن كنت ما أزال أجهل ما الذي ثبت في ذهنه من مظاهر المجاملة

التي كنت أبديها نحوه، فما كنت أحتاج إلى مشاقّ الدرس السابع، لأفهم الرسالة: «إلى اللقاء! إلى اللقاء قريباً جداً في برشلونة!». نعم، صرت الآن مشوّشة، محطّمة. «آغاثا»، تمتمت. «يا إلهي! آغاثا» ولم أعبأ بالنظرة النزقة التي سدّدها إليّ مرة أخرى، جاري في المقعد جهة الممر. لأن آغاثا لم تتخلَّ عني. ما تزال في حجرتي، الحجرة رقم 411، من دون أن تتحوّل عن مكتبها، مكبّة على الصورة، ناظرة إليّ من حين إلى آخر. وبدا لي أن عينيها اكتسبتا الآن ضياء مفاجئاً، وأن شفتيها تنزويان. ولم تلبث أن انفجرت ضاحكة. وأنا كنت أضحك أيضاً. وخُيّل إليّ أن كل تلك البلبلة محالة وغير ممكنة. وسمعت حينئذ: «مغامرة!»، لكن الشك انتابني بعد قليل، في ما كنت أسمعه. أكانت آغاثا من كلّمني؟ من بدأ الكلام وأوحى بإمكانية القيام بمغامرة مع فاروق؟ كلا! لم تكن مغامرة. بالطبع لم تكن كذلك. «مغامرة. الحياة ما هي غير مغامرة. اصنع الأحداث. اصنعها وابدأ الحياة». لكن آغاثا لم تحرّك شفتيها. بل كان يبدو عليها الاهتمام والدهشة موافقة بهزة رصينة حكيمة من رأسها. إذاً، أيكون الصوت قد عاد إلى العمل بإخلاص منه لرسالته؟ نعم. تلك الجملة كان لها أسلوب الصوت وخاصيته وطابعه الفجائي. لكن الأمر لم يكن على هذا الشكل تماماً. لأن نظرة السيد على يميني جعلتني أدرك أني وحدي، ووحدي فقط كنت أتكلّم عن المهام والمغامرات. وعلمت حالاً أنني لم أتحرّر من الصوت بتلك الحيلة الساذجة بإفراغه في فراش صغير مُتخيّلٍ ومنفوخ. لا لأنه يبدو متمرّداً وعنيداً، بل لأنه، لأن الصوت يشكّل جزءاً مني. وهكذا ينبغي له أن يكون، وهكذا أريده.

أخرجت قارورة عطر الإيغويست، ونفثت منها بسخاء مبتدئة بالعنق وأتبعته بالشعر وانتهيت إلى الرسغين. للعطور مزيّة إحضار الذكرى واجتياز الحدود، وتحدّي قوانين الفضاء والزمن. ورجعت أعيش لحظات

في شرفة فندق متأمّلة شبه عارية مدينةً من الظلال؛ متنقِّلة في شارع الاستقلال، مبتسمة للصبيّ ذي الساق المشوّهة. رجعت إلى بار الفندق شاهدة تحوّلات سمكة - الجرس، كاتبة في ذهني فصولاً من رواية غير معقولة، ضائعة في فناء الأسلحة للغة تبدّت لي أنها قلعة، راضية بكؤوس الشاي التي كان تقدّمها إليّ أم فاروق بسرور. وها أنا ذا وحيدة (لأن جاري بدّل مقعده منذ قليل) أشغل مضطجعة ثلاثة مقاعد (كأنها شيزلونغ، أو صوفا محظيّة توبكابي العثمانية)، متنصّتة إلى «إم م م م م...» بعيد. وسوسة فيها شيء من التكريم لا أدري ما إن كان لخوليو أم لفلورا، أم لي نفسي. وسوسة كانت تشير بوضوح إلى أن «استيقظي!». وسوسة ما كنت أفكّر في أن أعيرها في البدء أدنى اهتمام. أجد نفسي في خير هكذا، كما أنا، مستلقية على ثلاثة مقاعد، متذكرة، حالمة، قائلة في النهاية إني قضيت تلك الأيام القليلة في إسطنبول على أعظم ما يكون.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

كريستينا فرناندث كوباس:

كاتبة إسبانية ولدت عام 1945 في بلدة آرينيس ديمار، في برشلونة. تخرجت في كلّيتَي الحقوق والصحافة. وبرزت على الساحة الأدبية الإسبانية عام 1980 بمجموعتها القصصية: «أختي إلبا» التي استقبلها النقاد والجمهور بحفاوة كبيرة.

أتبعتها بعد ثلاثة أعوام بـ«مرتفعات برومال» فعزّزت مكانتها في دنيا الأدب. ثم تتالت أعمالها: «عام النعمة»، «الأرجوحة»، «أشياء لم تعد موجودة»، «غرفة نونا»، وغيرها.

علي إبراهيم أشقر:

مترجم سوري، من مواليد اللاذقية 1942. ترجم عن اللغة الإسبانية عدداً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «قلب أبيض جداً» لخابيير مارياس، «لحن ماثوركا على ميتين» لكاميلو خوسيه ثيلا، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1989، «الظل والوتر» لآلِخو كاربانتييه، وغيرها.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان»: رواية «تيرانو بنديراس» للكاتب رامون ديل بايّه إنكلان، و«مع آغاثا في إسطنبول» لكريستينا فرناندث كوباس، وكتابان للفيلسوف الإسباني خوسِه أورتِغا إي غاسّيت: «محاضرات في الميتافيزيقا»، و«دراسات في الحب».

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

فتاةٌ تدخل ديراً للراهبات مع صندوق وفستان زفاف، وامرأة تتبع متشرّدة ترتدي ثوباً أخضر في شوارع المدينة، وثالثةٌ تتغيّر حياتها بعد زيارة مدفن عائلة زوجها، ولا تنفكّ تبحث لنفسها عن "مكان"، ورابعةٌ تائهة في عالمٍ أمواجه رمادية وبنّية وبنفسجية، تطفو فوقها خشبة نجاتها، وخامسةٌ تزور مع زوجها "إسطنبول"، وتقيم في الفندق ذاته حيث أقامت "آغاثا كريستي" ذات يوم، فتتقاطع حياة الاثنتين بطريقة غامضة.

هؤلاء النسوة الخمس هنّ بطلات "كريستينا فرناندث كوباس"، التي تروي فيخيّم علينا سحرٌ خاصّ، يغوينا، يثير غضبنا، يملؤنا بصورٍ ومشاعر وأوصاف وأخيلة، ويبحر فينا عبر عوالم لا نملك أمامها إلا الذهول بقدرة كاتبتها على خلق أجواء حُلميّة بأسلوبٍ أدبيّ متفرّد.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف نجاح طاهر

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-540-99-9

9 789933 540999 >